إطـــلالـــة على الذكريات

إعداد الدكتور
عبد العزيز بن عبد الله الحُمَيدي
الأستاذ في جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

ح عبد العزيز عبد الله الحميدي ، ١٤٣٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحميدي ، عبد العزيز عبد الله
اطلالة على الذكريات . / عبدالعزيز
عبد الله الحميدي- مكة المكرمة ، ١٤٣٣هـ
.. ص ؛ .. سم
ردمك ١-٠٨٥٤-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١- الحميدي ، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن - مذكرات أ.العنوان
ديوي ٨١٨,٠٣٩٥٣١ ١٤٣٣/٨١٩٦

رقم الإيداع : ١٤٣٣/٨١٩٦
ردمك: ١-٠٨٥٤-٠١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى سعادة الأديب المبدع الدكتور عبد الله بن محمد الغذامي ، من باب إحياء الذكريات القديمة ، فهو أولاً ابن خالتي، وهو ثانيًا صديقُ أول العمر حينما كنا في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، ثم افترقنا في غالب أيام السنة ، حيث التحقت أنا بكلية الشريعة في الرياض ، والتحق هو بكلية اللغة العربية في الرياض بعدي بثلاث سنوات ، ثم ذهب إلى بريطانيا لإكمال الدراسة عدة سنوات، وقد كانت لي معه لقاءات بعد ذلك في السنوات التي كان يدرِّس فيها في جامعة الملك عبد العزيز في «جدة» ، وكذلك بعد أن انتقل إلى جامعة الملك سعود في الرياض ، وقد سرني ما يقوم به من الجهاد بالكلمة ، وذلك بالدفاع عن الإسلام والرد على أصحاب الأفكار المنحرفة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ..

وبعد : فقد طلب مني ابناي عبد الرحمن وعمر عدة مرات أن أكتب شيئًا عن ذكرياتي من عهد الطفولة إلى الآن ، وكنت أرى أن الاشتغال بتأليف الكتب العلمية أكثر فائدة ، وقد نزلت أخيرًا عند رغبتهما فكتبت هذه الذكريات ، وقد بدأت بها في عام ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م فسجلت بعض الأحداث التي مرت بي منذ الصغر ، ولما كانت لا تستحق- في نظري- شغل وقتي بالكتابة ولا شغل وقت القراء بالقراءة فإنني قد رأيت أن أضمنها جملة من المختارات من كتاباتي التي تمت في بعض تلك الأحداث من باب إفادة القراء وإعطاء هذا العمل قيمة علمية .

وحينما بدأت بكتابة هذه الذكريات تمنيت لو أنني كتبت موجزًا لها أيام حدوثها ، إذ لو تم ذلك فإن هذه الذكريات ستكون أكثر مما كتبته بكثير ، ولم يخطر ببالي في يوم من الأيام أنني سأقوم بكتابة ذكرياتي، لكوني قد شُغلت بما أراه أهم من ذلك حتى طلب مني ابناي عبد الرحمن وعمر ذلك بإلحاح فاستجبت لهما .

هذا وقد أعرضت عن ذكر بعض الأخبار التي فيها انتقاد بعض الأشخاص ؛ لأن هذا يدخل في باب الغيبة ؛ خصوصا إذا كانوا قد ماتوا؛ لأن النبي ﷺ أمرنا بأن نذكر محاسن موتانا وأن لانذكر مساوئهم .

المعلومات الأسرية

ولدت في شهر صفر سنة ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م في مدينة «عنيزة» من إقليم القصيم في المملكة العربية السعودية وقد كان أكثر الناس في ذلك الزمن يعيشون على الكفاف،بحيث تكون مصادر دخلهم بقدر مصارفهم، وهؤلاء هم أواسط الناس الذين هم دون الأغنياء وفوق الفقراء،وقد كانت أسرتي من هذا الوسط ، حيث كان أبي–رحمه الله– يعمل في دكان لبيع بعض المواد الغذائية ، وقد كنا نسكن في بيوت من الطين، ولم يكن في البلد كهرباء،فكنا نستعمل السُّرج ، ولم أعرف الكهرباء إلا عندما سافرت إلى الرياض للدراسة الجامعية عام ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

الوالد رحمه الله :

والدي عبد الله بن عبد الرحمن الحميدي كان له أثر كبير في تربيتي ، فقد كان عطوفا سمحا في غالب أحيانه ، ولكنه كان قويا حازمًا في مواجهة المواقف التي تحتاج إلى شدة وحزم ، وكان من منهجه التربوي عدم خروجنا من البيت بعد صلاة المغرب ، وكان يجمعنا بعد المغرب ويعلمنا أسماء النجوم ومواقعها ، وكنا نبقي في السطوح بدون سرج وليس حولنا أنوار ، فكل البلد في ظلام ، ولذلك كنا نرى النجوم

واضحة ، وكان مما علمنا نجم « الجَدْي » الذي هو علامة على الشمال، وهو ثابت دائما في جهة الشمال ، وقد أفادني ذلك – فيما بعد – في معرفة الطرق البرية في الصحراء ، فمن ذلك أنني كنت في سفر من « عنيزة» إلى «الرياض» أيام الدراسة في كلية الشريعة ، فلما دخل السائق في نفود «السِّر» تاه عن الطريق ، فنزل وقال : هل فيكم من يعرف النجوم، وكنا في الليل ، فقلت له : نعم ، ثم نظرت إلى نجم «الجدي» ولما كانت الرياض تقع جنوب القصيم مائلة إلى الشرق فإنني قد جعلت الجدي خلف ظهري وانحرفت قليلا نحو اليسار، ثم قلت له : سر على هذا الاتجاه تماما وستصل – بإذن الله تعالى – إلى الرياض ، فسار على ذلك الاتجاه تماما وكان إذا قابله كثيب رمل أو جبل انحرف عنه ثم رجع إلى الاتجاه المذكور ، وما زال يسير حتى وقعنا على قرية « مَرَات» التي تقع بين القصيم والرياض ، فلما وصل إليها عرفها فنزل وقال: نحن الآن وصلنا إلى « مَرَات» وقد عرفت الطريق فوصلنا إلى «الرياض» بحمد الله تعالى.

وكان الوالد – رحمه الله – يقص علينا من القصص الاجتماعية، وخاصة من قصص حياته ومن قصص حياة جدي عبد الرحمن رحمه الله، وسأكتفي بذكر قصة واحدة لكل واحد منهما من قصص الشجاعة

ومواجهة الأهوال، لأنهما مثلان لحياة جيلنا السابق وماقبله، فقصة جدي عبد الرحمن – رحمه الله – أنه كان يخرج مع الحشاحيش لجمع الكلأ اليابس الذي كان يسمونه «الحشيش» وفي مرة من المرات لما رجعوا تفرقوا فكان جدي وحده، ولما رأى السحاب الثقيل وبدايات نزول المطر وقف وأنزل الحشيش الذي كانوا يربطونه بالحبال ويجعلون كل فردة على جنب البعير، فجعل فردتي الحشيش على الأرض ليصنع منهما كوخا ووضع فوقهما أعوادًا من الحطب ووضع فوقه شيئًا من الحشيش ليكون سقفا يخفف من نزول المطر ، وأشعل ناره ليصنع خبزة فوق الرمل الحار، وجاء ذئب إلى ذلك الكوخ ، فلما رآه جدِّي قال له باللهجة العامية «أبا السمح اربض وبَطِّح إيديك» وأبو السمح كنية الذئب، وقد أمره أن يجلس وأن يمد يديه ، ففعل الذئب ، فأخرج له جدي شيئًا من التمر وقال له : كل هذا حتى ينتهي القرص، ولما استوى القرص وضع عليه شيئًا من السمن وأعطى الذئب قطعة من ذلك القرص، وأكل هو من ذلك القرص ، ثم قال له : أنت خَوِيّ فانتبه للجمل من الذئاب، وكانت الذئاب قد تعودت على مؤاخات الرجال، ووضع جدي بندقيته تحت رأسه ونام، وفي أثناء الليل سمع عواءً كثيرًا ومطاردة بين الذئاب، فأطلَّ من فتحة الكوخ فرأى ذلك الذئب الذي خاواه يطارد ثلاثة ذئاب تريد

الهجوم على الجمل ، ولما رأى أن الذئاب ستتغلب على ذلك الذئب رمى أحدها ببندقيته وهرب البقية ، وفي الصباح حمل متاعه على الجمل وسار ومشى معه الذئب ، فلما أقبل على رفاقه أراد أحدهم أن يقتل ذلك الذئب فقال لهم : دعوه هذا خَوِيّ ، وعند ذلك رجع ذلك الذئب .

وهذا من عجائب المخلوقات ، كيف أن السباع المفترسة تتحول في لحظات إلى حيوانات أليفة تحرس الإنسان وهو نائم وتظل تسير معه إذا سار وتحرسه ، ولعل الشاعر إذ يقول :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى

وصـــــوَّت إنـــسان فـــكـــدت أطـــير

لعله يقصد الذئب في حال كونه أليفا .

وقد قُتل جدِّي عبد الرحمن في معركة «المليدا »وهو المكان الذي فيه مطار القصيم الآن،وكانت تلك المعركة قد دارت بين الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد أمير حائل وبين أهل القصيم ؛وكان يقود أهل بريدة أميرهم حسن بن مهنا أبا الخيل ، وأهل عنيزة يقودهم أميرهم زامل بن عبد الله السليم ، وقد نُكب فيها أهل القصيم لأنهم كانوا مشاة وقد اختاروا مكان المعركة في كثبان الرمل حتى يحولوا بين ابن رشيد والاستفادة من الخيل ، ولكنه استدرجهم وأظهر الانهزام ولحقوا به حتى

وصلوا إلى الأرض الصلبة ، فعطف عليهم محمد بن رشيد بفرسانه وقتل منهم مئات،وهي أكبر معركة يُقتل فيها هذا العدد من القصيم .

وكان عُمْر والدي – آنذاك – سنة واحدة ، وعمي محمد كان حملاً في بطن أمه رحمهم الله تعالى .

أما قصة أبي المختارة فإنها حدثت له وعمره ست عشرة سنة، خرج بحماره ليُحضر الماء في القِرَب ، لأن الجَمَّال الذي كان يُحضر لهم الماء لم يأت ذلك اليوم ، وبعد أن ملأ القربتين وحملهما على الحمار سار راجعا فأدركه الليل وكان الظلام شديدا ، فجاء ذئب ليأكل الحمار ولم يهجم على أبي لأنه كان معه عصا ، فرآه أبي لما أثار التراب في وجه الحمار، وكان بصر أبي حادًّا ، فضرب الذئب بالعصا وحاول مرة أخرى فضربه، فلما رأى الذئب أنه لن يستطيع وحده الظفر بتلك الفريسة صعد فوق كثيب من الرمل وعوى ليستنجد بالذئاب فجاءه ذئبان فنزل هو وإياهما ، وحاولوا الهجوم على الحمار ولكن أبي كان يضرب كل من اقترب منها ، ولما كادت الذئاب أن تفترس الحمار سمع أبي صوت جَمَّال يُغنِّي فصرخ يستنجد به، فأتى ذلك الجمال وأشعل عود كبريت فهربت الذئاب، وكان ذلك الجَمَّال هو الذي يأتي لهم بالماء، فلنتأمل كيف أن شابًّا عمره ست عشرة سنة يتغلب على ثلاثة ذئاب بعصاه ولم يُقعده الخوف عن الحركة والهجوم .

مغامرة جريئة :

لقد كاد الوالد أن يقضي حياته وهو في الخامسة عشرة من عمره، وذلك في عام السطوة (١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م) حينما قامت حرب بالرماية في أزقة «عنيزة» القديمة الضيقة ، بين «السليم» الذين بايعوا الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله وبين «اليحيى» الذين يناصرون آل رشيد أمراء «حائل» وكان بيت الوالد مقابلاً لباب بيت من بيوت آل يحيى، وهو قد دخل عندهم في بيتهم ، ثم بدأ الرمي بالبنادق، فخافت عليه أمه وجعلت الباب مردودًا من غير إغلاق ليستطيع الدخول بسرعة، وخاف هو على أمه ففتح باب اليحيى ، وكانت الأبواب إلى جانبيها من الخارج حَجران طويلان عريضان، يسمى كل واحد منها سارية، فالذي يقف في الباب لا يُرى من رأس الزقاق ، فاستجمع قوته ؛ وقد كان معروفا بالقوة منذ صغره ؛ فقفز قفزة واحدة ؛ وضرب الباب بجسمه فانفتح ، وإذا برصاصة تضرب صائر الباب مع دخوله فنجاه الله منها، ويجد أمه واقفة وراء الباب تنتظره بفارغ الصبر، وهذا شاهد على أن من كتب الله له البقاء لاتنال منه الأحداث القاتلة .

سفر الوالد إلى الهند :

حيث إن مصادر الرزق كانت محدودة جدًّا فإن الوالد وجد أنه

لابد من أن يسافر لطلب الرزق،فسافر إلى مكة المكرمة عام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م فلم يجد عملا فرجع ثم سافر إلى الكويت وبقي عند ابن خالفته عبد الله الدخيل ، وذكر له رغبته في السفر إلى الهند، فكتب معه كتابا لكبير أسرة «الفضل» وهم تجار من «عنيزة» يعملون في التجارة في الهند . فسافر إلى الهند،وقبلوه ليعمل معهم براتب قدره«٥٠روبية»في الشهر،وكان هذا مبلغا كبيرًا في ذلك الوقت،فبدأ العمل في مدينة «بومباي» وكان يعمل في تخليص البضائع من الميناء،وبعد سنوات نقلوا عمله إلى فرعهم في مدينة«كراتشي»التي هي الآن في باكستان،وكانت باكستان–آنذاك–جزءًا من الهند،وبقي سنوات يأتي خلالها إلى عنيزة ويبقى مدة ثم يعود،إلى أن حط الرحال في عنيزة في عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣٢م.

وقد ذكر لي الوالد أنه – مع طلب الرزق – قصد أن يكون بعيدًا عن مسرح المعارك التي كانت تقع في بلاده، لأنه لا يريد أن يسفك دم رجل مسلم ، وقد كان خلال تلك السنوات يرسل النفقة لأمه وأخيه وزوجته.

وقد قص علينا الوالد خبر السياسي الكبير عبد الله بن سليمان الحمدان رحمه الله ، فقد كان يعمل في الهند عند «الفضل»، وقد مرض فجاؤوا له بطبيب ماهر ، فقال : إن هذا الرجل سليم وليس فيه أي مرض، وإنما عنده طاقة فكرية عالية ، والعمل الذي أُسند إليه لا

يستوعب إلا قدرًا يسيرًا من طاقته ، وقد تقلبتْ به الأحوال حتى صار وزيرًا للملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، وقد أسند إليه أعمالاً كبيرة .

ومن الموافقات أن ذلك الطبيب الهندي زاره بعد أن أصبح وزيرًا فقال له : الآن وضعت نفسك في موضعها الصحيح .

وقد عمل الوالد بعد عودته من الهند في مجال التجارة، وكان مثالا للتسامح في المعاملة .

وقد ذكر لي أخي محمد أنه رأى رجلا يجلس في عَتَبَة الدكان ويأخذ من القهوة والهيل ويضع ذلك في جيبه، قال : فذكرت ذلك للوالد رحمه الله فقال : ياولدي لعله محتاج ، لعله لايجد ما يشتري به القهوة والهيل، وهذا مثل جيد في السماحة والنظر في حاجة ذوي الحاجات .

وكان والدي–رحمه الله -يحرص على حضور دروس الشيخ عبدالرحمن السعدي – رحمه الله – يوميا بعد صلاة العصر في المسجد الجامع، وكذلك كان يحضر دروس الشيخ محمد العثيمين – رحمه الله – بعد ذلك، وقد أفاده ذلك سلوكا حميدا في حياته واجتنابا لجميع المعاملات المحرمة في البيع والشراء وكان معروفا بإيفاء الكيل والوزن إلى حد المبالغة في ذلك.

وقد توفي الوالد – رحمه الله – في عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م أما والدتي – رحمها الله- فإنها توفيتْ في عام ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م وكان عمري – آنذاك – أربع سنوات ونصف .

ذكرياتي مع أفراد الأسرة :

كان أخي عبد الرحمن الأكبر في سن الشباب في وقت طفولتي وكان يكثر من السفر .

أما أخي وشقيقي محمد الذي يكبرني بسنتين ونصف فإنه أول صاحب لي ، وقد امتدت معيشتنا سويًا إلى آخر سنة من المرحلة الجامعية ، وكان قد سبقني بسنة دراسية في كل مراحل الدراسة ، وكان سفره إلى الرياض للدراسة قبلي بسنة ممهدًا لي ، حيث لم أجد غربة ولا صعوبة بسبب فراق الأهل .

ولما سافر إلى الرياض وجدت وحشة وغربة لفراقه لكوني قد استغنيت به عن الأصدقاء .

وقد تخرج من كلية اللغة العربية في عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م وأصبح مدرسًا في معهد « عنيزة»العلمي،لمدة سبع سنوات،ثم تولى إدارة المعهد لمدة إحدى وعشرين سنة،وكان مثالا عاليا للإداري الناجح .

كما أنه كان مثالا عاليا في مكارم الأخلاق ، وله عليَّ فضل كبير في

العناية بي ورعايتي في المراحل التي كنت محتاجًا إليه فيها .

أما الذي كمل جماعتنا في مرحلة الطفولة فإنه عبد العزيز ابن أخي عبد الرحمن ، وكان أبوه قد سافر طويلا وتركه هو وأمه التي هي خالتي عندنا ، وكان أصغر مني بسنتين وأربعة أشهر ، وقد امتدتْ ذكريات الطفولة معه حتى سافر مع أبيه إلى شمال المملكة عام ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م ثم تكررت بعد ذلك في الإجازات الصيفية ، وقد قمت أنا وأخي محمد بزيارة لأخي عبد الرحمن في مدينة « شقراء » عام ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م بعدما انتقل إليها ، وقد كانت وسيلة السفر هي طائرة «داكوتا» التي كانت متعبة بتحركاتها في الجو بسبب العوارض الجوية ، وقد كان ابن أخي يقرأ عليَّ القرآن في تلك الزيارة ، ليصحح أخطاءه ، وقد وصل في القراءة إلى آخر سورة المائدة .

مراتع الصِّبَا :

مدينة « عنيزة » تقع بين تلال شرقية ورمال غربية ، وكانت السيول تنحدر من التلال الشرقية وتحمل معها الطين الذي يزيد من خصوبة الأرض، ومزارع النخيل تحيط بعنيزة من جميع جهاتها ، وقد نشط بعض الأهالي بغرس شجر الأثل في الرمال الغربية إلى عدة أميال، وقد زاد ذلك في جمال مدينة عنيزة حيث أصبحت نسبة الخضرة إلى نسبة المباني أكثر

بكثير ، وأذكر أن أحد الطيارين الأمريكان لما هبط بطائرته «داكوتا» في مطار عنيزة القديم الطيني ورأى منظر عنيزة الأخضر الجميل من الجو طلب من مدير المطار أن يكلف واحدا بمرافقته في جولة في عنيزة ليرى تلك المزارع الخضراء ، ولكن ذلك المرافق لم يفهم مقصد ذلك الطيار فسار بالسيارة داخل أسواق عنيزة الطينية فثار الغبار ووصل إلى ذلك الطيار فأمر المرافق بالعودة سريعا إلى المطار .

وقد كان المؤرخ أمين الريحاني زار مدينة عنيزة في أوائل القرن الماضي وبقي بها عدة أيام وأُعجب بجمالها وسمَّاها « باريس نجد» وكتب عنها عدة صفحات في كتابه « ملوك العرب» .

وكانت التلال الشرقية والرمال الغربية هي مراتع الصِّبَالي ، وكنت أخرج أنا وأخي الأستاذ محمد حفظه الله وأحيانا يصحبنا ابن أخي عبدالعزيز حفظه الله قبل أن يسافر مع أبيه ، وكنا نرتع في النباتات البرِّية التي من أبرزها في التلال وما حولها نبات البِسباس والحُوَّى والبِقِّيقِر ومن أبرزها في الرمال الغربية العراجين وهو نبات أبيض له رأس ويرتفع عن الأرض عدة سنتيمرات ، وكذلك العَنْصل وهو نبات يشبه البصل الأخضر الصغير إلا أنه ليس فيه حرارة .

وكان يخرج معنا أحيانا إلى التلال الشرقية أحد أبناء جيراننا وهو

الأخ يوسف الدُّبيَّان ، وأذكر أننا رأينا عن بُعد رِجْمَ حجارة سوداء وفوقها طائر أسود كبير ، فلما رأينا ذلك الشاخص عن بُعد ظننا أنه رجل واقف قد لبس مِشلحًا أسود ، فلما حرك الطائر جناحيه قلت: قد واسى مِشْلحه ، فلما اقتربنا منه طار الطائر وعرفنا حقيقة ذلك الشاخص .

وقد كان الرجال في ذلك الزمن إذا خرجوا يتمشون خارج البلد يلبسون مشالحهم فوق رؤوسهم .

وكنا أنا وأخي محمد نزور أحيانا خالي محمد الجهني شفاه الله وحفظه في مزرعته في « الوهلان» وكان على بُعد عدة أميال غربي عنيزة ثم نعود مشيا على الأقدام ، وكان – آنذاك – يحفظ القرآن ، فكان يضع المصحف في إحدى النخيل ويعمل ويقرأ من حفظه ، فإذا نسي آية يأتي وينظر إلى المصحف .

وقد كنت أخرج إلى وادي عنيزة الذي يسمى وادي «الرمة» مع خالي موسى الجهني رحمه الله راكبين على الحمار ، والحمار هو الدابة الوحيدة التي ركبتها ، فلم أركب الإبل لأنني لما سافرت أول سفرة لي إلى الحج عام ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م كانت السيارات الكبيرة هي التي تستعمل للسفر، وهذا الوادي على طوله تحيط به مزارع لأهل عنيزة أكثرها من النخيل، وقد كان الماء فيه قديما على عمق مترين تقريبا أيام كانت الأمطار

كثيرة، فكان بعض المزارعين يحفرون حُفَرًا ويغرسون فيها النخل فلا يحتاج منهم إلى سقي .

وبعد ذلك كنت أخرج إلى المزرعة التي يعمل فيها خالي إبراهيم الجهني، وقد التقيت عدة مرات بالدكتور عبد الله بن محمد الغذامي حفظه الله الذي هو ابن خالتي رحمها الله وقد كانت لي معه أحاديث جميلة، وكنا – آنذاك – طلابا في المعهد العلمي ، وأنا أكبر منه بثلاث سنوات، وكان يذكر أنه يقرأ كتاب « الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني» وهو عدة مجلدات، وقد كانت دراستي على سماحة الشيخ محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – في المسجد الجامع سببا في ميلي إلى الالتحاق بكلية الشريعة، أما الدكتور عبد الله فقد كان استغراقه في القراءة في الكتب الأدبية سببا في ميله إلى الالتحاق بكلية اللغة العربية .

حياتي الزوجية :

بالنسبة لحياتي الزوجية فإنني تزوجت في مدينة الطائف عام ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م من أسرة كريمة من مدينة«المِذْنب»في إقليم القصيم، وكان والد زوجتي الشيخ عبد الكريم بن محمد الحسين قد حفظ القرآن في شبابه في مدة قياسية ودرس العلم على علماء بلده وعلماء مكة المكرمة ، ثم عُيِّن داعيا إلى الله تعالى في بلدة « المخواة» في تهامة بلاد غامد وزهران،

وقد بقي فيها عدة سنوات نشر فيها دعوة التوحيد ، وكان من أثر ذلك أنه قام هو وتلاميذه بإزالة بعض الأماكن التي كان الناس يتبركون بها.

ثم انتقل إلى مدينة بلجرشي حوالي عام ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م وظل يواصل الدعوة في منطقة غامد وزهران ، ويقوم بالإفتاء ، ومن أبرز أعماله أنه كان يقوم بالصلح بين أفراد القبائل،وكان الناس يقبلون صلحه لأنه كان محبوبًا عند الجميع،وكان يذهب ماشيا إذا كان المكان قريبا وراكبا على الحمار إذا كان المكان بعيدا،لأنه لاتوجد– آنذاك – وسائل مواصلات، وبهذا فإنه قد أسقط عن قضاة المنطقة عبئا كبيرًا لأن أكثر قضايا الخلاف يقوم بحلها عن طريق الصلح ، وقد عُرض عليه القضاء فأبى من باب الورع ، وقد جمع في مكتبته عددا كبيرا من كتب الفقه كان يقرأ فيها ويرجع إليها لمعرفة الحكم في بعض القضايا التي يُستفتى فيها، وقد بقي في «بلجرشي» إلى بداية عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م ، وهو العام الذي قدمت فيه للتدريس في معهد بلجرشي العلمي ولم يكن لي شرف التعرف عليه لأنه سافر إلى الطائف قبل مجيئي بثلاثة شهور، وقد تعرفت عليه بعد مجيئي إلى مكة المكرمة عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م عن طريق تلميذي النابه سراج بن يحيى الزهراني الذي درس عليَّ في معهد بلجرشي ثم انتقل إلى معهد مكة المكرمة ، وكان تعرُّفي على أسرة الشيخ عبدالكريم

بسبب أن تلميذي سراج قد أشار علي بالزواج من ابنة الشيخ عبد الكريم «نورة» وأفاض في الثناء على هذه الأسرة ، وقد كان من المرشحات للإقدام على خطبة ابنة الشيخ عبد الكريم أنني رأيت في المنام أنني أتزوج في الطائف، وقد علمت من زوجتي أم عبد الله بعد ذلك أنها رأت رؤيا قبل الزواج، وهي أنها قد نزلت إلى مكة المكرمة هي وأبوها وأسرتها، وأنهم في الطواف حول الكعبة قالوا لها : اتبعي هذا الرجل وكانت لاتعرفه ، فتبعته فلما التفتتْ لم تجد أهلها، وكان ذلك من دوافع إجابة والدها لما تقدمتُ لخطبتها، وكانت نِعم الزوجة فكانت صالحة تقية وكانت حافظة لحقوق زوجها بارة بأبنائها شديدة العناية بتربيتهم ، وقد غطَّت بجهودها المتواصلة ما قد يكون من جوانب النقص عندي في هذا المجال بسبب انشغالي بالعمل وتأليف الكتب ،فجزاها الله خيرا.

أما والدها الشيخ عبد الكريم بن محمد الحسين فإنني قد صحبته عشر سنوات حتى توفي عام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، وكان تقيا ورعا عالما بالفقه كريم الأخلاق والمعاملة .

وقد رأيت بعض العلماء الذين هم من أهل الآخرة وليسوا من أهل الدنيا يحبونه ويزورونه ، فقد رأيت فضيلة الشيخ عبد الله بن غديان رحمه الله مرتين يزوره في بيته إذا جاء في الصيف إلى الطائف ، وذلك تقديرًا

لعلمه ولعزوفه عن المظاهر الدنيوية رحمه الله تعالى .

وقد خلَّف هذا العالم الجليل ابنين كان لي معهما تاريخ حافل بالمكارم ، وهما محمد وعبد الرحمن ، فمحمد هو صاحب الشهامة والذي يتفانى في تقديم الخدمات لأصدقائه ومحبيه ، وعبد الرحمن عبقري في الهندسة ، وقد كان اخترع إذاعة تبثُّ في منطقة بلجرشي، وكان بارعا في إصلاح السيارات والأجهزة الكهربائية ، ومن مظاهر عبقريته أنه أتقن اللغة الإنجليزية بدون دراسة في معهد متخصص ، وإنما كان غالب معرفته بها من المحادثة مع المهندسين الأجانب، وقد تولى الترجمة الفورية في بعض القطاعات التي عمل بها .

أما محمد بن عبد الله الحسين ابن أخ الشيخ عبد الكريم فهو الرجل المُعَبَّأُ المُخبَّأ .. المعبأ بالثقافة والأدب، ولكنه المخبأ عن الأنظار، وذلك لكونه لايحب الأضواء ولا الشهرة ، وهو من المكثرين من القراءة، وكان – ولايزال – نافذة مهمة لي على الكتب والمجلات الجديدة النافعة، وقد كان لي معه –في زمن مضى –جلسات ممتعة مع زميلي الأستاذ صالح بن إبراهيم العليان – رحمه الله – الذي كان مديرًا لمعهد الطائف العلمي ، ولقد استفدت من الأخ محمد – حفظه الله – في مراجعة عدد من كتبي بعد إعدادها للنشر ، ولا تزال علاقتي العلمية معه حتى الآن .

أما أولادي فإنهم أربعة أبناء وبنت ، وهم عبد الله الذي تخرج من كلية الدعوة وأصول الدين ، وهو يُدِّرس الآن في مدرسة ثانوية بمكة المكرمة ، وعنده ثلاث بنات وولدان ، ثم أحمد ، وقد تخرج من كلية الدعوة وأصول الدين ، وهو يعمل في الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي ، وعنده بنت وولد ، ثم البنت « ندى» وقد تخرجتْ من الدراسات الإسلامية في جامعة الملك عبد العزيز ، وقد حَظيتْ بزوج تقي كريم حافظ لكتاب الله تعالى ، وهو الدكتور محمد بن صالح البسام ، الأستاذ في جامعة الملك عبد العزيز ، وعندها ولدان وبنت ، ثم عبد الرحمن وهو على وشك التخرج من كلية الشريعة، ثم عمر وهو على وشك التخرج من المرحلة الثانوية .

وهم جميعا صالحون – بحمد الله تعالى – ولم تطرأ على أحدهم فترة من الانحراف ، وكنت أقوم بتوجيههم المستمر، وأحمد الله تعالى على أنني ما ضربت أحدًا منهم ، وهم يحترمونني احتراما كبيرا ، ولا أذكر أنني مددت يدي على أحد قط طوال عمري .

ذكريات المرحلة الابتدائية

التحقت بالمدرسة الابتدائية العزيزية في مدينة عنيزة عام ١٣٦٩/ ١٩٥٠م ، وقد كان أبي رحمه الله قد ألحق أخي محمدًا في تلك السنة بالمدرسة ، ولم يلحقني لأنني لم أكمل السنَّ النظامية ، وقد كان الشائع أن ولادتي كانت في عام ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م وهو الذي كان يذكر الوالد ، ولكن لما أخرجت التابعية عام ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م جعلوا ولادتي عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م ،وكان لذلك قصة،وهي أن من كان عمره ١٨ سنة يحصل على دفتر صغير ومن هو دون ذلك يعطَى ورقة، فاعترضت أنا وأخي محمد على ذلك وطلبنا من المدير إعطائي دفترًا ، فوافق على ذلك ، وكتب ولادتي عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م .

فلما تم إلحاق أخي محمد بالمدرسة – وكنت أعيش معه كظلِّه- صرت أنسلُّ من البيت وأذهب إلى المدرسة ، فيمنعني البواب من الدخول، ويأتي أبي ليأخذني، ولما علم بذلك مدير المدرسة المربي الكبير الأستاذ صالح بن صالح رحمه الله قال لأبي : الأمر سهل ، نلحقه هذا العام في السنة الأولى / ب وفي العام القادم نكتب دخوله في السنة الأولى/ أ ، وتم ذلك وبقيتُ في السنة الأولى سنتين .

ومن ذكريات المرحلة الابتدائية أنني لما كنت في السنة الرابعة وكنت

في الصف الأول إما الثاني أو الثالث في الترتيب وكنا فصلين دراسيين، وعلمت من أحد طلاب الفصل الثاني أن أستاذهم في النحو درَّسهم اسم الموصول وعلَّمهم صلة الموصول والعائد، وأستاذنا قد علمنا صلة الموصول ولم يذكر لنا العائد، فذهبت إلى مدير المدرسة الأستاذ صالح بن صالح رحمه الله فقلت له : إنني أريد أن أنتقل إلى الفصل الثاني، فسألني عن السبب فذكرت له موضوع العائد على الموصول الذي لم يذكره لنا أستاذنا ، فابتسم وقال: أنا أنبه أستاذكم على ذلك .

وكان أسلوب التأديب بالضرب موجودًا في ذلك الزمن، وكانوا يربطون رِجلَي الطالب ويضربونه من قدميه ، وكانوا يسمون ذلك «المِشلَّة» ولم أذكر أني ضُربت في تلك المرحلة أبدا إلا ضربة خفيفة تربوية من الأستاذ عبد العزيز الغرَيِّر رحمه الله ، وكنا ندرس في السطح في الشتاء للاستدفاء بحرارة الشمس وكنت أعبث بيدي على شفتي السفلى، فجاءني من خلفي وضرب يدي، فلم أضع يدي على شفتي بعد ذلك .

ومن ذكريات الدراسة في المدرسة الابتدائية أنه كان يدرسنا في السنة الخامسة الأستاذ عبد الله الخَلَف حفظه الله ، وكان يقص علينا في بعض الدروس من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكان قد وعدنا في يوم من الأيام بأن يقص علينا قصة نوح عليه الصلاة والسلام

فقال لي أحد الزملاء : تعال نذهب ، فقلت له : قصة نوح [وين] نروح، وهذا القصص – على الرغم – من أنه لايزيد عن عشر دقائق كان مرغبا لنا في دروس الأستاذ المذكور .

وكانت الدراسة – آنذاك – في الصباح إلى الظهر ، ثم نذهب إلى بيوتنا فنتناول قليلا من التمر واللبن أو الماء، ثم نرجع إلى المدرسة إلى ما قبل المغرب بساعة ، ولم نكن نحمل معنا إلى بيوتنا حقائب ولاكتب، وكان الطالب يُسلَّم دُرجًا من الخشب أمام كرسيه وفيه غطاء وفي الغطاء موضع القفل الذي يسمي « قصة وركزة» فيأتي الطالب بالقفل ويقفل على دروسه ، وفي الدراسة المسائية نقوم بحلِّ الواجبات مع الأساتذة، وتلك طريقة تربوية عالية ، وكانت ضرورية في ذلك الوقت، لأن أكثر الآباء والأمهات لم يتعلموا ، ولم يكن بإمكانهم أن يشرفوا على أولادهم في حل واجباتهم .

ولكن كان من سلبيات هذه الطريقة الدراسية بالنسبة لي أنني كنت مصابا بالصداع من الصغر فكانت العودة إلى المدرسة تسبب لي زيادة في الشعور بالصداع .

وكان أخي الأستاذ محمد الذي يكبرني بسنتين وأشهر قد التحق بالمعهد العلمي ، وكانت الدراسة في المعهد فترة واحدة في الصباح إلى

الظهر، ولما كان في المعهد قسم تمهيدي لمدة سنتين تعادلان السنة الخامسة والسادسة الابتدائية فإنني بعد السنة الخامسة التحقت بالمعهد في السنة الثانية التمهيدية ، وكان الدافع الأهم لي في ذلك هو التخلص من الفترة الثانية التي تسبب لي مزيدًا من الصداع .

وفي أثناء تلك السنة سمعت من زملائي في المدرسة الابتدائية الذين كانوا في السنة السادسة أن المعهد ليس له مستقبل، وكان من الموافقات الجيدة أن اختبار المعهد يسبق اختبار المدرسة الابتدائية ، فلما انتهيت من اختبار المعهد قدَّمت طلبًا لمدير المدرسة الابتدائية بحضور اختبار الشهادة الابتدائية ، فوافق على ذلك ، وحضرت الاختبار، وقد نجحت في اختبار القسم التمهيدي من المعهد وفي اختبار الشهادة الابتدائية .

هذا وقد حُبِّبَتْ إليَّ القراءة منذ أن كنت في المرحلة الابتدائية، فقد وقع في يدي كتاب « جواهر الأدب» للسيد الهاشمي رحمه الله وهو يقع في ٧٥٠ صفحة وأنا كنت في السنة الخامسة الابتدائية ، فقرأته مرتين، وقد كررت قراءته لأنه لم يكن عندي كتاب غيره .

ثم وقع في يدي كتاب « كُليلة ودمنة » وقرأته وكذلك قرأت كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» ولم أكن قد اخترت هذه الكتب ولكنها هي التي وقعت في يدي .

وفي السنة السادسة التي هي ثانية تمهيدي في المعهد قرأت قصة خيالية حربية يعنوان « حمزة البهلوان» وقد حصلت على الجزء الأول والثاني منها ، ولما وصلت إلى قول الناشر : انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وأوله « فأجلا » وقع عندي حسرة حيث لم أحصل على الجزء الثالث، وقد رأيت الجزأين الثالث والرابع وأنا في المعهد ولكني لم استسغ قراءتهما لأنهما كانا أقل من مستوى فهمي آنذاك .

وأذكر أنه من إعجابي بهذه القصة نسجت من خيالي قصة مشابهة وقصصتها على ابن أخي عبد العزيز بن عبد الرحمن الحميدي في الإجازة بعد تخرجي من المرحلة الابتدائية ، وكنت أخرج أنا وإياه إلى كثيب من الرمل، يسمى « نفود العلوَّة» فنجلس في ظله وأقص عليه تلك القصة ولم أكتب منها شيئا وأذكر أن بطل القصة قد سميته « بطل المعارك» .

وقد كان لأخي الأستاذ محمد فضلٌ علي ، لأنه هو الذي اشترى تلك الكتب ، وذلك لأنه كان يبيع الحلوى للأولاد فيوفر بعض النقود.

وكنت قليل اللعب في الشوارع التي كنا نسميها الأسواق ثم لازمت المسجد في المساء لقراءة القرآن إلى أن بدأت بالدراسة على الشيخ محمد بن صالح العثيمين في عام ١٣٧٧هـ كما سيأتي،وكنت أمرُّ بالأولاد وهم يلعبون وأنا خارج من المسجد فيقولون : لماذا هذا لايلعب معنا ؟

وكان زميلي في المسجد رجل عمره بين السبعين والثمانين وهو من أصل أفريقي ، وكان مملوكا سابقا لعائلة الذكير، فأعتقوه وبقي عندهم في البيت ، فكانوا يخدمونه بعد أن كان يخدمهم ، وهذا من فضائل العائلات الكريمة .

وكنا نذهب لصلاة الجماعة أنا وأخي حتى في ظلام الليل وكانت الأسواق مظلمة تماما ، وإضافة على ظلامها كان فيها أجزاء مسقوفة، وكنا نسميها القباب ، وهذه القباب تصل بين بيتين على جانبي السوق، وفي ليلة من الليالي وأنا أسير أنا وأخي محمد لصلاة الفجر دخلنا في إحدى هذه القباب فاعترض طريقنا جسمُ مخلوق كبير فقلت لأخي : ماهذا المخلوق ؟ ثم ذهبت من يمين وذهب أخي من شمال ذلك المخلوق، وقد تبين لنا من اللمس أنه جمل قد نوَّخ في تلك القبة، وقد ذكرت هذه القصة – على قلة شأنها – لأذكِّر شباب هذا الجيل بنعمة الأنوار وسعة الشوارع ، ومع ذلك يتخلف بعض الغلمان وربما بعض الشباب عن صلاة الجماعة .

الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي :

هذا الشيخ – رحمه الله – من أكبر علماء نجد ، وقد ازدانت به مدينة «عنيزة» عقودًا من الزمن، فكانت له نشاطات متعددة، منها إمامة الجامع

الأكبر ، والإفتاء ، والتدريس في مكتبة الجامع، وقد تخرج على يده علماء أجلاء ، وقد كان جامعا بين العبادة والزهد والدعوة التربوية، والاشتغال بالتعليم، والتأليف .

وليس هذا مقام الحديث عن هذا الشيخ الجليل، وإنما المقصود تسجيل ذكرياتي معه، وقد توفي–رحمه الله–عام ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م وكان عمري –آنذاك–أربع عشرة سنة،ولم يكن لي شرف التعلم على يديه ولكن كانت لي ذكريات معه،فقد كنت ملازما للصلاة معه كل جمعة، ولما كنت صغيرا كنت ألعب أنا وأخي محمد وأولاد معنا في سوق قريب من البيت، وكان هذا السوق غير نافذ ويفتح على سوق عام،وكنا نلعب بِكُرة صغيرة بحجم قبضة اليد،وكانت تُصنع من الخِرَق التي تُجمع ويخاط عليها ، وكنا نسميها «طابة» وفي يوم من الأيام رمى واحد منا هذه الطابة جهة السوق النافذ، فاتفق ذلك مع مرور الشيخ عبد الرحمن فأصابته تلك الطابة،وأتينا إليه نعتذر منه،وقد كان الأولاد في ذلك الوقت يستحيون من الكبار ويحترمونهم حتى إننا كنا إذا مر الرجال أو النساء نوقف اللعب ونبتعد عن الطريق حول الجدران حتى يمروا ، فوقف الشيخ عبد الرحمن وقال لنا : إذا لعبتم فانتبهوا لاترموا الطابة بقوة فقد تمر امرأة فتصيبوها، وأخرج من جيبه عددا من الحلوى فوزعها علينا،

وقد كنا – على صغرنا – نشعر بأننا أمام رجل عظيم ونحبه كثيرًا .

وفي عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م جاء إلينا في البيت استجابة لدعوة الوالد–رحمه الله–وكان أخي الأكبر عبد الرحمن قد اشترى لنا راديو كبير «باي» الذي يعمل بالبطارية،وهو الذي يوجد آنذاك،وكان أخي محمد الذي يكبرني بسنتين وأشهر قد تعلق بذلك الراديو،ففتحه وجاء شيء من الموسيقى، وكان أبي ثقيل السمع،ولكن الشيخ سمع ذلك ، فاستدعى أخي محمدًا فأقفل الراديو وجاء إليه فقال له : لو أنه قُدِّم إليك جمرة وتمرة أيهما تأخذ؟ قال: آخذ التمرة ، فقال: فهذا الراديو فيه الخير مثل القرآن والأخبار وفيه الشر مثل الموسيقى والأغاني، فاستمع للخير وتجنب الشر، وكانت نصيحة غالية كان لها أثر كبير علينا ، وهذا مثل من أمثلة حكمته في الدعوة، في الوقت الذي كان بعض العلماء يحرِّمون الراديو مطلقا بما فيه من خير أو شر .

وكانت للشيخ – رحمه الله – دروس منتظمة لطلاب العلم في مكتبة المسجد ، وله دروس عامة يحضرها عموم الناس ، وذلك بعد صلاة العصر وقبل صلاة العشاء كل يوم ، وهذه الدروس تشتمل على الموضوعات الدعوية السلوكية وتشتمل على الأحكام الفقهية التي يحتاج إليها عامة الناس ، وقد حوَّلتْ هذا الدروس قطاعا كبيرًا من عامة الناس

إلى السلوك الأمثل في الحياة وإلى فهم بعض الأحكام التي يحتاجون إليها، وقد كان درس بعد صلاة العصر يحضره عدد كبير من التجار، ذلك لأن المسجد الجامع قرب السوق التجارية فكان التجار يخرجون من بيوتهم إلى المسجد ويحضرون درس الشيخ ثم يذهبون إلى دكاكينهم، وقد كان في محراب المسجد الذي يجلس فيه الشيخ باب مفتوح، وحوله مكان تجتمع فيه النساء لسماع الدروس ، وقد حقق ذلك وعْيًا دينيًّا عند بعض النساء اللاتي يحضرن هذه الدروس ، وعلى سبيل المثال كنت أنا وأخي محمد في زيارة لعمة لنا كبيرة السن ، وقد بدأتُ أنا وأخي نتناقش في الخلاف الذي جرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما، فلما سمعتْ ذلك غضبتْ وقالت : الكفُّ عما جرى بين الصحابة، وهي عامية لاتقرأ ولاتكتب ، وكان ذلك مما استفادته من دروس الشيخ عبد الرحمن رحمه الله.

ولما توفي–رحمه الله –عام ١٣٧٦هـ /١٩٥٧م حضرت تشييع جنازته ومشيت مع المشيعين إلى المقبرة ، وقد رأيت – لأول مرة – الرجال يبكون وهم يسيرون خلف جنازته ، وقد ظهر من كثرة المشيعين محبة أهل عنيزة له ، وقد كان محبوبًا داخل المملكة وخارجها رحمه الله.

ذِكرَى من أجل شكر النعمة :

في ذلك الزمان الذي نشأت فيه في مدينة « عنيزة» ودرست فيه المراحل الثلاث الأولى لم يكن فيه أطباء ولامستشفيات ، وكان هناك رجل متطوع من عائلة «الراجحي» يقوم بخلع الأسنان بدون تخدير، وقد قال له والدي : سيأتي إليك عبد العزيز لتخلع ضرسه فذهبت إليه في عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م فخرج من دكانه وأجلسني على الأرض في زقاق صغير، وأدخل «الزرَّاديَّة» في فمي وخلع ضرسي بقوة، ثم وضع فيه قليلاً من الرماد ليوقف الدم، ورجعت أمشي إلى البيت، ثم وقف الدم بعد ذلك ، فلننظر أولا إلى تلك الحياة القاسية التي تُخلع فيها الأسنان بدون تخدير وبآلات تُستخدم للمسامير ونحوها، ثم لننظر إلى ما آلت إليه حال الناس بعد ذلك وقد توافرت لديهم المستشفيات والتخدير الذي لايشعر معه الإنسان بأي ألم ، فلنشكر الله تعالى على تبدُّل الأحوال إلى أنواع من الراحة والأمان .

ثم لننظر إلى مَثَل من أمثلة التربية الشديدة الحازمة التي كان الآباء يربون بها أولادهم، فأنا مع صغر سني أذهب وحدي إلى ذلك الرجل الذي خلع ضرسي وأصبر على ذلك الألم الفظيع بدون أن يبدو مني أي حركة أو صوت في مقاومة ذلك الألم ، ولاشك أن تلك التربية كان لها

أثر كبير في صناعة ذلكم الجيل .

ومن الملاحظ أنني لم أخلع إلا ضرسا واحدا حتى في سن الشباب، بينما تمتليء الآن عيادات الأسنان بالأطفال، ومَردُّ ذلك – في الظاهر- إلى كثرة تناول الحلويات بين الوجبات وعدم تنظيف الأسنان بعد ذلك، بينما لم يكن للحلويات وجود في ذلك الزمن المذكور إلا بصورة نادرة جدًّا .

ذكريات المرحلتين المتوسطة والثانوية

كانت المعاهد العلمية تشتمل على المرحلتين المتوسطة والثانوية ، وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات ثم صارت ست سنوات، وفي عام ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م كنت في السنة الأولى من المعهد، ومن ذكرياتي في المرحلة المتوسطة أنني كنت شغوفًا بمادة الجغرافيا، وكنت أرسم القارات التي كنا ندرسها وأكتب أسماء الدول وعواصمها بدون رجوع إلى الكتاب، وفي السنة الثانية المتوسطة كان المقرر علينا قارة أفريقيا وأستراليا، فطلب الطلاب من الأستاذ أن يعفيهم من قارة أستراليا، فكاد أن يفعل ذلك، وطلبت الكلام فأذن لي فقلت له : أنا لا أرى ذلك ، لأننا سنتخرج من المعهد وقد درسنا جميع القارات ماعدا قارة أستراليا، فعزم على تدريسنا هذه القارة وقد أفدت من هذه الخبرة بالجغرافيا في تحديد القبلة في البلدان التي كنت أسافر إليها في دورات رابطة العالم الإسلامي، وذلك أنني كنت أعرف القبلة في أي بلد إذا عرفت جهة الشمال، لأنني أعرف موقع ذلك البلد بالنسبة لمكة المكرمة ، وتكون الحاجة إلى ذلك حينما نسكن في فندق ليس فيه مسلمون، فكنت أسألهم عن جهة الشمال، ثم أحدد موقع مكة من ذلك البلد .

وأذكر أنه في السنة الثانية المتوسطة جاء إلينا مدرس للأدب العربي ،

وكان ضعيفا في الذوق الأدبي، فقرأ لنا يوما قصيدة ابن الرومي :

أَأَيــامَ لهوي هــل مــواضيك عُوَّد

فقرأ عوْد بإسكان الواو، فقلت له : أليستْ عوَّد بتشديد الواو لأنها جمع عائدة ؟ فقال: نعم هي كذلك ، ولما قرأ خطبة داود بن علي بن عبدالله بن عباس جاء فيها كلمة « والقُوَّام به» فقرأها بفتح القاف وقال: صوابها والقَوَّامين به ، فقلت له : ألا يمكن أن تكون بضم القاف فتكون جمع تكسير ؟ فقال: يمكن ذلك .

وفي هذه السنة١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م بدأت بالدراسة على شيخي العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في مكتبة المسجد الجامع في المساء من قبل صلاة العصر بساعة إلى قبيل المغرب ، وكان أهم الدروس التي درستها عليه درس الفقه في كتاب«الروض المرْبع بشرح زاد المستقنع»وقد بقيتُ في الدراسة عليه أربع سنوات،وكنت من طلاب الدفعة الأولى التي تخرجتْ على يده،وكان في المكتبة نُسخ كثيرة من هذا الكتاب للطلاب المنتظمين،وقد استلمت نسخة من هذا الكتاب،وكان الشيخ–رحمه الله– يأتي بتفصيلات مهمة ويذكر القول الراجح في المسائل الفقهية وأحيانا يذكر بعض القواعد الفقهية،ولم يكن بإمكاني كتابة ذلك على نسخة المكتبة فكنت أحفظ تعليقاته تلك فإذا رجعت إلى البيت كتبتها على نسختي التي

استلمتها من المعهد،حيث إن هذا الكتاب هو المقرر في المعهد، وما يزال هذا الكتاب الذي يحمل تعليقاتي عندي حتى الآن .

وقد كان الشيخ أحيانًا يخيِّرنا في الموضوعات التي نريد دراستها، فخيَّرنا مرة فكنت أنا الوحيد الذي اختار موضوع الحج، فقال: هل تريد أن تحج ؟ قلت : نعم ، قال: فأت كل يوم أقرأ أنا وأنت منسك الحج، فكنا نصعد كل يوم بعد صلاة العصر إلى سطح المسجد فأقرأ عليه منسكا كان قد ألَّفه وكُتب بالآلة الكاتبة حتى أنهينا قراءة ذلك المنسك، فقال: خذه معك في الحج ، فأخذته معي ، وكنت أفتي الحجاج منه وذلك في عام ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م وهذه المعاملة من الشيخ – رحمه الله – تعدُّ معاملة جليلة، وذلك حينما خصص لي وقتا لأقرأ معه كتابه في المناسك ، وتلك الحجة هي أول مرة أحجها ، وكانت وسائل المواصلات آنذاك هي السيارات الشاحنات المكشوفة وكانوا يضعون الأمتعة في أسفل السيارة ويخصصون للنساء ثلث السيارة الأمامي والباقي للرجال وكنا نظل قعودا متزاحمين طوال الوقت ، وليس للسيارة غطاء يقي من الشمس ولا من البرد في الليل ، ووصلنا مكة بعد ثلاثة أيام .

وقد حظِيتُ بالدراسة على سماحة الشيخ محمد في الصباح في المعهد حيث كان يدرسنا عددا من المواد، وفي المساء في المسجد، وكان في المعهد

يختبرنا ويعطي الفائز بالدرجة الكبرى جائزة فكنت أحصل كثيرًا على الجوائز .

ومن المزايا الكبيرة التي لاحظتها في تدريس الشيخ – رحمه الله– أنه يقرأ في وجوه الطلاب ما إذا كانوا حاضرين بأجسامهم وأفكارهم أو بأجسامهم وأفكارُهم ليست معه ، فكثيرًا ما يقول: انتبه يافلان مع أنه ينظر إلى الشيخ ولم يلتفت ، ومن أجل ذلك فإنني كنت لا أحتاج إلى مذاكرة دروس الشيخ في الاختبار ، لأنني كنت أستوعب تلك الدروس من تدريسه ، وقد كنت كثيرًا ما ينبهني لأنني كنت من النوع الذي إذا سمع مسألة مهمة فإنه يظل يناقشها بفكره ويتذكر أطراف العلاقات لتلك القضية وينشغل عن المسائل التي تأتي بعدها، ولكن ذلك شديد الندرة في دروس الشيخ لدقة ملاحظته وشدة انتباهه .

وكانت له – رحمه الله – لفتات تربوية جيدة ، فمن ذلك أنني كنت أسير معه بعد أحد الدروس وهو ذاهب إلى بيته في مدينة «عنيزة» وأنا كنت طالبا في المعهد العلمي، فقلت له : إنني مصاب بصداع مزمن، فقال لي : يقول أحد السلف : حلاوة أَجرِها – يعني المصيبة – أنستني مرارة صبرها، فكان كلامه موعظة بليغة .

ولقد كان الشيخ – رحمه الله – مهيبا جدا أثناء وجوده في الدرس ،

وقد كانت هذه الهيبة تبعث على الإصغاء لتدريسه وعدم انشغال الفكر بغير سماع كلامه، وكذلك كانت له هيبة شديدة في المراقبة على الاختبارات، وقد كانت إدارة المعهد تجمع الفصول في قاعة المحاضرات، ويكفي وجوده وحده لضمان عدم وجود الغش ، ولكنه خارج الفصول وخارج قاعة الاختبارات في منتهى اللطف والسماحة والتواضع .

ولقد سار– رحمه الله – على منهج شيخه الشيخ عبد الرحمن السعدي– رحمه الله – في إلقاء الدروس المنتظمة في مكتبة المسجد الجامع، وفي إلقاء الدروس العامة بعد صلاة العصر وقبل صلاة العشاء .

وتدور الأيام دورتها، فيوفقني الله تعالى إلى سكنى«مكة المكرمة» فأتشرف بنزول سماحة الشيخ محمد بن صالح العثيمين –رحمه الله– عندي في البيت إذا قدم إلى مكة في غير شهر رمضان والحج على مدى عدة سنوات .. وكان يحضر إلى منزلي بعض العلماء وطلاب العلم للسلام على الشيخ والتباحث معه وسؤاله عن بعض المسائل العلمية، فكانت إقاماته عندي مجالس علمية .

ولا أنسى يوم أن كان يأتي بسيارة شحن صغيرة[ونيت] يقودها أحد أولاده،ولم يكن يرى غضاضة في أن يركب هذا النوع من السيارات وهو صاحب المقام الرفيع، وهذا مثل من أمثلة تواضعه رحمه الله تعالى .

الأخلاء الثلاثة :

كان خليلاي من تلاميذ سماحة الشيخ محمد بن صالح العثيمين هما عبد الرحمن بن صالح العثيمين أخو الشيخ محمد وأحمد الغنام، وقد بقينا زملاء في تلك السنوات التي درست فيها على الشيخ محمد ، والخُلَّة هي درجة عليا في المحبة في الله تعالى، وقد قال عبد الله بن مسعود: أخلاي من أصحاب رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر وأبو عبيدة رضي الله عنهم أجمعين .

وقد كنا نجلس بعد دروس العصر جلسات ممتعة إلى أذان المغرب، وأحيانا كنا نخرج نتمشى خارج المسجد ، وقد كان في تلك الجلسات نوع من الترويح عن النفس وسط حياة التعلم الجدية .

من ذكرياتي في المعهد العلمي :

كان ترتيبي هو الأول في السنة الرابعة والخامسة من المعهد ، وفي السنة الرابعة كانت درجاتي قريبة من المجموع العام، وكان بيني وبين الثاني أربعون درجة، وأذكر أن الذي هنأني هو الدكتور عبد الله بن صالح العثيمين ، حيث قال لي : لو كنت كِسْرة علم ما أتيت بأكثر من ذلك، وكان لهذه التهنئة أثر في نفسي آنذاك .

وكان ترتيبي في سنة التخرج من المعهد الثالث على معاهد المملكة، ومما يفيد ذكره – وكان من أسباب تفوقي في الدراسة – أمران: الأول

أنني لم أكن أكتفي بالملخصات التي يكتبها لنا الأساتذة ، بل كنت أقرأ الكتب المقررة ، وهذا مما أفادني في السنة النهائية ، لأن التصحيح لم يكن في المعهد وإنما كان في إدارة الكليات والمعاهد في الرياض .

والأمر الثاني : أنني كنت أضع أسئلةً في كل مسألة في المقررات وإن كانت صغيرة، فإذا جاءت إجازة الاختبار أقرأ هذه الأسئلة وأضع علامة على الأسئلة التي لم أجب عليها ، وفي المرة الثانية أقرأ هذه الأسئلة التي عليها علامة فإذا بقي أسئلة لم أجب عليها أضع عليها علامة مغايرة، ثم أنظر في جوابها ، وفي ليلة الاختبار أقتصر على مذاكرة هذه الأسئلة التي لم أحفظ جوابها،وقد استمر نظامي الدراسي على هذا الوضع حتى تخرجت من كلية الشريعة وكان من فوائد هذا المنهج الدراسي التي وجدتها أنني في ليالي الاختبار أنام في وقت مبكر، لأنه ليس أمامي ما احتاج إلى مذاكرته إلا مسائل قليلة ، كذلك فإنني وجدت من فوائد ذلك أنني أكون مطمئن البال في أيام الاختبارات لأنني أذهب إلى الاختبار وأنا واثق من أنني قد استوعبت المقرر كله .

ولم أشعر في سنة من سنوات الدراسة في المعهد بأن أحدًا من زملائي كان يحسدني حيث كنت الأول في بعض السنوات مع أن حصولي على هذا الترتيب كان يأتي مفاجأة لهم لكونهم يرون أنني لا أذاكر كثيرا،

بل كنا نعيش جميعا كإخوة ولم أشعر بأن من حصل على الثاني أو الثالث ينظر إلى نظرة حسد أو حقد، مع أن البارزين منهم كانوا يرتبوننا قبل الاختبار فيكون ترتيبي في نظرهم هو الثالث مثلا ، وهذا دليل على فضلهم وسمو تربيتهم ، ولا أزال أُكِنُّ لهم كل تقدير واحترام .

ولم يكن لي في المرحلتين المتوسطة والثانوية في ا لمعهد نشاط في القراءة الأدبية لأنني كنت في الصباح مشغولاً بالدراسة في المعهد، وفي المساء كنت أدرس على الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، أما في الإجازات الصيفية فقد كنت أدرس عليه في الصباح والمساء .

ولكن وقع في يدي في هذه المرحلة كُتيِّب عن المعلقات الشعرية المعروفة ، فقرأته وأنا أمشي فوق الرمال التي تقع في غرب مدينة«عنيزة» وقد أعجبت بمعلقة طرفة بن العبد ، وكررت قراءتها فحفظت منها ما يقارب ثلاثين بيتًا ، ومطلعها :

لِخولـــــة أطـــلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ومن أروع ماجاء في هذه المعلقة قول طرفة :

فما لي أراني وابـــــن عمي مالكا

مــتى أَدْنُ مـــــنه يَنْأَ عني ويُبعد

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

عــلى المرء من وقع الحسام المهند

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد

ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فـــأصبحت ذا مال كثير وزارني

بنون كـــــــــــرام سادة لمسوَّد

ويُروى أن عمرو بن مرثد أرسل إليه بنيه العشرة ومع كل واحد منهم عشرًا من الإبل من أجل قوله هذا وقال : هذا المال وأما الأولاد فيأتي بهم الله ، وهذا من أمثلة كرم العرب المشهورة .

ومن ذلك قوله في هذه المعلقة :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لــكـا لطِّوَلِ المُرخَى وثِنْياه بالـيد

والطِّوَلُ هو الحبل .

وكذلك قوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا

ويـــــأتيك بالأخبار من لم تزود

ومن الأساتذة الذين كان لهم أثر علي في المرحلة الإعدادية الشيخ علي الزامل رحمه الله،وكان كفيف البصر ومع ذلك فإنه كان يسير في

أسواق مدينة عنيزة بدون قائد وكان لا يستعين بالعصا،وقد قيل له: كيف تعرف إذا وصلت إلى تقاطع الطرق؟فقال:أعرف ذلك بهبوب نسمة الريح،وكانت الأسواق في ذلك الزمن ضيقة ما بين مترين وثلاثة أمتار .

ومن ذكرياتي مع ذلك الشيخ أنه في درس التفسير سأل الطلاب مرة عن قول الله تعالى ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم : ٥] فقال: لماذا ذكر الله سبحانه هذه الصفات كلها بدون العطف بالواو إلا قوله ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ ؟ فقمت وقلت : لأنه لايمكن أن تكون المرأة بكرًا ثيبا في وقت واحد، فقال : أحسنت .

ومن الطُّرَف التي جرت في درسه أنه سأل أحد الطلاب يوما عن آية في سورة القلم فقال : في أي سورة هذه الآية ؟ ولم يكن الطالب يعرف فحاول أحد الطلاب أي يسعفه فرفع له القلم، ليقول له إنها في سورة القلم ، وكنا –آنذاك–نسمي القلم «سَقَّاية» فقال الطالب المسؤول: في سورة السقاية فضحك الطلاب وغضب الشيخ وقال : أنا أعرف أن أحد الطلاب رفع لك القلم، ولم تنجح خطة ذلك الطالب الذي استغل فرصة كون الشيخ كفيفا ليسعف زميله.

ومن أساتذة المعهد الذين لي معهم ذكريات الأستاذ عبد الله بن حسن البريكان،ومن ذلك أنه كان يختبرني في مادة المطالعة في المرحلة الإعدادية،ففتح الكتاب وقال : اقرأ ، فقرأت ثلاث جُمَل من قول أحد الذين جاؤوا إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يوم أن تولى الخلافة وذلك في قوله:آجرك الله في الرَّزية،وبارك لك في العطية،وأعانك على الرعية،فقال : قف ، ثم قال:ماالمقصود بالرزية ؟ فقلت له : وفاة أبيه عبدالملك بن مروان ، فقال:وما المقصود بالعطية ؟ فقلت له الخلافة، فقال : قم خير الكلام ما قلَّ ودلَّ .

في عام ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م هطلت على مدينة «عنيزة» أمطار استمرت لمدة شهر ولم نر الشمس في ذلك الشهر، وكانت البيوت مبنية من الطين، وكنا إذا صعدنا إلى السطح تغوص أقدامنا في الطين، ومع ذلك لم نسمع بأن بيتا سقط على أهله، وذلك من لطف الله تعالى، وكان المطر ينزل من السقوف ، ولكن مما نفع الناس أن البيوت كانت من دورين ، وكان ذلك ضروريا لأن الناس يكونون في الشتاء في الدور الأرضي لأنه أكثر دفئا، والأمطار كانت في الشتاء فإذا نزل مطر من السقف يكون في سقف الدور الأرضي ولايصل إلى الأرض .

وفي ذلك الشهر ذهبت أنا وأخي محمد لزيارة خالة لنا والأمطار

تنزل لأننا قد تعودنا عليها، ولما دخلنا من باب البيت سقط جدار السطح على عتبة الباب الخارجية وارتفع الطين قدر متر، وكانت نجاتنا من رحمة الله – عز وجل – ولطفه ، فلم يكن بيننا وبين الموت تحت الطين إلا ثوانٍ معدودات ، لقد ولدت أنا وأخي من جديد ذلك اليوم .

وفي تلك السنة جرى وادي الرمة ما يقارب شهرًا، وقد خرج بنا أنا وأخي محمد خالي محمد الجهني شفاه الله لرؤية ذلك الوادي الذي رأيناه لأول مرة في حياتنا ، وهو يصب في مكان يُسمَّى «الزغيبيَّة» وتتكون منه بحيرة كبيرة .

ذكرياتي في المرحلة الجامعية

في عام ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م التحقت بكلية الشريعة في الرياض، وحينما جلست إلى الأساتذة أُصبت بنوع من الإحباط، خاصة في مادة «الفقة» التي هي أهم المواد في الكلية، وذلك لأن مستوى أستاذ تلك المادة أقل بكثير من مستوى شيخي محمد بن صالح العثيمين رحمه الله ، وقد تعجَّبَ بعض الطلاب الذين كانوا يجلسون معي حينما كنت أذكر لهم القول الراجح في بعض المسائل الفقهية ، وكذلك لما كنت أذكر بعض القواعد الفقهية التي أحفظها ، وحينما بدأنا ندرس النحو وجدت أن المقرر هو شرح ابن هشام على الألفية ، وقد كنا درسنا في المعهد شرح ابن

عقيل على الألفية ، وهما متقاربان ، وكنت قد تعمقت بدراسة النحو في المعهد ، حتى أنني كنت أُدرِّس وأنا في السنة الخامسة بعض طلاب السنة الثالثة الذين يُكملون في النحو وذلك في الجزء الأول من شرح ابن عقيل على الألفية ، وهذا التشابه في المقررات بين المعهد والكلية أوجد عندي نوعا من الفراغ .

وكان من نتائج هذا الفراغ أنني تحوَّلت لقراءة الكتب الثقافية والأدبية ، وكان أول كتاب قرأته كتاب «دع القلق وابدأ الحياة» لدِيل كارنيجي ، وقد رأيته بيد زميل لي من أفريقيا، ثم بدأت بقراءة كتب المعاصرين الأدبية ، وكان أول ما وقع في يدي بعض كتب طه حسين فقرأت له « مع المتنبي» و«مع أبي العلاء في سجنه» و«على هامش السيرة» وحصلت على ثلاثة كتب له وهي «الأيام» و« نقد وإصلاح» و«خصام ونقد» فبدأت بقراءة كتاب «الأيام» حتى وصلت إلى كلام يتنافى مع الإسلام.وقد نفرت من كتبه نفورًا شديدا ولم أكمل قراءة ذلك الكتاب ولم أقرأ له شيئا بعد ذلك ، ومن الموافقات الجيدة أنني حصلت بعد ذلك على كتاب « المعركة تحت راية القرآن» للأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي ، فقرأته بشغف، وشفى نفسي من طه حسين حينما رد عليه بقوة في هذا الكتاب ، ومما حفظت من رد الرافعي اللاذع عليه قوله :

إسفنجة جاءت لشرب البحر وشمعة ضاءت لشمس الظهر

والشيخ طه في انتقاد الـــشعر ثـــلاثة مـضـــحكة لعمـــري

ومن أبدع ما قرأت في هذا الكتاب مقارنته الرائعة بين بلاغة القرآن في قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾وبين قول العرب: القتل أنفى للقتل .

وقد قرأت كتاب الرافعي البديع « وحي القلم » مرتين .

ولما انتهتْ السنة الأولى لكلية الشريعة اتجهت في الإجازة الصيفية لقراءة كتب الأدب القديمة فقرأت ديوان المتنبي بشرح العكبري مرتين، وقد أُعجبت كثيرا بشعر المتنبي وحفظت منه عددا من الأبيات، كما قرأت كتاب « العقد الفريد» وصفحات من كتب أخرى .

وفي السنة الثانية من الكلية رجعت لكتب بعض المعاصرين فقرأت بعض كتب المنفلوطي وقرأت «ثلاثيات نجيب محفوظ» وأعجبني عرضه وأسلوبه في تلك القصص الثلاث .

وفي السنة الثالثة من الكلية توجهت لقراءة كتب الدعوة والثقافة الإسلامية ، وكان أول كتاب قرأته «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للعالم الداعية أبي الحسن الندوي رحمه الله ، وكان له أثر علي ، كما قرأت للشهيد سيد قطب – رحمه الله – كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام»

و« دراسات إسلامية » و «معركة الإسلام والرأسمالية» و «هذا الدين» و« المستقبل لهذا الدين » وأخيرًا قرأت له كتابه الشهير « معالم في الطريق» كما قرأت بعض كتب الداعية الكبير أبي الأعلى المودودي رحمه الله ومنها « مبادئ الإسلام » و« نحن والحضارة الغربية» وقرأت للشيخ الداعية محمد قطب – حفظه الله – كتاب « شبهات حول الإسلام» وقرأت بعض منشورات المكتب الإسلامي في «جنيف» التي يحررها الداعية سعيد رمضان رحمه الله ، وحافظت على قراءة مجلته الشهرية « المسلمون» .

كما قرأت للشيخ الداعية مصطفى السباعي رحمه الله، وتابعت مجلته الشهرية«حضارة الإسلام»وذلك في السنتين الثالثة والرابعة من كلية الشريعة .

وقرأت فيما بعد للمفكر الإسلامي محمد أسد كتابين «الإسلام على مفترق الطرق» و « الطريق إلى مكة» وهو نمساوي على ما أذكر واسمه القديم «ليوبولدفايس» وكان يهوديًا فلما أسلم اختار هذا الاسم « محمد أسد» ، وقد نشر الكتاب في طبعة أخرى باسم « الطريق إلى الإسلام » وهذان الكتابان لهما أثر جيد على القارئ ، خاصة لكون مؤلفهما كان كافرًا فأسلم .

ومن الأفكار الغريبة التي قرأتها في كتابه « الطريق إلى مكة» أن

المؤلف فسر المسيح الدجال بأنه الحضارة الغربية ، وفسر كون المسيح أعور العين بأن الحضارة المثالية الكاملة تقوم على توافر أمرين: المادة والروح ، وأن الحضارة الغربية فيها المادة وتفقد الروح ، وهذا التفسير يمكن أن يُنظر فيه لولا أن النصوص الصحيحة من السنة النبوية وصفت المسيح الدجال على أنه رجل وأن عيسى عليه السلام سيقتله .

وكان من أبرز الأساتذة الذين درَّسوني في كلية الشريعة الشيخ مناع خليل القطان رحمه الله ، ومن أبرز مزاياه أنه كان يحمل همَّ الدعوة الإسلامية ، وكان يدرسنا مادة التفسير، ويتخلل دروسه لفتات دعوية جيدة .

وكانت له مشاركات في التوجيه العام، ومن ذلك أنه ألقى محاضرة عامة بعنوان « الدعوة إلى الإسلام» وقد ابتهج بها أصحاب الاتجاه الإسلامي واستاء منها أصحاب الاتجاه القومي .

وقد كانت له إجابات سديدة على الأسئلة ، فمن ذلك أن أحد الطلاب سأله عن قول الله تعالى﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور : ٤٥] ، فقال الطالب : لماذا

بدأ سبحانه بذكر الدواب التي تمشي على بطنها ؟ فقال الشيخ مناع : إن الدواب التي تزحف على بطونها أدَلُّ على قدرة الله تعالى في خلقه، حيث تمشي وليس لها أيد ولا أرجل، فبدأ الله بها ثم ذكر الذين يمشون على رجلين، وهذا يأتي بعد ذلك في الدلالة على قدرة الله تعالى ؛ حيث يمشون على رجلين ولا يسقطون، ثم ذكر بعد ذلك الدواب التي تمشي على أربع لأن لها من وسائل الثبات على الأرض ما ليس للتي قبلها .

ومن أساتذتي البارزين في الكلية الشيخ عبد الله بن غديان رحمه الله وقد كان يدرسنا الفقه وأصول الفقه، وكان عميقا في علمه وشديدًا في رقابته على الطلاب ، فلم يكن أحد منهم يشتغل في دروسه بغير السماع منه، وكان شديد التأثر حينما ينشغل بعض الطلاب عن سماع درسه، وأذكر أنه دخل علينا في يوم من الأيام رجل معتوه متوسط السن ويلبس لباسًا يلفت النظر ، فتكلم بكلام يدل على أنه ليس بكمال عقله، فالتفت إليه الطلاب وشغلهم عن سماع الدرس ، ثم ذهب ذلك الرجل فقال الشيخ : لما دخل هذا الرجل عليكم شغلتم بالنظر إليه وتركتم سماع الدرس ، ثم جلس ولم يتكلم ، وبقينا وإياه على هذه الحال حتى انتهى وقت الدرس .

هذا وقد تعرفت في كلية الشريعة على زملاء أصبحوا أصدقاء أعزة،

وسأكتفي بذكر أولهم صحبة لي وأبرزهم في العلاقة بي وهو الشيخ إسماعيل بن سعد بن عتيق ، وقد تعرف عليَّ في أول شهر من الدراسة ودعاني إلى بيته وعرَّفني على إخوة آخرين من الزملاء وممن سبقوني في الدراسة ، وقد كان صاحب رحلات داخل المملكة يزور فيها العلماء ، وقد ذكر لي أنه قدم إلى « عنيزة» والتقى بعالمها الكبير الشيخ عبد الرحمن ابن ناصر السعدي رحمه الله ، وقد ذكر لي بيتين من الشعر في أثناء حديثه عن رحلاته ، ولا أدري هل هما من شعره أم أنه قد استشهد بهما فقال:

أَهيم وإنــي بــالسياحة هــــــــائم

وأهوى الذي تهوى الرجال الأعاظم

وما عـــاق سيري في البحار هياجها

ولاعاق سيري في البراري الضراغم

وهذان البيتان يشبهان شعر المتنبي في جزالة الألفاظ وضرب الأمثال.

وقد كان لانشغالي بقراءة الكتب الأدبية والإسلامية أثر على دراستي في الكلية ، حيث كنت من العشرة الأوائل فقط ولم أكن من الثلاثة الأوائل ، وحصلت في شهادة الكلية على تقدير « جيد جدا» ولم أحصل على الامتياز .

سفري للعلاج :

لما سافرت إلى الرياض للدراسة في كلية الشريعة ذهبت إلى عدد من المستشفيات لعلاج الصداع الذي كنت أشعر به من الصغر،وفي مستشفى الشميسي قرر مدير المستشفى سعيد رباح السوري ترحيلي إلى سوريا لإجراء تخطيط للرأس عند الدكتور الصباغ وذلك في عام ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م ، وأعطوني مبلغا من المال، وحجزت بالطائرة إلى دمشق، ولما ذهبت إلى مطار الرياض وجهوني بالخطأ إلى بيروت، وصعدت إلى الطائرة وأنا أظن أنها تطير إلى دمشق ، وفي الطائرة اكتشفت أنها متوجهة إلى بيروت ، فأبلغت المسؤولين في الطائرة وأطلعتهم على تذكرة العودة، فقالوا : إن تذكرة بيروت أغلى لأن الطائرة نفاثة وطائرة دمشق «كونفير» وإذا وصلت بإمكانك أن تركب بسيارة الأجرة إلى دمشق ، وكان في بيروت ابن عمي صالح وهو يعمل في الملحقية الثقافية السعودية، فنزلت تلك الليلة في فندق ومن صباح الغدِ ركبت سيارة أُجرة إلى الملحقية الثقافية والتقيت بابن عمي صالح، وقد بقيت عنده في بيته ثلاثة أيام.

وقد أشار عليَّ ابن عمي صالح بدخول مستشفى الجامعة الأمريكية لإجراء فحوصات شاملة ، وقد بقيت في المستشفى ثلاثة أيام لإجراء الفحوصات ، وفي أثناء ذلك قرأت كتاب « صندوق الدنيا» للمازني،

وكنت قد وجدته عند ابن عمي صالح ،وقد كانت نتيجة هذه الفحوصات التي أجروها أن عندي ما يسمَّى باستدامة التفكير، وقد وصفوا لي مستحضرا من مستحضرات فيتامين ب المركب واسمه «بيكوزيم» ، وقد كنت في الرياض استعملت عددا من الأدوية التي ترفع نسبة الهيموجلوبين في الدم .

وقد كشفت بعد ذلك بسنوات عند الدكتور عبد القيوم في الطائف، وهو طبيب باكستاني ممتاز ، ولما عرف نوع الأعراض التي عندي قال لي: أنت شاعر ؟ فعرفت قصده وقلت له : تريد أن تقول : هل أنت تفكر كثيرًا ؟ قال : نعم ، وإنما سأل هذا السؤال لأن الشاعر من حين أن يفكر في إنشاء قصيدة يكون تفكيره مشغولا ، فعبَّر عن أغلبية من يصابون بهذه الأعراض وهم الشعراء ، وهذا ليس خاصا بالشعراء بل هو متعلق باستدامة التفكير .

وقد توجهت بعد ذلك إلى دمشق بعد أن أزاحوا الثلوج عن الطريق، ونزلنا من السيارة في نقطة الحدود ورأيت الثلج لأول مرة في حياتي وكان يملأ الأرض على جانبي الطريق، ووصلت إلى دمشق، وكنا في شهر رمضان المبارك من عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م ، وقد سعدت بصلاة التراويح في مساجد دمشق وخاصة الجامع الأموي ، وزرت عددا من

المكتبات الإسلامية التجارية ، وقد بقيت في دمشق إلى الأيام الأولى من شهر شوال، وذهبت إلى الدكتور الصباغ الذي حُوِّلت إليه وعمل تخطيطا للرأس وأفاد بأنني سليم، وقد عدت إلى الرياض وأنا مقتنع بأنه ليس عندي مرض ظاهر محدد .

وما زال الصداع يعاودني حتى الآن ، ومن أجل إفادة من يعتريهم الصداع فإنني لكثرة ما أسمع من الدكتور «جميل القدسي دويك» في كلامه على فوائد الزنجبيل والتي منها أنه يؤدي مفعول اثني عشر من مضادات الحيوية فإنني عزمت – هذا العام ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م : على تجربته في علاج الصداع ، وقد تبين لي أنه يعطي النتائج التي يعطيها «بنادول» نفسها ، وهي إزالة الصداع الخفيف وإعطاء الجسم حيوية وإزالة الوهن، وذلك بأخذ كمية كافية مع الشاي، بحيث يحسُّ شارب الشاي بحرارة الزنجبيل .

هذا وقد سعدت بمشاركة الدكتور « جميل القدسي» مع رابطة العالم الإسلامي في موسم الحج في إحدى السنوات الماضية ، وكان يأتي إلي في مكتب التوعية ، وقضيت معه ساعات أنا والزملاء في شرحه بعض أمور الطب من وجهة نظر الإسلام ، وقد طلب مني إتاحة الفرصة له لإلقاء

كلمة عن الطب على ضوء القرآن الكريم فرتبت له كلمة بعد إحدى الصلوات .

ومما ينفع ذكره في هذا المجال أن أحد الأطباء الماهرين وصف لي قبل خمس وثلاثين سنة الشاي الثقيل لعلاج الصداع ، وقد جربته فنفع بإذن الله تعالى في علاج الصداع الخفيف .

في سنوات العمل في بلجرشي وأبها

بعد أن تخرجت من كلية الشريعة بالرياض عام ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م،كان العمل الذي أمامي هو التدريس بعد أن سلِمت من القضاء،وقد كان تعييني في معهد مكة المكرمة،بناء على طلب مدير المعهد الأستاذ عبد الله العبيكي الذي كان من أهل بلدي وبيني وبينه علاقة قوية،ولكن نظرًا لكوني أعشق الجبال والغيوم والأمطار فإنني قد اخترت معهد بلجرشي.

لقد كان بيني وبين الغيوم أُلفةٌ قديمة ، وبيني وبين الشمس توتُّر قديم، فحينما كنت في المرحلة الابتدائية كان الأساتذة يخرجوننا في الشتاء للدراسة في الشمس فكنت أتأفف من ذلك لأن الشمس من أسباب إصابتي بالصداع .

وكان المشجع الأول على اختيار معهد بلجرشي وجود الأستاذ سليم الرشيد في إدارة ذلك المعهد وبيني وبينه رابطة قوية، فسافرت إلى بلجرشي من جدة وكان الطريق وعرًا وليس هناك مواصلات إلا الشاحنات،وبعد يوم ونصف وصلنا إلى بلجرشي،ولما وصلنا إلى وادي «فِيقْ»طلب منا سائق السيارة أن ننزل ونمشي على أقدامنا إلى أعلى الجبل، لأن السيارة لايمكن أن تصعد وهي محملة ، وهذا بناء على الخط الترابي القديم .

ووصلت إلى بلجرشي في شهر جمادى الأولى عام١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م وبعد وصولي تمتعت بمنظر الجبال والغيوم والأمطار ، وقد سعدت بصحبة مدير المعهد الأستاذ سُلَيم الرشيد الذي لم يبق معنا إلا شهرين حيث نُقل إلى مكان آخر ، كما تمتعت بصحبة زميلي في الدراسة في الكلية الأستاذ محمد بن ناصر الجعوان رحمه الله وزميلي في العمل في المعهد الأستاذ عبد العزيز الواصل، وكنا نحن الثلاثة نخرج مساء أكثر الأيام إلى البر القريب وخاصة الشَّفا المطل على تهامة .

وقد سعدت بصحبة طلاب أذكياء مهذبين أذكر منهم على سبيل المثال الدكتور عبد العزيز عزيز الذي أصبح مسؤولا وأستاذًا في الجامعة في أبها ، والدكتور علي الحذيفي إمام الحرم المدني ، والدكتور محمد زربان المسؤول والأستاذ في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة والأستاذ سراج الزهراني الذي أصبح مسؤولا في قريته «النصباء» في بلاد زهران ، ولم يكن هؤلاء وعدد آخرون مجرد طلاب وإنما كانوا أصحابًا لي وأصدقاء .

وفي بلجرشي تعرفت على القائمين على المدرسة السلفية في قرية «الشعبة» وأبرزهم محمد بن جماح مدير المدرسة وعبد العزيز بن سعيد أحد المؤسسين ، وهذه المدرسة لها أثر كبير في تعليم وتربية عدد كبير من أبناء تلك المنطقة وماحولها ، وخِرِّيجوها يلتحقون بالمعهد العلمي

ببلجرشي ، وبسبب خريجي هذه المدرسة كان طلاب معهد بلجرشي فيهم أدب وهدوء وتحصيل علمي جيد .

وقد نظَّمتُ في المدرسة السلفية درسًا أسبوعيًّا في الدراسات الإسلامية ، وكنت أذهب إليهم بصحبة طلابي الذين يسكنون في بلجرشي وفي مقدمتهم الشيخ علي بن عبد الرحمن الحذيفي ، وكنا نمشي على أقدامنا لعدم توافر المواصلات آنذاك .

وفي بلجرشي تعرفت على رجل تاجر من الأتقياء الحريصين على إصلاح المجتمع ، وهو الأخ عبد الله بن عقالا ، وكانت صلته بأساتذة المعهد قوية ، وزرناه في بيته مرارًا ، وكان حريصا على إسعادنا وراحتنا .

كما تعرفت على الأستاذ عبد العزيز بن سليمان السحيمي الذي كان مسؤولا عن فرع إدارة التعليم في بلجرشي وكانت لي معه جلسات علمية وثقافية .

وفي يوم من الأيام دعانا الأخ سراج بن يحيى الزهراني إلى صعود جبل «حِزْنة» وهو جبل شاهق وشديد الوعورة ، والأخ سراج من طلاب المعهد وهو كبير السن – نسبيا – وعاقل وذو أخلاق ، ولذلك فإنه كان معدودًا من أسرة المعهد ، وقد صعدت أنا وبعض الأساتذة ومعنا الأخ سراج إلى قمة الجبل المطلة على تهامة ، وكان صعود الجبل

يسيرًا علينا لأننا كنا نمشي يوميا عددا من الأميال ، وقد يكون خبر صعود هذا الجبل ليس ذا أهمية عند غير أهل المنطقة ، أما أهل بلجرشي فإنهم يعرفون صعوبة صعود ذلك الجبل ، وقد كان الرياضيون الذين يأتون إلى بلجرشي يحرصون على صعوده .

هذا وقد بقيت في بلجرشي سنة دراسية ، وكان من المفترض أن أستمر ، ولكني كنت مصابا بمرض يحتاج إلى مستشفى، وليس في بلجرشي مستشفى ، فطلبت النقل إلى معهد « أبها» ، وكان تحديد «أبها» بالذات لأنني مازلت مغرما بالجبال والغيوم والأمطار .

وقبل طلب النقل سافرت في أواخر عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م إلى «أبها»وقد صحبني الأخ سعيد الشهراني ، وهو موظف في معهد «بلجرشي» وكان يسكن معي ، ولما وصلنا إلى «خميس مشيط» طلب مني أن أصحبه إلى قريته في وادي «عِتْوِد»قرب خميس مشيط،وقد ذهبت معه، وبقينا يومين في ذلك الوادي الذي كان يتميز أهله بالبساطة ويعيشون على الزراعة وتربية المواشي ، ثم انتقلت إلى«أبها »وسكنت عند زميلي الأستاذ صالح بن إبراهيم العليان المدرس في معهد أبها ، وكان زميلي في معهد «عنيزة» وزرت معهد أبها ، وعزمت على طلب النقل إلى أبها .

وقد كان لابد من فراق الأصحاب والأحباب الذين تعرفت عليهم

في بلجرشي والذين صاحبتهم قبل ذلك في الرياض، فكان أن جاشت المشاعر بقصيدة لم تصدر من شاعر ، وكانت هي القصيدة الوحيدة التي نظمتها في حياتي ، وقد كتبتها في أوائل عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م في الإجازة الصيفية في حديقة البلدية في الرياض التي تقع بين شارع الوزير وشارع البطحاء، وهذه أبيات منها :

ذكريات وحنين

سـألت البدر بعدكمُ طلابا فقلت له هلَ ابصرت الصحابا
وهل أمسى جوارك أهل فضل رأيت الصدق فيهم لا الكذابا
وهل سامرتَهم تلك الليالي وأشغلتَ المجالس والرحابا
فرد البدر بالإنصات دومًا وبالصمت الطويل ولاخطابا
وسار ميمِّمًا نحو الغروب وأقفل دون ذا التكليم بابا
ألا يابدر هل أضناك بُعدٌ عن الإخوان أرجوك الجوابا
وهل فارقت أحبابًا تساموا إلى الأمجاد عمقًا لا انتسابا
أراك مشعشع الجنبات طلقًا وتكشف عن مُريديك النقابا
وترسل نحوهم نورًا وضيئًا كأنك لم تذق يومًا عذابا

* * *

فـــــهذا القلب مكلوم بِبُعدٍ عن الإخوان يضطرب اضطرابا

بلغنا الأفـــق في حب عميق وجـــــاوز نابه حتى السحابا

فحب الناس عندي في قياس ولكـــــن حبكم بـــلغ النصابا

وحبًّا لـــــــيس للدنيا حبكنا ســـبائكه الشديدات الصـلابا

ولـــــــكنْ حبنا في الله صَفْوٌ نَـزِيهٌ لـيس مشتبهًا ســـرابـا

فحـبٌّ مثل هــذا الحب يبقى طـــويلا في القلوب ويستطابا

لــقد كنا جميعا في حـــــديث شــهيٍّ لانقيس بـــه خطــابا

ونجــلس دائمًا في خير بحث نُـرجِّع صـفو حــبٍّ لايُشابـا

ونــخشى فـــرقة تجني علينا حــياة عــذبهــا لايـستطابــا

سيبقى حبكم في القلب نـورا ليكشف عــن مناهله الحجابا

ويُظفى في جـوانحـــــه حياة ويجعـــــل مــن نسائمه إهابا[1]

فإن تسأل عـن السبب الحقيقي لهــذا الحـــب أعطيك الجوابا

هــي الأخلاق تُكسب ممسكيها صـــــداقات وجلسات عِذابا

وتجــعـــــل بينهم حبا عميقا يُكوِّن في دمــائــهم الخضابــا

وتـــــــربط بينهم حبلا وثيقا شديد الأسر ينجذب انجذابا[2]

---

(١) أي يجعل هذا الحب من نسائمه غلافًا للقلب .

(٢) أي أنه مع قوته وإحكامه فهو ينجذب بسهوله في الملمات .

وتجـعـــل بينهم عطفا ولينا وتـــــلبسهم من المجد الثيابا
وتخـــــلق حولهم هالاتِ عزٍّ وتفتح نحـــــوهم للنور بابا

* * *

ألا إني قطـــعت الحبل صرمًا بفقدكمُ فـــأسدلتُ الحجابا
ومـــــــابي رغبة عنكم ولكن قـضاء الله قـــد حط الركابا
ذهبت عن الكثير من الصحاب وأهـل الفضل لكن لا أصابا
فمالي الـــيوم أشكو الهمَّ وجدًا وأذهب في الهموم لكم ذهابا

* * *

ولما أن بعـدت عن الصحاب وأهـل النُّبل صادقت الكتابا
وأَجمِلْ بالكـــتاب خليل عـــزٍّ يـــــواسيك العطية والثوابا
خفيف الظـــل يهديك اللآلي بـــأصداف وعقيانًا مذابا [1]
وينـــشر في جوانحك التسلي ويهديـــك الطريق ولاحسابا
وتـــــأخذ مـــن ثناياه كنوزًا وتنهل منه مـا استحلى وطابـــا
عجبت لمـــــن يجافون الكتابا فـــــإن لأمرهم عجبا عجابا

(١) إنما كانت الأصداف باللآلئ لأنها أجمل مما إذا أخرجت كما في قوله تعالى ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ والعقيان الذهب وإنما كان مذابا حتى يتصرف الإنسان به كيف يشاء فكذلك الكتب تعطي قارئها الحرية التامة .

ويـــقـضون الليالي بالتسلي مـــع الأيام قد فقدوا الصوابا
بـــأحـــداث وأخبار هِزالٍ تـــرى محصـــــولها قفرًا يَبابا
كـــــأن الوقت عندهم عدو يحـــــاورهم فيخشون العذابا
ولايـــدرون أن الوقت سارٍ ويـــــذهب من سِنيِّهم ذهابا
شـــباب الجيل مالكمُ ذُهلتم هـــل الأوقات قد صارت ذئابا
فـــيا أصحابي الفضلاء مهلاً قـــد اشتقت الحديث المستطابا
كـــتبت لكم بهذا القول لكنْ حديث القلب قد غلب الخطابا
نطـــقت بهذه الكلمات شعرا وفـــــــاء للأخوة واحتسابا
وإلا فـــالكـــــلام بـــه غناء لِكشفِ الستر عن حب تَرابَى[1]

وقد سافرت إلى « أبها » في نهاية الإجازة الصيفية ، بعد أن سافرت إلى بلدي « عنيزة» وزرت الأهل ، وخصوصا الوالد – رحمه الله – والأخ الأستاذ محمد .

وكان في معهد « أبها» زميلي في الدراسة في المعهد في «عنيزة» الأستاذ صالح العليان، رحمه الله وهو زميل وصديق .

وقد بقيت في «أبها» سنة دراسية، وسافرت فيها مرتين، الأولى في إجازة عيد رمضان وقد تأخرت بعد ابتداء الدراسة أياما في مكة المكرمة

(١) أي تزايد على مر الأيام .

وجدة، وذلك لأني أعالج عند أحد الأطباء .

وكان من آثار بقائي في مكة بعد ابتداء الدراسة أنني رأيت في الحرم المكي حلقات دراسية في الصباح، فسألت أحد الأساتذة فقال: إن هذه الحلقات هي الفصول الدراسية لمعهد الحرم المكي، فأعجبني وجود دراسة نظامية في الحرم، وتذكرت حلقات الدراسة في المساجد على مر العصور الإسلامية ، وانقدح في نفسي التفكير بالانتقال إلى معهد الحرم المكي ، وكان في مكة زميلي في معهد عنيزة وفي كلية الشريعة الأستاذ صالح الخويطر رحمه الله الذي يدرِّس في معهد مكة العلمي، وقد فضلت الانتقال إلى معهد الحرم ولم أفكر في الانتقال إلى معهد مكة العلمي الذي كان تعييني سابقا فيه ، لرغبتي الشديدة في التدريس في أعظم المساجد، فكلمت الأخ الأستاذ صالح في أن يذهب معي إلى سماحة الشيخ عبد الله ابن حميد رحمه الله الذي كان – آنذاك- مسؤولا عن الحرم المكي الذي يتبع إدارته ذلك المعهد ، فذهبت أنا وهو وعرَّف الشيخ ابن حميد بي، وأبديت له رغبتي في الانتقال إلى المعهد، فرحب بذلك .

أما السفرة الثانية فكانت في إجازة عيد الأضحى، وقد سافرت أنا والأستاذ صالح العليان بصحبة زميلنا في المعهد الأستاذ قاسم بن شماخ الذي كان من منطقة «جازان» وقد سافرنا أولاً إلى قريته، قرية «السلامة»

في وادي بيش ، وكان مما لفت نظري أول ماوصلنا أن البيوت عبارة عن خيام، ظاهرها من القصب المربوط بالحبال وباطنها من الطين، ومن الغريب أنها ليس لها أبواب، ومع ذلك يعيشون بأمان .

ثم سافرنا إلى بلدة «صامطة» التي كانت المهد الأول لدعوة الشيخ المربي عبد الله القرعاوي ومدارسه العلمية ، وعرفنا خلال بقائنا هناك الآثار العلمية والدعوية الكبيرة التي خلَّفها ذلكم العالم الداعية رحمه الله، فقد رأينا أن من آثاره إنشاء معهد «صامطة» مع الدفعة الأولى من المعاهد في المملكة ، ورأينا من آثاره أن قضاة المنطقة كانوا من تلاميذه وكذلك عدد من الأساتذة،ولو لم يكن من آثاره إلا تعليم وتربية تلميذه العالم الرباني «حافظ بن أحمد الحكمي» رحمه الله لكفاه عزًّا ورفعة .

وقد تعرَّفتُ في «أبها» على العالم المربي الشيخ عبد الله بن يوسف الوابل رحمه الله ، وكان فيه روحانية قوية تؤثر على مجالسيه ، وقد استأذنته في التدريس في غرفته التي كان يدرس فيها ، فكنت أعطي فيها دروسا ثقافية يوما في الأسبوع ، وكان يحضر طلاب من المعهد العلمي وغيرهم .

كما تعرفت على التاجر الزاهد الورع زامل بن صالح الزامل رحمه الله ،وهو من أسرة الإمارة في بلدي «عنيزة» لكنه زهد في المناصب واشتغل بتجارة بسيطة ، وقد كان في معاملاته التجارية مثالا للورع والتقوى .

الانتقال إلى مكة المكرمة

التدريس في معهد الحرم المكي

في أوائل سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م انتقلت إلى مكة المكرمة بعد أن سافرت إلى عنيزة لزيارة الوالد رحمه الله والأهل .

وقد بدأت العمل في معهد الحرم المكي الذي كان – آنذاك- قد أتم ثلاث سنوات ، ففيه المرحلة الإعدادية فقط، وقد قمت بتدريس مادة التوحيد من ضمن المواد الأخرى ، وإنما ذكرت هذه المادة لأنها هي المادة التي تكون فيها المعارضات من أصحاب الاتجاهات المختلفة، وقد كنت أدرِّس في تلك المرحلة كتاب الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله « كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» ومما يستحق الذكر مما جرى في تدريس هذه المادة أننا لما وصلنا إلى باب موضوع السيادة، وتكلمت على حديث « السيد هو الله تبارك وتعالى » انبرى لي في الكلام الطالب مقبل بن هادي الوادعي ، وصار يدافع عن موضوع إطلاق السيادة على آل البيت، وكان – في ذلك الوقت - على المذهب الزيدي، وقد ألجأني تشدده في النقاش إلى أن أرد على ذلك الموضوع الذي يدافع عنه من تسعة أوجه، وقد أمليتها على الطلاب من ضمن المذكرة التي شرحت بها كتاب التوحيد، وبعد أن تأمل ذلك الرد تراجع عن رأيه

وقال: عندنا في اليمن يقولون للرجل سيد ولو كان تَرَّاك صلاة ، وهذه شذرات من الكلام حول هذا الموضوع :

السيادة في اللغة العربية وفي الإسلام

السيادة في اللغة العربية تعني الزعامة ، وقد كان العَرب ينتمون إلى قبائل عديدة ، وكان لكل قبيلة زعيم تطلق عليه السيادة فيقولون مثلاً سيد بني تميم فلان،وقد كانوا لايعطون السيادة غالبًا إلا لأفضلهم في الأخلاق كالشجاعة والحلم والكرم والوفاء .

ونظرًا لكون هذه الكلمة كانت تطلق على زعماء القبائل الذين هم أفضل قومهم في مكارم الأخلاق فإن المسلمين أصبحوا يطلقونها على البارزين من المسلمين ، كقول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه : هذا سيد المسلمين ، يعني في التقوى والعلم ، وكقوله عن بلال رضي الله عنه : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا، وقد كان أبو بكر رضي الله عنه سيد المسلمين إداريًّا ؛ بكونه أمير المؤمنين ، ومعنويًّا بكونه أفضل المسلمين ، أما بلال فكان سيد المسلمين في التقوى والتقدم في الإسلام .

ومن هذا المنطلق فإن هذه الكلمة لم تكن تطلق إلا على من كان زعيما في قومه وعلى من هو متقدم في التقوى ومكارم الأخلاق ، ومن

هذا المعنى الثاني جاء قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « المتقون سادة والفقهاء قادة » يعني أن المتقين هم أبرز الأمة ومقدموها ، وهذا يتفق مع قول الله تعالى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات : ١٣] .

وقد جاء الإسلام فرفع من فكر العرب وعدَّل مفاهيمهم ، ليصبح هدفهم الأعلى هو رضوان الله تعالى والظفر بالسعادة الأخروية ، بدلاً من إرضاء الهوى والنظر إلى الدنيا ، فأصبح سادة المسلمين هم المتقين ؛ لأنهم سائرون نحو الكمال في خصال الخير التي شرعها الله تعالى ، وكلما كان المسلم أعظم في تمثُّل هذه الخصال كان أبلغ في السيادة.

فالمتقون هم سادة الأمة ، وإذا كانوا من آل البيت النبوي فإن لهم السيادة والمحبة لكونهم من المتقين،ولهم مزيد من المحبة والإكرام لكونهم ينتسبون إلى رسول الله ﷺ.

وبعض العلويين في هذا الزمن وفي عصور مضت يغْلون في شرف النسب ويَعدُّونه هو المؤهل الوحيد للسيادة بغضِّ النظر عن كون العلوي من المتقين أم من الفاسقين، ولا يقيمون وزنا لمقياس الكرامة في الإسلام وهو التقوى، وهذا انحراف فكري خطير ، وأول من يصابون من ويلاته هم العلويون أنفسهم ،لأن اعتقادهم بأنهم سادة على المسلمين

يكبح في نفوسهم الطموح لنيل شرف التقوى، ويصيب أفرادهم بمرض العُجْب الخطير الذي جعله النبي ﷺ من المهلكات بقوله « وإعجاب المرء بنفسه »[1] ولايمكن أن يتطلع إلى الكمال إلا من استشعر النقص في نفسه دائما، فالمسؤولون عن قيادة هؤلاء العلويين وتوجيههم قد ظلموهم ظلما فظيعا حينما حجَّموهم عن التطلع للكمال بإشعارهم بأنهم قد بلغوا الكمال بكونهم سادة المسلمين.

هذا وقد درَّست مادة التوحيد بعد ذلك ثلاث سنوات في المرحلة الثانوية، واستمر الأخ مقبل معنا حتى تخرج من المعهد وكان المقرر في مادة التوحيد كتاب « العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ولما بدأنا بالتدريس صار الأخ مقبل يناقش بشدة وغضب في موضوع إثبات الصفات كاملة لله عز وجل على ماجاء في الكتاب والسنة لأن ذلك يخالف مذهبه الزيدي، وكنت أستغرب أنه يأتي ببعض قواعد المعتزلة في الاستدلال، ولكن فيما بعد تبين لي أن في مذهب الزيدية شيئًا من الاتفاق مع مذهب المعتزلة، وقد كنت أتلقَّى شدته وغضبه بالابتسامة والتسامح ، وأعطيه الفرصة كاملة ليعبِّر عن رأيه، وذلك من

(١) أخرجه الحافظ الطبراني- المعجم الأوسط (٤/ ١٢٩ رقم ٥٤٥٢) وحسنه الشيخ الألباني- صحيح الجامع الصغير رقم (٣٠٤١) .

منطلق أنه نشأ على ذلك المعتقد، وليس من السهل أن يتخلَّى عنه بسهولة، ولما جاء الاختبار النهائي كتب ماكنت قررته أثناء الدراسة ثم كتب: هذا ما قرره الشيخ والذي أراه هو كذا وكذا ، وقد أعطيته العلامة الكبرى وشكرته على التعبير عن رأيه ، ولما انتقلنا إلى السنة الثانية الثانوية كان المقرر في مادة التوحيد هو كتاب « العقيدة الحموية » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد جرى من الأخ مقبل مثل ما جرى منه في العام الماضي من المناقشات الحادة ، وعملت معه في الاختبار مثل ما عملت في العام الماضي فأعطيته الدرجة الكاملة، ولما انتقلنا إلى السنة الثالثة الثانوية كان المقرر في مادة التوحيد كتاب «العقيدة التدمرية»لشيخ الإسلام ابن تيمية وفي هذا العام اقتنع الأخ مقبل بمذهب الإثبات الذي اشتهر بالمذهب السلفي، وقال: أما الآن فإن الشيخ ابن تيمية لم يترك للمخالفين مقالا ، وقد تخرج الأخ مقبل من المعهد ، ثم التحق بالجامعة الإسلامية وتخرج منها، وقد أنشأ الشيخ مقبل في اليمن دعوة سلفية في مدينة «صعدة» وارتحل للدراسة عليه الطلاب من دول أخرى،ثم توفي رحمه الله تعالى .

وهذه المعاملة التي عاملت بها الشيخ مقبل حينما كان طالبا إنما هي تطبيق للمنهج الدعوي الذي كنت مقتنعا به من ذلك الوقت، وقد كان من آثار قناعتي بهذا المنهج تأليف كتاب «الرسائل الشمولية» فيما بعد.

ولو أنني طبقت المنهج السائد عند بعض العلماء وفي بعض الإدارات العلمية من أخذ المخالفين في الاتجاه العقدي بالشدة لكنت رفعت بشأنه للإدارة ولكان قد فُصل من المعهد من أول سنة، وقد فُصل طالب جاء بعده ظهرت منه بعض المخالفات في العقيدة ورفع أحد المدرسين بأمره لإدارة المعهد .

هذا وقد بقيت في التدريس في معهد الحرم المكي أربع سنوات .

رحلة إلى المدينة :

في عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م الذي انتقلت فيه إلى مكة المكرمة سافرت إلى المدينة المنورة وخرجت أنا وابن أخي عبد العزيز بن عبدالرحمن الحميدي إلى جبل « أحد » وكنت حريصا على الوصول إلى المكان الذي جلس فيه رسول الله ﷺ يوم معركة « أحد » ، فوجدنا رجلا مُسِنًّا يريد الصعود إلى الجبل فسألناه عن ذلك المكان فقال: أنا ذاهب إليه، فذهبنا معًا ، وبقينا في ذلك المكان نصف ساعة ، وقد استفدت من ذلك الشيخ الكبير فوائد : الأولى أنه روى لي أبياتًا من قصيدة عصماء للإمام الشافعي رحمه الله ، منها قوله :

ســـــافِرْ تَجدْ عوضًا عمَّن تفارقهم

وانْصَبْ فإن لذيذ العيش في النَّصبِ

إني رأيــت وقـــوف الماء يفسده
إن ســـال طـاب وإن لم يجْرِ لم يَطِبِ
والتِّبر[1] كـــالتُّرب ملقىً في أماكنه
والعود في أرضـه نوع من الحطب
فــإن تغرَّب هـــــذا عزَّ مطـلبه
وإن تـــغرَّ ب ذاك عــزَّ في الطلب
والأُسْد لولا فراق الغاب ما افترستْ
والسهم لولا فراق القوس لم يُصِبِ

وقد روى لنا قصة في إحدى سفراته إلى أفريقيا، وهي أنه كان ضيفا على أمير من أمرائها، فجاء ولد له فقام ذلك الأمير وصار يضرب ولده ضربا شديدا ، قال: فقمت لأمنعه من ذلك وسألته عن سبب ضربه فقال: إنه استعمل السلاح في مقاومة الأسد وكان عليه أن يستعمل العصا فقط لأنه قد لايكون معه سلاح ، وكان ذلك درسا شديدًا في التربية، وكأنه يحكي قول المتنبي حينما مدح أحد الأمراء لما قتل الأسد بعصاه وألقى الأسد على العَفَر وهو التراب :

أمُعَفِّرَ الليث الهزَبْر بســوطه لمــن ادَّخرتَ الصارم المسلولا

والحقيقة أن قتل الأسد بالعصا من النوادر .

(١) أي الذهب .

ياتُرى لو أن رجال تلك القبائل تمَّتْ دعوتهم إلى الدخول في الإسلام فكيف سيكون شأن شبابهم الذين تربوا تلك التربية الجادة القوية؟ إنهم سيكونون جنودًا أقوياء في سبيل نصرة الإسلام وإعزاز دعوته.

وذكر أنهم في سفرهم إلى أفريقيا يمرُّون بجبال السراة وقد كان فيها قديما وحوش، وكان يمشي على قدميه ، فكان يقول: إنني إذا أردت أن أنام في الليل أضع تحت جنبي حجرًا ليكون نومي خفيفا فأحسَّ وَقْع أقدام السَّبُع إذا اقترب مني ، وهذا الرجل ينطبق عليه قول الشاعر :

ينـــام بإحدى مقلتيه ويتَّقي بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وهذا الخبر يصور لنا لونًا من ألوان الحياة القاسية التي كان يعيشها أسلافنا .

وذكر أنه في يوم من الأيام أطلَّ من مرتفع على سهل وفيه ثلاثة أسود، قال: وليس في بندقيتي إلا طلقةٌ واحدة ، قال: وانسلَّت اللبؤة من جنب الأسد الكبير وذهبت مع الأسد الصغير فانتبه الأسد الكبير فهجم على اللبؤة والأسد الصغير فقتلهما ، ففُرِّج عني ، وانحدرت حتى إذا كنت قريبا من الأسد رميته ببندقيتي فقتلته ، ثم سرت في طريقي .

وذكر قصة طريفة وفيها مثلٌ من حسن التصرف، وهي أن أميرة من الهند حجَّت ، وذلك أيام كانت الهند بلد الثروة والغنى، وكان في

شبابه آنذاك ويعمل طباخًا عند تلك الأميرة ، قال: فطلبتْ يوما طعاما من الرَّشاد الأخضر، ويسمى في بعض المناطق «ثِفَّا» ولم يكن في مكة – آنذاك-رشاد أخضر،وكان لابد من تحقيق طلب الأميرة ، قال: فاشتريت من حَبِّ الرشاد اليابس، وذهبت إلى إحدى المزارع فقطفت من البرسيم الذي هو في أول نباته،وطبختُ حب الرشاد حتى ذاب ثم وضعت عليه البرسيم، فأكلتْ منه الأميرة ولم يَعرف أحد حقيقة ذلك الطعام .

وهذه القصة فيها عبرة بالنسبة لتقلُّب أحوال البلدان والأمم، فالحجاز وسائر مناطق الجزيرة العربية كانت في حال بؤس وشدة في الفقر، وذلك قبل أن يُنعم الله عليها بالتوحُّد في مملكة واحدة تنعم بالأمن والرخاء، وبما من الله به عليها بالثروة ، في حين كانت الهند في السابق في حال رخاء ثم تغيَّرت الحال فيها بعد ذلك وكثر فيها الفقراء، وذلك مما يدعو إلى الصبر عند البلاء وشكر المنعم – عز وجل – عند الرخاء .

الدراسة في قسم الدراسات العليا الشرعية

في عام ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م تم إنشاء قسم الدراسات العليا الشرعية في كلية الشريعة في مكة المكرمة ، وكان الذي فكر في إنشائه وخطط لهذا المشروع فضيلة الشيخ الدكتور محمد أمين المصري رحمه الله ، وكان – آنذاك- أستاذًا في كلية الشريعة ، وقد رُفع هذا المشروع لمعالي

وزير المعارف- آنذاك – الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ رحمه الله وقد تابع الشيخ الدكتور محمد أمين المصري هذا المشروع حتى تمت الموافقة عليه ، وكان لمعالي الوزير حسن دور كبير في إنشاء ذلك المشروع .

وبهذه المناسبة فإنني أذكر رؤيا رآها أحد الإخوة وهي أن الشيخ أمين المصري كان يغرس شجرات في الجبل الذي يقع خلف مبنى كلية الشريعة ويسقي تلك الشجرات، وقد أُوِّلَتْ تلك الرؤيا بسعيه الحثيث في إنشاء قسم الدراسات العليا الشرعية، فكان ذلك الشجر هو طلاب الدراسات العليا .

وفي سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م التحقت بقسم الدراسات العليا الشرعية مع طلاب الدفعة الثالثة، وقد ضُمَّت كلية الشريعة في مكة المكرمة إلى جامعة الملك عبد العزيز في جدة ، وكان نظام الدراسة في ذلك القسم سنتين منهجيتين ثم التحضير لرسالة الماجستير .

وقد تأثرت بالدكتور محمد أمين المصري – رحمه الله في الناحيتين التربوية والعلمية ، كما تأثرت بالدكتور محمد السماحي – رحمه الله – في الناحية العلمية .

وكان أبرز زملائي الذين صارت بيني وبينه صحبة الدكتور عبدالعزيز بن عبد الرحمن العثيم وكان كفيف البصر ولكنه كان متفتح

البصيرة عالي الهمة رحمه الله ، وكذلك الدكتور ضياء الأعظمي وهو هندي الأصل وقد أسلم في الهند بسبب تأثره ببعض كتب العلامة أبي الأعلى المودودي رحمه الله ، وقد انتقل إلى الجامعة الإسلامية وهو أستاذ فيها، وقد حصل على الجنسية السعودية ، وكنا نحن الثلاثة نلتقي كثيرًا أثناء الدراسة ، أما الأخ الدكتور عبد العزيز فقد استمرت صحبتي معه حتى توفي رحمه الله في عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م ، وهو من أعز وأوفى من صحبتهم في حياتي .

وقد قدَّمت رسالة الماجستير وهي بعنوان « المنافقون في القرآن الكريم » وكان المشرف الدكتور محمد السماحي رحمه الله ، وتمت مناقشتها في عام ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م وحازت على تقدير جيد جدًّا ، وكان بين المشرف وأحد المناقشين خلاف أثَّر على نتيجة هذه الرسالة ورسائل أخرى رحمهما الله وغفر لهما .

وبعد ذلك فكرت في اختيار موضوع لرسالة الدكتوراه، وكان في تفكيري استخراج الأحاديث التي رواها الإمام محمد بن جرير الطبري عن رسول الله ﷺ في تفسيره ، وكنت أريد أن أسمي الكتاب «مسند الطبري» وكنت أرى أن فيه إضافة كتاب إلى كتب السنة ، وقد قرأت تفسير الطبري قراءة سريعة في شهرين ورقمت ما فيه من الأحاديث على

هامش التفسير ، وقد بلغتْ عددا من الآلاف ، ولما قدَّمت هذا المشروع لإدارة الدراسات العليا لم يوافق عليه الأساتذة بحجة أن الشيخ محمود شاكر قد قام بعمل في الحكم على أحاديث تفسير الطبري، على الرغم من أنه لم يحقق إلا مقدار ثلث الكتاب تقريبا .

وقد بحثت في تقديم موضوع آخر ، وكان في تفكيري أن اغتنم فرصة التفرغ لقراءة كتب السنة ، فقدَّمت موضوعا بعنوان «تفسير ابن عباس من كتب السنة » وقد تمت الموافقة على هذا الموضوع ، وشرعت في قراءة كتب السنة المطبوعة وذلك في عام ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ، وقد استغرق ذلك ثلاث سنوات ، وكنت أجمع تفسير ابن عباس من كتب السنة، وفي الوقت نفسه كنت أجمع الأحاديث في موضوعات العقيدة والأخلاق والسلوك وغير ذلك من الموضوعات التي أهتم بها، ثم بعد ذلك كتبت رسالة الدكتوراه بعنوان « تفسير ابن عباس من كتب السنة» وقدمتها للمناقشة في عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م وتمت مناقشتها في أوائل عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م وحازت على الامتياز ، وقد أصبحت هذه الرسالة بعد ذلك مرجعًا لكل من أراد أن يكتب عن تفسير ابن عباس رضي الله عنهما ، لأنه ليس من اليسير على من أراد معرفة تفسير ابن عباس في كتب السنة أن يقرأ تلك الكتب .

الموسم الثقافي في رابطة العالم الإسلامي

كان المسؤولون في رابطة العالم الإسلامي يقيمون موسما ثقافيا في شهر ذي القعدة من كل عام، ويدعَى له محاضرون متميزون ، وقد كان الحضور يملأون القاعة في مبنى الرابطة القديم في حي المعابدة، وقد كنت أحضر مستمعا وأنا في مرحلة الدراسات العليا .

ومن أفضل ما سمعت من تلك المحاضرات محاضرة مرتجلة ألقاها الداعية الكبير والخطيب الشهير الشيخ محمد محمود الصواف رحمه الله، وذلك أنه كان ضمن المحاضرات المعلن عنها محاضرة الشيخ زيد الفياض بعنوان « صلاح الدين قاهر الصليبيين » فلم يحضر من الرياض، فقام الأخ صفْوت السقا مساعد أمين عام الرابطة الذي يُقدِّم المحاضرين، فقال للجمهور : إن الشيخ زيد الفياض لم يحضر فمن ترشحون للكلام هذه الليلة ؟ فضجَّ الناس في القاعة : الصواف، الصواف، فألقى محاضرة رائعة لمدة ساعتين، وأبان فيها أن الإسلام هو قاهر الصليبيين ، وإنما صلاح الدين من الذين تمثل بهم الإسلام حيًّا على وجه الأرض ، وقد حفظت منه قول صلاح الدين :

إن لم أصُنْ بمهنَّدي ويميني ... ديني فلست إذًا صلاح الدين

تحمـــي الممالك ربها أما أنا ... فـــأريد أحمي الملك لا يحميني

ومن أروع ما سمعت منه أن صلاح الدين ليلة معركة « حِطِّين» دار على خيام الجند فوجدهم ما بين مصلٍّ وتالٍ للقرآن ما عدا أهل خيمة واحدة فإنه وجدهم نيامًا ، فأيقظهم وسرَّحهم إلى دمشق وقال: إن أُتِينا غدًا إنما سنُؤتَى من أهل هذه الخيمة ، وهذا فهم ثاقب من صلاح الدين لعوامل النصر الحقيقية .

وقد قام أحد الإخوة الأدباء وعلَّق على تلك المحاضرة تعليقًا لطيفًا ومما قال في ذلك :

إني وجـدت بدار عبد مناف ولدَى قريش شاهد الإيلاف

لاتسألوا عن قطنه أو صوفه فمن الصفاء دعَوه بالصواف

وقد دعيت إلى المشاركة في هذا الموسم الناجح عام ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م فألقيت فيه محاضرة بعنوان « شمول الإسلام للرسالات السماوية » .

وقد ذكرت في هذه المحاضرة ثلاث عشرة آية تدل على أن الإسلام هُوَ دين الرسل جميعا عليهم الصلاة والسلام .

وذكرت أن المقصود بذلك هو اتفاقهم جميعا على أصل الدين وهو التوحيد ، أما الشرائع فإنها متعددة ، كما قال تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وقد بينت أن فكرة التوحيد أو التقريب بين الأديان السماوية فكرة باطلة من أصلها ، لأن الدين ا لسماوي واحد هو الإسلام .

وذكرت قول النبي ﷺ « والذي نفس محمد بيده لايسمع بي أحد من هذه الأمة ؛ يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار »[1] .

والمراد بقوله « من هذه الأمة » أمة الدعوة[2] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب ٧٠ (رقم ١٥٣ ص ١٣٤) .

(٢) ينظر الموضوع كاملا في كتاب « الرسائل الشمولية / ٤٣٩ – ٤٩٣» للمؤلف .

دورة في سيراليون

بعد مناقشة رسالة الدكتوراه تم اختياري مع مجموعة من أساتذة جامعة أم القرى لإقامة دورة علمية في «سيراليون» وذلك في شهر شعبان من عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، وقد سافرت أنا والدكتور عبد الله الرسيني الذي كان مديرًا لتلك الدورة وكان نعم الصاحب ، فقد كان شديد العناية بي جزاه الله خيرا، وقد كانت الرحلة عن طريق فرنسا، ووصلنا إلى باريس وكان المقرر أن نبقى فيها يوما فأسكنونا في فندق بجوار المطار، وكان الدكتور عبد الله يعرف رجلا من أفريقيا وعنده عنوانه فاستأجرنا سيارة أجرة وأعطى العنوان للسائق وبقينا حوالي ثلاث ساعات حتى وصلنا إلى حي قديم، وقد ذهب معنا ذلك الرجل وقمنا بتمشية على بعض معالم باريس وأوصلنا إلى برج «إيفل» وصعدنا إلى سطحه المرصوف بالحجارة، وأدركتنا صلاة العصر ولم يكن بإمكاننا أن نصل إلى مسجد فقلت للأخوين: لابد أن نصلي هنا حتى لاتفوتنا صلاة العصر، فصلينا على الحجارة، ولما انتهينا من الصلاة إذا بأحد الفرنسيين يقلدنا في السجود استهزاءً بنا فلم نلتفت إليه.

ثم استأنفنا الرحلة إلى «فريتاون» عاصمة سيراليون .

وكانت الدورة لتعليم أساتذة المدارس الابتدائية، وقد أقيمت في

جامعة في العاصمة «فريتاون» ، وقد شارك معنا في العمل في الدورة من «سيراليون» الأخ / إي سي سي كروما / وكان يسجل انضمام الطلاب للدورة وينظم أمورهم، وهو وزير سابق ، كما شارك معنا الأخ/ بنقورا/ وكان يتولى تأمين الإعاشة لطلاب الدورة .

واستمرت الدورة شهرين، وقمت أنا وبعض الأساتذة بإلقاء كلمات في المساجد، وقد كان لهذه الدورة أثر كبير، وذلك في رفع معنوية المسلمين، فقد كان النصارى يقيمون دورات كثيرة، فجاءت هذه الدورة لتملأ فراغًا كبيرا، وقد تأثر الطلاب من توجيهات الأساتذة، وكانت لنا لقاءات مع بعض الوزراء المسلمين وبعض وجهاء العاصمة «فريتاون» من المسلمين ، وقد بلغ تأثر أحد هؤلاء الوجهاء إلى حد أنه قال لنا : سنحاكمكم أمام الله تعالى يوم القيامة إن لم تأتوا إلينا، وقد تأثرنا من كلمته تلك ، ولكن لم نوفق إلى الرجوع إليهم، وإن كان قد وصل إليهم غيرنا من الدعاة .

وقد بلغ من سمعة تلك الدورة أن النصارى عقدوا دورة في الجامعة نفسها التي كانت دورتنا فيها، وقد جعلوا دورتهم في قاعة المحاضرات التي كنا نصلي فيها، وكانوا بذلك يريدون إغاظتنا، وربما أرادوا التحرش ببعض الطلاب ليفسدوا علينا الدورة، ولكننا أوصينا

الطلاب بقوة وحزم بأن لايتعرضوا لأولئك النصارى حتى لو اعتدوا عليهم، ولما رأوا أننا مستمرون في برامجنا ولم نُظهر أي رَدَّة فعل لوجودهم رحلوا عنا .

وكانت تلك الدورة مشتركة بين جامعة أم القرى والاتحاد العالمي للمدارس الإسلامية ، وقد وفد علينا مندوب الاتحاد وهو الأستاذ كمال الهلباوي ، وسعدنا بصحبته أياما ، وقد أُعجبتُ بنشاطه وسرعته في التعرف على الوزراء المسلمين وزيارتهم ، وقد سافر ثم رجع وهو يحمل هدايا لأولئك الوزراء وقام بزيارتهم ، وقد استطاع أن يحصل من وجهاء العاصمة المسلمين على أرض كبيرة لإقامة مشروع علمي كبير .

هذا وقد قمت برحلة أنا والدكتور سعيد الشهراني وكان نعم الرفيق في السفر ، وبرفقتنا أحد الإخوة من سيراليون إلى شمال البلاد في إقليم «صفدو» وقد كان المقرر أن نمر في الطريق بقرية «مَشاكا» وهي بلد الأخ إي سي سي كروما المشرف على الدورة، وقد سبقَنا إلى هناك ليستقبلنا ، وهكذا كانوا يعتزون بدخولنا إلى بيوتهم وقراهم لكوننا نلبس الثياب العربية وننتمي إلى مكة المكرمة ، وكذلك كنا نعامل في كل قطر ذهبنا إليه ، فهل نحن نستحق ذلك التكريم والإجلال ؟ نعم نستحقه إذا كنا على مستوى ديننا الإسلامي العظيم وكنا نمثله حق التمثيل وكنت قد

حفظت من الدكتور عبد الله الرسيني شطر بيت من الشعر كان يردده وهو قول الشاعر في وصف الناقة :

تَقْتَضِمُ الشوك ولا تُشاكا .

وهذا الشطر يصلح أن يكون تعبيرًا عن الدخول في الأمور الصعبة وعدم التأثر بها ، ولما علمتُ من مرافقنا أننا سنمر على قرية «مَشَاكا» أكملت هذا الشطر فكان بيت الشعر :

تقتضم الشوك ولاتــشاكا ذاهبةٌ مقصدُهــا مشاكــا

وقد وصلنا إلى إقليم«صفدو»وأنزلونا عند أخ لبناني اسمه محمد ناصر، وكانت مهنته شراء قِطَع الألماس من الأهالي ثم القيام بتنقيتها وبيعها في أسواق أوروبا ، وكانت تلك المنطقة غنية بالألماس وكان بعض الأهالي يستخرجونه من سواحل النهر ، وقد قمنا بزيارة مدارس «أنصار الإسلام » هناك ، وسرَّنا مايقوم به القائمون عليها من أنشطة علمية ودعوية .

وقد صليت بالناس في تلك البلدة صلاة عيد الفطر المبارك، ثم عدنا بعد ذلك إلى «فريتاون» وفي طريق عودتنا زرنا مدينة «مجبوركا» وأهل سيراليون ينطقونها «مَبُرْوكا» بحذف الجيم، ومن الطرائف أن أحد الإخوة الأساتذة ذهب في رحلة علمية إلى سيراليون، ولما عاد قال لي : إن

في سيراليون مدينة اسمها عربي «مبروكة» فأخبرته بأنها «مجبوركا» ولكن أهل تلك البلاد يحذفون الجيم عند النطق ، وقمنا بجولة على مدارس «الأُخوَّة الإسلامية» وكان لها نشاط بارز في التعليم والدعوة .

وقد رجعنا إلى « فريتاون» العاصمة في أول شهر شوال ، ثم قام الأساتذة بإجراء الاختبارات ، وخُتمتْ الدورة التي كانت ناجحة بكل المقاييس .

هذا وقد ألقيت في تلك الدورة عددًا من الموضوعات الأخلاقية ومنها كلمة بعنوان « الأخوة الإسلامية » وسأذكر منها المختارات التالية:

يمكن أن نلخص بعض مميزات الأخوة الإسلامية بالنقاط التالية:

١ – جلالة مصدرها :

فالأخوة الإسلامية تم ربطها بين قلوب المؤمنين من الله جل وعلا كماجاء في قوله تعالى﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال:٦٣].

ولقد وُجدت محاولات بشرية لايجاد الأخوة الإنسانية فوق هذه المعمورة ، ولسنا الآن بصدد الموازنة بين هذه المحاولات البشرية وبين ماشرعه رب البشر للعالم جميعا من أواصر الأخوة والمودة ، فإن الوعي

الإسلامي الراسخ يستبعد فكرة الموازنة بين جانب من جوانب هذا الدين الإلهي الذي لايتطرق إليه النقص ولا الخلل وبين تفكير البشر الناقص الذي من شأنه عدم بلوغ الكمال ، يستبعد هذه الفكرة من باله ومن منهج بحثه لأن مجرد عقد الموازنة بين شرع الله تعالى وشرع البشر يعدُّ هبوطًا في التفكير الإسلامي وانتقاصا لشريعة الله بينما يعدُّ رفعًا لتفكير البشر وإكبارًا له .

فأعظم ميزة إذًا للإخاء الإسلامي هي كونه من عند الله ، والله سبحانه عالم بما فيه صلاح البشر في الدنيا والآخرة .

٢ – المقدرة الفائقة على التأليف بين القلوب :

فلقد بين الله سبحانه بقوله﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أن جمع قلوب العرب – وهم اللبنة الأولى لجمع المسلمين – على هدف واحد مستحيل حتى على النبي ﷺ وهو أعظم رجل لديه من الصفات المؤثرة مايملك به قلوب الناس حتى لو أنفق في سبيل ذلك كنوز الأرض جميعا ، وهذا مايؤيده واقع العرب والعالم جميعا قبل بعثة النبي ﷺ وواقعهم بعد البعثة وانتشار الإسلام .

٣ – العمق والأصالة :

كما تمتاز الأخوة الإسلامية بالعمق والرسوخ في النفس فإذا

انعقدت هذه الأخوة بين المتآخين في الله تمكنتْ في القلب وهيمنت عليه فلا يصبح في القلب محل لعلاقة أخرى إلا إذا كانت خاضعة لهذه العلاقة السامية .

ولقد صور النبي ﷺ قوة هذه الأخوة بقوله « ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام أفضل»[1] والنبي ﷺ لم يذكر في هذا المجال أُخوته لقرابته من المؤمنين لكون أخوته لأبي بكر رضي الله عنه أعمق في النفس وأبلغ رسوخا في القلب مع أنها قاصرة على أخوة الإسلام .

ومما يزيد الإخاء الإسلامي قوة ما أعده الله تعالى للمتآخين فيه من الأجر الأخروي فالمسلم يزداد إقبالاً على الأخوة الإسلامية وفِعل مايترتب عليها من أعمال الخير انتظارا للثواب في الآخرة لا لمجرد مبادلة الشعور بالشعور ومكافأة الآخرين على الأعمال الخيرية التي يقومون بها من أجله فإن هذا العمل إذا خلا من اعتبار رضوان الله تعالى والأجر الأخروي ولم يكن مبنيا على الإخاء الإسلامي يكون مبادلة تجارية فليس له عمق ولا أصالة ولاثبات .

ومن الأمثلة التي تصور عمق الأخوة الإسلامية موقف مصعب

---

(١) أخرجه الإمام البخاري – صحيح البخاري رقم (٣٦٥٤) فضائل الصحابة (٨/ ١٥٠).

ابن عمير رضي الله عنه يوم بدر حينما رأى أخاه أبا عزيز الذي كان في معسكر الكفار يأسره رجل من الأنصار فلم تتحرك في نفسه أواصر أخوة النسب وإنما تحركت في نفسه أواصر الأخوة الإسلامية حينما تعارضت مع أخوة النسب .

يقول أبو عزيز : مَرَّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال : شدَّ يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك ، قال له أبو عزيز : يا أخي أهذه وصاتك بي ؟ فقال مصعب : إنه أخي دونك[1] .

٤ – القوة في التأثير على السلوك :

كما يمتاز الإخاء الإسلامي بقوته في التأثير على السلوك وذلك في إيجاد النتائج الطبيعية لهذا الإخاء كالإيثار والرحمة والعطف والمواساة، ولذلك جعله النبي ﷺ مقدمة بنى عليها كثيرا من توجيهاته السامية نحو السلوك المستقيم كما في قوله « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايخذله ولايحقره »الحديث [2] ،ونستطيع أن نضرب مثلا لهذه الأخوة الإسلامية بمجتمع الصحابة في المدينة رضي الله عنهم عندما آخى الإسلام بين الأوس والخزرج وبينهم وبين المهاجرين ، فظهرت آثار هذه المؤاخاة في

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣٦ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب البر ، رقم ٣٢ .

السلوك العام للمجتمع حيث وُجدتْ أروع نماذج الإيثار في التاريخ البشري ، وقد امتدح الله الأنصار بهذا الخلق الكريم بقوله تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] أي فقر وحاجة وهذه أعلى درجات الإيثار .

٥ – الثبات والدوام :

كما تمتاز الأخوة الإسلامية بالثبات والدوام فهي لاتتزعزع مع تغير الزمان ولا مع توالي الأحداث ولاتزيدها الشدائد إلا رسوخا ومتانة .

ولأن سببها هو الحب في الله وابتغاء رضوانه فإنها لاتزول ولاتضعف مادام سببها ينبض بالقوة ويُمدُّها بالحيوية .

أما العلاقات الأخرى فإنها مرهونة بأسبابها وإن أسبابها لاتدوم غالبا فلذلك فهي تنقطع بانقطاع أسبابها .

وليست الأخوة الإسلامية مقتصرة على الحياة الدنيا بل إنها تستمر في الحياة الآخرة ، فالمؤمنون إخوة في الدنيا وهذه الأُخوة باقية بينهم يوم القيامة ويستمرون إخوة في الجنة كما قال تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر :٤٧] بل إن أُخوة المؤمنين في الجنة أكمل من أُخوتهم في الدنيا كما بينتْه هذه الآية فهي أُخوة صافية

خالصة جاءت بعد نزع الأحقاد والضغائن التي بقيت من آثار الدنيا .

أما غير الأُخوة الإسلامية من العلاقات التي تقوم بين البشر فإنها إن بقيت مدة طويلة تفنى بفناء أصحابها وفي الآخرة يكونون أعداء ،كما قال الله تعالى﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف :٦٧] فالأخلاء هم المتحابون والمحبة من أسباب الأخوة ، فالمتحابون في الدنيا يكونون في الآخرة أعداء إلا من كانت محبتهم في الله فإنها باقية في الآخرة .

٦ – الشمول والعالمية :

كما تمتاز الأخوة الإسلامية بالشمول والعالمية فالمسلم مأمور بأن يعدَّ الناس جميعا إخوة له في الله إذا اتفقوا معه في الدين وأن يبني سلوكه معهم جميعا على هذا المبدأ بحيث لايفرق بين مسلم ومسلم لأي اعتبار من الاعتبارات الجاهلية ، فالإسلام يخاطب الناس جميعا ولايقتصر على أمة دون أمة﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة :٢١] .

والنبي ﷺ بُعث إلى الناس كافة لا للعرب خاصة كما في قول الله تعالى﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨]

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :« أُعطيتُ خمسا لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر .. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» الحديث [1] .

ومن أجل هذا جاءت النداءات في القرآن عامة﴿ ياأيها الناس﴾ و﴿ياأيها الذين آمنوا ﴾ ولم تأت خاصة مثل (يابني إسرائيل) أو (ياقوم) فالأخوة الإسلامية في الشريعة العامة الخاتمة هي أول أُخوة تنتظم البشر جميعا على مختلف أجناسهم .

٧ – الالتزام :

ومن مزايا الأخوة الإسلامية أن الإسلام يفرض على المسلمين الالتزام بمسؤوليات الأخوة الإسلامية فالمسلم مسؤول عن أخيه المسلم، ولذلك جاءت التوجيهات النبوية نحو السلوك القويم مقرونة بذكر الأخوة الإيمانية .

ومن الأمثلة على ذلك قول رسول الله ﷺ « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايخذله ولايحقره » [2] .

كذلك أوجب الإسلام نصرة المسلمين وذلك برفع الظلم عن

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب التيمم رقم ٣٣٥ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب البر ، رقم ٣٢ .

المظلومين ومنع الظالمين من الظلم ، وفي هذا المعنى يقول ﷺ «انصر أخاك ظالما أو مظلوما قالوا : يارسول الله هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ قال: تأخذ فوق يديه »[1] .

فالأُخوة الإسلامية تستلزم أن يكون المسلم متيقظا لما يجري في مجتمعه فيخِفَّ لنجدة المستضعفين ويخفف من غلواء المتجبرين .

(١) صحيح الإمام البخاري كتاب المظالم رقم ٢٤٤٤ .

مرحلة العمل بعد الدكتوراه

تم تعييني عميدًا لكلية الدعوة وأصول الدين في جامعة أم القرى عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

وقد بقيتُ في عمادة الكلية فترتين ، وذلك إلى عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م وفي خلال هذه المدة شاركت في التدريس في المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة التابع لرابطة العالم الإسلامي من عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، وكنت أدرس مادة العقيدة ومادة أخرى دعوية ، وفي عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م تفرغت للتدريس في الكلية،وكان عملي في الإشراف على الرسائل العلمية إلى جانب مشاركتي في التدريس في المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة .

هذا وإن من أبلغ ما أعانني على تحمل المسؤولية وعدم التورط في المواقف الصعبة أنني كنت أتجاوز وأتغافل عن القضايا الصغيرة التي لاتكسر العظم ولايترتب على تجاوزها ضرر بأحد ، ولا أقف إلا في القضايا الكبيرة التي لها ما بعدها ، وقد كان هذا ديدني منذ أن توليت العمل في كلية الدعوة وأصول الدين ثم في المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة ، وقد وجدت مايؤيد توجهي هذا ؛ وذلك في قول الإمام أحمد ابن حنبل : إني وجدت تسعة أعشار السلامة في التغافل .

وفي هذا يقول عبد الله بن الزبير عن معاوية رضي الله عنهم: لله درُّ ابن هند إنا كنا لنُفْرقُه [أي نخيفه] وما الليث على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا ، وإنا كنا لنخدعه ، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا ، والله لَوَددت أنا مُتِّعنا به مادام في هذا الجبل حجر – وأشار إلى أبي قبيس – [1].

وقد استطاع معاوية بذلك وبمكارم الأخلاق أن يحتوي معارضيه الذين من أكبرهم عبد الله بن الزبير .

وكنت أرحم بعض المسؤولين الذين زاملتهم في العمل أو صحبتهم في سفر حينما يُدقِّقون في كل قضية ويعترضون على كل موضوع لايقتنعون به وإن كان صغيرًا ، وذلك لما أرى فيهم من المعاناة والتعب النفسي .

وفي عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م أقامت رابطة العالم الإسلامي مؤتمرًا دعويا عالميا، وقد دعيت للحضور وإلقاء كلمة في ذلك المؤتمر ، وقد ألقيت كلمة بعنوان «توجيهات للدعاة» وكان مدير تلك الجلسة أخ داعية من «نيجيريا» وقد قال لي بعد إلقاء تلك الكلمة : هذه الكلمة لو وصلت إلى نيجيريا فإنها ستؤثر في جمع كلمة المسلمين هناك ، ولعله قد

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٣٩) .

أخذ صورة منها لأنني سلمت تلك الكلمة لمنظمي المؤتمر ، وقد طلب نسخة منها الأستاذ عبد الله الدباغ وهو مسؤول عن إحدى المؤسسات الدينية في دولة «قطر» كما قال لي فضيلة الشيخ أبو بكر الجزائري : لو أنك تقدمها لإحدى الإدارات الدينية لطباعتها، ولكني لم أنشرها آنذاك لأنني كنت أنوي الإضافة إليها، ثم شُغلت عنها بأعمال علمية، وقد تمت طباعتها هذا العام في كتاب بهذا العنوان ، وسأذكر – بهذه المناسبة – مختارات منها باختصار :

إخلاص العمل لله تعالى

إن أهم عوامل النجاح في الدعوة الإخلاص التام لله تعالى وحده في كل عمل يقوم به المسلم، والتجرد التام من إرادة حظ النفس أو العمل للآخرين من دون الله تعالى.

أما مظاهر الإخلاص فإنها كثيرة أذكر منها على سبيل المثال :

١- الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة، وعدم اللجوء إلى تأويلها إذا خالفت ما عليه الداعية أو التباطؤ في تنفيذها، فإن الوقوف عندها وتنفيذها على الفور واضح الدلالة على الإخلاص لله تعالى وتعظيمه والبراءة من حظ النفس.

٢- أن تكون تصرفات المسلم في هذه الحياة الدنيا منبثقة من

شعوره برقابة الله عز وجل عليه وحده، وذلك بأن يكون سلوكه منسجمًا مع التكاليف الشرعية، وهذا دليل على تجريد القلب من الخضوع لأي قوة من قوى الأرض، وإخلاص هذا الخضوع لله تعالى وحده.

٣- العزوف عن حب الرئاسة وعدم الإقدام على طلبها لما في ذلك من التعرض لمواقع الفتنة، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن سؤال الإمارة كما جاء في صحيح الإمام البخاري من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها»[1].

٤- إبداء النصح لإخوانه:

وذلك بأن ينظر إلى مصلحة الدعوة فيجعلها فوق كل شيء، فيبدي النصح لإخوانه الذين يعملون معه والذين يخلفونه في العمل بما يحقق مصلحة الدعوة، فإن النظر إلى المصلحة العامة للمسلمين دليل على التحلي بخلق الإيثار، والتحلي بهذا الخلق العالي دليل على التجرد من النظر إلى حظ النفس إذا كان يتعارض مع مصلحة الجماعة، وكون هذا الإيثار ناتجًا عن ابتغاء رضوان الله تعالى دليل على كمال الإخلاص.

٥- الرغبة في نصرة الحق لذات الحق:

(١) صحيح البخاري كتاب الأحكام حديث رقم ٧١٤٦، باب ٥ (١٣/ ١٢٣).

فالإخلاص لله تعالى والنظر في ابتغاء مرضاته دائمًا وإلغاء أيّ سلوك يتنافى مع ذلك يقتضي من المسلم أن يسعى لنصرة الحق أيًّا كان من يمثله وأن يخضع للحق ولو كان من دعاه إليه رجلاً يكره أن يكون تابعًا له ومؤيدًا لرأيه.

بل الإخلاص يقتضي أعظم من ذلك وهو أن يكون انتصاره للحق من أجل أنه حق في ذاته لا لأنه مقتنع بأنه يمثله وأن الحق موافق لرأيه.

الالتزام بالمنهج الإسلامي :

يجب على الأتباع على مختلف مستوياتهم أن يجعلوا التعليمات والوصايا التي وصلت إليهم من مؤسس جماعتهم مجرد توجيهات قابلة للخطأ والصواب، وأن يعرضوها على شريعة الله تعالى فما وافقها أخذوا به وما خالفها تركوه، كما يجب عليهم ألاَّ يجمدوا على نظام الدعوة الذي وضعه مؤسس دعوتهم بحيث لا يزيدون عليه ولا يغيرون فيه شيئًا، فهو عالم مجتهد وحينما يضع العالم الداعية نظامًا لدعوته فهو إنما يلاحظ ظروف المجتمع الذي يعيش فيه، وهذه الظروف تكون محكومة بالسياسة المعاصرة والعرف الاجتماعي العام والعرف الخاص في مجتمع العلماء وغير ذلك.

توحيد الهدف والمنهج والاجتماع عليهما :

فالهدف السامي الذي يجب أن يعرفه المسلمون جميعًا ويسْعَوا جاهدين لبلوغه هو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة، قال تعالى ممتدحًا صحابة رسوله ﷺ ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح:٢٩ ، الحشر:٨]، ففضل الله هو الجنة ورضوان الله أكبر من ذلك.

فالذين يُظهرون الإسلام وهم في قرارة نفوسهم لا يريدون الوصول إلى هذا الهدف ليسوا مسلمين حقًّا، وإنما هم منافقون، فهؤلاء خارجون عن نطاق الأخوة الإسلامية، وليسوا من جماعة المسلمين، سواء ظهر منهم دعوة إلى مذهب من مذاهب الكفر، أو كانوا نفعيين يريدون بإظهار الإسلام تأمين مصالحهم في الحياة الدنيا.

والذين يعرفون هذا الهدف ويسعون لبلوغه يجب أن يتحدوا جميعًا في المنهج الموصل لهذا الهدف، وذلك بأن يلتزموا بالكتاب والسنة على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فإن هذا هو المصدر الوحيد لتلقِّي هذا الدين الموصل إلى الهدف السامي.

الاهتمام بأصول الدين وكلياته :

من حكمة الله تعالى أن جعل تكاليف هذا الدين على درجات، فجعل للدين أصولاً يُبنى عليها، وهي الأركان، وشرع أمورًا لا بد منها

للاستفادة من هذا البناء، وهي الواجبات، وشرع أمورًا تحسينية يكمل بها البناء، ويجبر ما عسى أن يكون فيه من نقص، وهي المستحبات، وحرم على المسلم ما يضر بهذا البناء ويعيبه وهي المحرمات، ونهاه عما يؤثر على كماله، وهي المكروهات.

وجعل لكل درجة من هذه الدرجات منزلة من الدين بحيث توضع في مكانها من الأهمية، وقد يترتب عليها أحكام أخرى.

الاهتمام بما اتفق عليه علماء المسلمين :

إن مما يلاحظ أن بعض الدعاة يهتمون بمسائل الخلاف ويكثرون من الجدل حولها، بينما يغضون أبصارهم عن مسائل الاتفاق، فإن علماء المسلمين منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم اتفقوا على أغلب قضايا الدين إجمالاً واختلفوا في بعضها، واختلافهم يقل ويكثر باختلاف العصور.

وإن هذه النظرة لدليل واضح على ميل هؤلاء إلى التميز وبُعدهم عن تصور روح الجماعة والاتفاق، وإن الأولَى بهم أن يجعلوا من مواضع الاتفاق التي هي الأكثر سببًا لتوثيق أواصر المودة والولاء بينهم، ثم يتفاهموا بعد ذلك بهدوء وحكمة وتجرد من الهوى في مواضع الخلاف مع رد ما اختلفوا فيه إلى الكتاب والسنة.

وقد نبه إلى هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد ما ذكر خلاف أهل السنة في مسمى الإيمان والإسلام حيث يقول: «فمن اتبع علمه حتى عرف مواقع الاستعمال عامة وعلم مأخذ الشُّبَه أعطى كل ذي حق حقـه، وعلم أن خير الكلام كلام الله، وأنه لا بيان أتم من بيانه وأن ما أجمع عليه المسلمون من دينهم الذي يحتاجون إليه أضعاف أضعاف ما تنازعوا فيه، فالمسلمون: سُنِّيُّهم وبِدْعيُّهم متفقون على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومتفقون على وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ومتفقون على أن من أطاع الله ورسوله فإنه يدخل الجنة ولا يعذَّب، وعلى أن من لم يؤمن بأن محمدًا رسول الله ﷺ إليه فهو كافر، وأمثال هذه الأمور التي هي أصول الدين وقواعد الإيمان التي اتفق عليها المنتسبون إلى الإسلام والإيمان، فتنازعهم بعد هذا في بعض أحكام الوعيد أو معاني بعض الأسماء أمر خفيف بالنسبة إلى ما اتفقوا عليه، مع أن المخالفين للحق البين من الكتاب والسنة هم عند جمهور الأمة معروفون بالبدعة، مشهود عليهم بالضلالة؛ ليس لهم في الأمة لسان صدق ولا قبول عام، كالخوارج والروافض والقدرية ونحوهم، وإنما تنازع أهل العلم والسنة في أمور دقيقة تخفى

على أكثر الناس ولكن يجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله[1].

والمقصود بالأمور الخلافية التي لا تؤثر على وحدة المسلمين ولا تستلزم البراءة بينهم أن تكون دون الشرك الأكبر والكفر الأكبر المخرجَين من الملة، فالذين يدعون غير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل والذين يسألون الأموات قضاء حوائجهم قد وقعوا في الشرك الأكبر المخرج من الملة، وكذلك الذين يزعمون بأن الإسلام لا علاقة له بالحكم والسياسة وإدارة شؤون الحياة قد كفروا ببعض الإسلام ، فلا وحدة مع هؤلاء جميعا ولا ولاء لهم .

إحسان الظن بالمسلمين :

إن إحسان الظن بالمسلمين يعدّ من أهم الصفات التي يجب على الداعية أن يتحلى بها، لأن إحسان الظن يفتح الطريق أمامه ليدخل إلى قلوب الناس فيؤثر عليهم، فالذي يحسن الظن بالمسلمين يرى الجوانب الحسنة فيهم فيقبل على دعوتهم وهو باشُّ الوجه منطلق الأسارير، لأن نواحي الخير لدى هؤلاء المدعوّين تغطي على نواحي الشر، وتخفف من حدة الغضب الذي لا بد أن يعتري المؤمن عند رؤية ما لا يُرضي الله تعالى، فيتصرف الداعية عندئذ تصرفًا حكيمًا حيث تتجاذبه ناحية

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٦).

الإعجاب بصفات الخير لدى الناس، والتضجر من صفات الشر عندهم، فلا يحمله الإعجاب بما لديهم من خير على السكوت عنهم سكوت الرضا بالباطل، ولا يحمله التضجر مما عندهم من الشر على الخصومة والعنف في الإنكار، بل يثني عليهم بما لديهم من الخير وينبههم على ما وقعوا فيه من الشر.

ولقد كان الدعاة الصالحون يوصون بحسن الظن بالمسلمين، ومن ذلك ماجاء في قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءًا وأنت تجد لها في الخير مدخلاً، وضَعْ أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك[1].

وكذا ما جاء في قول أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله لابنه عبد العزيز: يا بني إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محملاً في الخير[2].

الإسرار بالنصيحة :

مما يوصى به الدعاة إلى الله تعالى أن تكون نصائحهم لإخوانهم وانتقاداتهم عليهم سرًّا فيما بينهم، وأن يجتنبوا الانتقادات العلنية.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٤/ ٣٥٩).

(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي/ ٢٣٥.

إن من أبرز الأسباب التي تؤدي إلى الفرقة في الدين الانتقاد العلني، وإذا كان كبار الدعاة يلاحظون خطر الفرقة في الدين فلا يُظهرون انتقاداتهم علنًا تفاديًا للفتن المترتبة على ذلك فإن صغار الدعاة قد لا يدركون هذا الخطر بل يسارعون إلى النقد الذي يترتب عليه من الضرر أكثر مما يحصل به من النفع، ويتحمسون للجدل الذي يجري بين بعض الدعاة من غير نظر لعواقبه السيئة على مستقبل الدعوة الإسلامية.

إن براعة الداعية تظهر في مقدرته على الحفاظ على روح الجماعة وتفادي النزاع والخلاف مع أدائه ما يريد من توجيهات نحو بناء المجتمع الإسلامي.

الحذر من الفتنة في الدين :

إن من الأمور المهمة التي يجب على كل مسلم أن يراعيها وخاصة من وفقه الله إلى الدعوة أن يحافظ على تثبيت إيمان المسلمين وتقويته وأن يجتنب الأمور التي تؤدي إلى فتنتهم وإضعاف إيمانهم ولو كانت هذه الأعمال من أعمال الخير.

وحينما فات معاذَ بن جبل ﷺ ملاحظةُ ذلك فأطال الصلاة سبب فتنة لبعض المسلمين فلامه النبي ﷺ لومًا شديدًا، وقد أخرج خبره الشيخان رحمهما الله من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما «أن معاذ

ابن جبل ﷺ كان يصلي مع النبيﷺثم يأتي قومه فيصلي بهم الصلاة[1]،فقرأ بهم البقرة، قال:فتجوَّز رجل فصلى صلاةً خفيفة، فبلغ ذلك معاذًا فقال: إنه منافق، فبلغ ذلك الرجل فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنا قوم نعمل بأيدينا ونسقي بنواضحنا[2]، وإن معاذًا صلى بنا البارحة فقرأ البقرة فتجوَّزتُ، فزعم أني منافق، فقال النبي ﷺ : يامعاذ أفتَّان أنت؟ ثلاثًا، اقرأ والشمس وضحاها، وسبح اسم ربك الأعلى ونحوهما»[3].

النور خير وإن كان فيه ظلمة :

لقد قرأت للإمام ابن تيمية كلمات نيرة ينكر فيها على من يرى أنه إما أن تكون الدعوة إلى الإسلام الكامل أو لا خير في الدعوة ونشر العلم، وفي ذلك يقول: فإنه ينبني على الأصل الذي قدمناه من أنه قد يقترن بالحسنات سيئات إما مغفورة أو غير مغفورة، وقد يتعذر أو يتعسر على السالك سلوك الطريق المشروعة علمًا وعملاً، فإذا لم يحصل النور الصافي، بأن لم يوجد إلا النور الذي ليس بصاف وإلا بقي الإنسان في

---

(١) يعني صلاة العشاء كماجاء في رواية للبخاري «قرأ معاذ في العشاء بالبقرة»–صحيح البخاري،رقم ٧٠٥،كتاب الأذان،باب ٦٣ (٢/ ٢٠٠).

(٢) النواضح الإبل، أي يرفعون الماء من الآبار بالدلاء التي تجرها الإبل.

(٣) صحيح البخاري، رقم ٦١٠٦، كتاب الأدب، باب ٦٤ (١٠/ ٥١٥). صحيح مسلم، رقم ٤٦٥، كتاب الصلاة، باب ٣٦ (ص٣٣٩).

الظلمة فلا ينبغي أن يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة إلا إذا حصل نور لا ظلمة فيه، وإلا فكم ممن عدل عن ذلك يخرج من النور بالكلية إذا خرج غيره عن ذلك، لما رآه في طرق الناس من الظلمة[1].

وإن هذه المقالة تذكرني بخبر سمعته من أحد الدعاة بأن جماعة من جماعات الدعوة كان لها نشاط في دعوة الوثنيين في بلادهم إلى الإسلام عن طريق الإحسان إليهم برفع المستوى المعيشي لأسرهم، فكان أن دخل عدد منهم في الإسلام عن طريق أفراد تلك الجماعة، فغاظ ذلك أفرادًا من جماعة أخرى فأخذوا يشوهون صورة أولئك الذين اجتذبوهم للإسلام بذكر مثالب جماعتهم حسب تصورهم، فلنفرض جدلاً أن تلك الجماعة التي نجح بعض أفرادها في هداية بعض الكفار عندهم بعض الأخطاء في فهم الإسلام أو القصور في التطبيق، وأنهم سينقلون الوثنيين إلى إسلام فيه نقص فهل هذا خير لهؤلاء المهتدين أم بقاؤهم على الوثنية؟!

الصراحة والوضوح :

مما يوصَى به الدعاة إلى الله تعالى التخلق بخلق الصراحة والوضوح مع إخوانهم حتى تسلم معاملاتهم من الغموض والخداع،

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٦٤ – ٣٦٦).

وذلك يضمن لهم سمعة عالية، إلى جانب كونهم قد قدموا عملاً صالحًا يثابون عليه.

وقد كان النبي ﷺ يربي أصحابه على هذا الخلق حتى أصبح شائعًا في معاملاتهم.

مشاركتي في إمامة المساجد

في عام ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م عُيِّنتُ إمامًا في مسجد الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله في مكة المكرمة ، وقد بقيت في إمامة هذا المسجد والخطابة فيه حتى نهاية عام ١٤١٧هـ ، وقد طلبت الإعفاء من الإمامة لأنني انتقلت في السكن إلى حيٍّ بعيد من المسجد ، ولم احتفظ ولا بخطبة واحدة لأنني كنت أخطب ارتجالاً ولم أسجل خُطبي ، وهذا من سلبيات الارتجال في الخطب إذا لم يتم تسجيلها ، لكن من الإيجابيات المهمة للارتجال في الخطبة أن ذلك أقوى في التأثير على السامعين .

ولكني سأذكر بعض الموضوعات التي خطبت فيها مما كتبت عنه فيما بعد ، ومن ذلك :

مواقف في مجال العبادة

من أخبار النبي ﷺ :

مما ورد في خشوع النبي ﷺ في الصلاة ما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن عُبَيد بن عمير أنه قال لعائشة رضي الله عنها : أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ ، قال: فسكتَتْ ثم قالت: لما كان ليلةً من الليالي قال : ياعائشة ذريني أتعبد الليلة لربي ، قلت : والله إني أحب قربك وأحب مايسرك ، قالت : فقام فتطهر ثم قام يصلي ، قالت :

فلم يزل يبكي ﷺ حتى بلَّ لحيته ، قالت: ثم بكى حتى بلَّ الأرض ، فجاء بلال يُؤْذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال: يارسول الله تبكي وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا ؟ ! لقد نزلت عليَّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] (١) .

وهكذا رأينا مظهرًا من مظاهر المثل الأعلى لرسوخ الإيمان وقوة حضور القلب مع الله تعالى، تمثَّل في بكاء النبي ﷺ من خشيته جل وعلا عند مناجاته وتلاوة كتابه .

إنه حينما يتلو كتاب الله تعالى يتذكر هيمنة الملك الجبار جل شأنه ، ويحلِّق فكره بين جنبات الأفق الأعلى ، حيث الملائكة المقربون والحياة الآخرة بما فيها من نعيم وعذاب .

وإذا مرَّ بقصص الأمم الماضية انطلق فكره في تأمُّل مسيرة معركة

---

(١) الترغيب والترهيب ٣/ ٣٢ .

الحق مع الباطل على أيدي من اصطفاهم الله تعالى لرسالته ، ومايَعْقُب ذلك من مصارع الأمم الضالة ، ثم يُلقي نظرة على الحائرين التائهين من حوله وهم يكررون ملحمة الطغاة السابقين ، وينتظرون مصيرهم ومصير تابعيهم المحزن إن لم يثوبوا إلى رشدهم .

وهكذا كانت الصلاة منتهى سعادة النبي ﷺ كما قال : « وجُعِلَ قرة عيني في الصلاة» [1] وكما قال: « أرحنا بالصلاة يابلال» [2] .

من أخبار أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها في خبر عن أبيها الصديق أبي بكر رضي الله عنه يوم أن كان في مكة في بداية الإسلام وقد جاء فيه " ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وبرز ، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقصَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاءً لايملك دمعه حين يقرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين [3] .

وهكذا كان أبو بكر رضي الله عنه يبكي عند تلاوة كتاب الله تعالى ،

---

(١) مسند أحمد ٣/ ١٢٨ .

(٢) مسند أحمد ٥/ ٣٦٤ .

(٣) صحيح البخاري رقم ٢٢٩٧ ، ٣٩٠٥ .

وهذا يدل على رسوخ يقينه وقوة حضور قلبه مع الله تعالى ومع معاني الآيات التي يتلوها ، والبكاء مبعثه قوة التأثر إما بحزن شديد أو فرح غامر ، والمؤمن الحق يظل بين الفرح بهداية الله تعالى إلى الصراط المستقيم، والإشفاق من الانحراف قليلا عن هذا الصراط ، وإذا كان صاحب إحساس حيّ وفكر يَقِظٍ كأبي بكر رضي الله عنه فإن هذا القرآن يذكِّره بعظمة الله تعالى وهيمنته العظمى على خلقه ، كما يذكِّره بالحياة الآخرة ومافيها من حساب وعقاب أو ثواب ، فيظهر أثر ذلك في خشوع الجسم وانسكاب العبرات ، وهذا المظهر يؤثر كثيرا على من شاهده ، ولذلك فزع المشركون من مظهر أبي بكر المؤثر وخَشُوا على نسائهم وأبنائهم أن يتأثروا به فيدخلوا في الإسلام .

من أخبار عبيد الله القواريري رحمه الله :

رُوي عنه أنه قال: لم تكن تكاد تفوتني صلاة العتمة في جماعة[1] ، فنـزل بي ضيف فشغلت به فخرجت أطلب الصلاة في قبائل البصرة، فإذا الناس قد صلوا ، فقلت في نفسي : يُروَى عن النبي ﷺ أنه قال: «صلاة الجميع تفضل على صلاة الفذ إحدى وعشرين درجة » ورُوِي

(١) أي صلاة العشاء .

«خمسا وعشرين » وروي«سبعا وعشرين»[1] فانقلبت إلى منـزلي فصليت العتمة سبعا وعشرين مرة ، ثم رقدت فرأيتني مع قوم راكبي أفراس وأنا راكب ، ونحن نتجارى وأفراسهم تسبق فرسي فجعلت أضربه لألحقهم، فالتفت إليَّ آخرهم فقال: لاتُجْهِدْ فرسك فلست بلاحقِنا قال: فقلت : ولِمَ؟ قال: لأنا صلينا العَتَمة في جماعة[2] .

فهذا اجتهاد بالغ من هذا الإمام في تدارك صلاة العشاء التي فاتته، فقد دار على مساجد البصرة ليدركها فلم يحصل له ذلك، ثم اجتهد فصلى سبعا وعشرين مرة ليحصل على فضيلة الجماعة، فما أعظم هذا الحرص على درجات الثواب من هذا الإمام !وكم قضى من الوقت والجهد في هذه الصلوات من أجل تدارك مافاته من مضاعفة الأجر بصلاة الجماعة!

ولكنه مع ذلك رأى تلك الرؤيا العجيبة المباركة التي تدل على أن المسلم وإن كرَّر الصلاة سبعا وعشرين مرة في بيته فلن يلحق بالثواب من حضروا صلاة الجماعة ، وهذا دليل على أهمية الصلاة مع الجماعة في

---

(١) في رواية البخاري ومسلم « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » – صحيح البخاري ، رقم ٦٤٥ ، الأذان (٢/ ١٣١) ، صحيح مسلم ، رقم ٢٤٩ ، المساجد (ص ٤٥٠) .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٤٤ .

المساجد وعِظَم منـزلتها في الدين .

فكم يخسر الذين يصلون الصلوات الخمس أو بعضها في بيوتهم! وكم أضاعوا من درجات من الثواب عالية تُعَدُّ بالألوف والملايين !

إن في هذا الخبر لتذكرةً للغافلين واستنهاضًا لِهِمَم المتكاسلين، وقُرَّة عين للفائزين السابقين .

من أخبار أحمد بن حرب رحمه الله :

من ذلك ماذُكر عن أبي عبد الله أحمد بن حرب النيسابوري قال أبو عمرو محمد بن يحى : مَرَّ أحمد بن حرب بصبيان يلعبون، فقال أحدهم : أَمسكِوا فإن هذا أحمد بن حرب الذي لاينام الليل،فقبض على لحيته وقال:الصبيان يهابونك وأنت تنام؟فأَحْيَي الليل بعد ذلك حتى مات[1] .

ففي هذا الخبر مثل من اهتمامات الصبيان في ذلك العصر فقد وصفوا العابد أحمد بن حرب بأنه لاينام الليل ، وكان وصفهم على سبيل المدح ، وكان لهذا مهيبًا عندهم ، وهذا دليل على صلاح المجتمع آنذاك حيث يُعِزُّ أفراده أهل الاجتهاد في العبادة .

وليس المراد بقول أحمد بن حرب عن نفسه " وأنت تنام " أنه كان ينام الليل كله ، بل كان ينام بعضه ، فلما سمع مقالة الصبي علم أنْ قد

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٣ .

طارت له في المجتمع شائعة بأنه لكثرة صلاته بالليل لاينام، فعزَّ عليه أن تكون سمعته عند الناس أعلى من واقع عبادته فكان بعد ذلك يُحيى الليل كله ولاينام .

من أخبار محمد بن أسلم رحمه الله :

من الذين عرُفوا بالاجتهاد في العبادة الإمام أبوالحسن محمد بن أسلم الخراساني ، يقول محمد بن القاسم الطوسي :صحبت محمد بن أسلم أكثر من عشرين سنة لم أره يصلي حيث أراه ركعتين من التطوع إلا يوم الجمعة ، وسمعته كذا وكذا مرة يحلف: لو قدرت أن أتطوع حيث لايراني ملكاي لفعلت، خوفا من الرياء ، وكان يدخل بيتًا له ويُغلق بابه ولم أدر مايصنع حتى سمعت ابنًا له صغيرا يحكي بكاءه ، فنهته أمه ، فقلت لها : ماهذا ؟ قالت: إن أبا الحسن يدخل هذا البيت فيقرأ ويبكي ، فيسمعه الصبي فيحكيه، وكان إذا أراد أن يخرج غسل وجهه واكتحل فلا يُرى عليه أثر البكاء .

وكان يَصِل قومًا ويكسوهم ويقول للرسول : انظر أن لايعلموا مَنْ بعثه ، ولا أعلم منذ صحبته وصل أحدًا بأقل من مائة درهم إلا أن لايمكنه ذلك[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٠٠ – ٢٠١ .

فهذا خبر رائع يشتمل على مواقف عالية في العبادة من الإمام أبي الحسن محمد بن أسلم الخراساني ، فهو لايكاد يصلي في المسجد إلا الفرائض بعدًا عن الرياء ، ولكنه يحيي بيته بصلاة الليل ، ويبكي من خشية الله تعالى بكاء يُسمع من خارج الغرفة التي أقفل بابها، ويبذل جهده في إخفاء آثار البكاء ، ولكن ذلك ظهر على لسان ذلك الطفل الذي أصبح يحكي بكاءه ليكون في سيرته عبرةٌ للناس في عصره وبعد ذلك .

ولقد كان لخلوته لعبادة ربه في الليل أثر كبير في رسوخ إيمانه وقوة شخصيته ، حيث أصبح قَوَّالاً بالحق آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر داعيًا إلى الله تعالى لايخشى في الله لومة لائم، ولما مات صلى عليه أكثر من ألف ألف .

قيل للإمام أحمد بن نصر : ياأبا عبد الله صلى عليه ألف ألف وقال بعضهم : ألف ألف ومائة ألف من الناس ،يقول صالحهم وطالحهم : لم نعرف لهذا الرجل نظيرا ، فقال أحمد بن نصر: ياقوم أصلحوا سرائركم بينكم وبين الله ، ألا ترون رجلا دخل بيته بطوس فأصلح سره بينه وبين الله ، ثم نقله الله إلينا فأصلح الله على يديه ألف ألف ومائة ألف من

الناس ![1] .

وهكذا أدرك الإمام أحمد بن نصر أثر العبادة الخفية في صقل النفوس وتطهيرها وتقْوِيتها على قول الحق وإصلاح الناس .

من أخبار ابن دقيق العيد وتلميذه رحمهما الله :

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني : وقرأت بخط محمد بن عبدالله العثماني قاضي صفد: أخبرني الأمير سيف الدين بلبان الحسامي قال: خرجت يوما إلى الصحراء فوجدت ابن دقيق العيد في الجبَّانة واقفا يقرأ ويدعو ويبكي، فسألته فقال: صاحب هذا القبر كان من أصحابي وكان يقرأ علي، فمات فرأيته البارحة، فسألته عن حاله فقال: لما وضعتموني في القبر جاءني كلب أبقع[2] كالسبع وجعل يروعني فارتعبت ، فجاء شخص لطيف في هيئة حسنة فطرده وجلس عندي يؤنسني، فقلت:من أنت؟ فقال : أنا ثواب قراءتك سورة الكهف يوم الجمعة[3] .

فهذه رؤيا صالحة رآها العالم الفقيه محمد بن علي المنفلوطي المعروف بابن دقيق العيد، والرؤى الصالحة بين الأحياء والأموات تكررت كثيرًا في محيط العلماء وطلاب العلم، وذلك يعبر عن قوة العلاقة

---

(١) حلية الأولياء ٩ / ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٢) أي لونه سواد في بياض .

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤/ ٩٥ – ٩٦ .

القلبية بين من رأى الرؤيا ومن رُؤيت له، فإذا فقد المحب حبيبه وكان من أهل الصلاح والتقوى وشعر بشيء من الوجد والإشفاق عليه فإن الله تعالى يقدر له أن يراه في المنام ليخفف مما في نفسه من الهمِّ نحوه .

والشيء الذي يلفت النظر ويحقق العبرة في هذه الرؤيا بيان فضل قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ، حيث تجسَّم هذا الثواب بصورة رجل لطيف في هيئة حسنة فأزال المكروه عن صاحب ذلك الثواب وأدخل عليه السرور والأنس .

والذي يظهر أن الكلب المذكور يمثِّل عملاً سيئًا ارتكبه ذلك الرجل ، وأن ثواب قراءته سورة الكهف يوم الجمعة قد محى الله به تلك السيئة .

مواقف في الزهد والورع

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي عثمان النهدي قال: لما قدم عتبة [1] أذربيجان أُتِيَ بالخبيص فأمر بسفطين عظيمين [2] فصُنِعا له من الخبيص ، ثم حمل على بعير فسرِّح بهما إلى عمر رضي الله عنه ، فلما قدم على عمر ذاقه فوجده شيئًا حلوا ، فقال: كل المسلمين يشبع من هذا

(١) هو عتبة بن فرقد .

(٢) السَّفَط وعاء كالقفَّة والخبيص نوع من الحلوى .

في رحله ؟ قال: لا ، قال: فلا حاجة لنا فيه فأطَبقهما وردهما عليه ، ثم كتب إليه: أما بعد فليس من كدِّ أبيك ولا من كد أمك فأشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك[1] .

فهذه نظرة جليلة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في التأكيد على مبدإ المساواة بين المسلمين، فالمطلوب في حياة المسلمين هو الزهد والتخشن في المعيشة الذي أوصى به عمر عتبة بن فرقد، ولكن لو فُرِض أن الخير عمَّ المسلمين فأصبحوا كلُّهم يحصلون على الأطعمة الشهية فإن تناولها في بعض الأحيان لاينافي حياة الزهد ، ولكن حينما تكون هذه الأطعمة مقصورة على الخاصة فإن ذلك لايجيز للوالي أن يصرف مال المسلمين لإطعام الخاصة منها، ولذلك قال عمر لعتبة حينما كتب إليه «فليس من كدِّ أبيك ولا من كد أمك» .

من مواقف أبي عبيدة ومعاذ رضي الله عنهما :

من أخبار الصحابة رضي الله عنهم في الزهد مارُوي عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما: أن عمر حين قدم الشام قال لأبي عبيدة رضي الله عنه : اذهب بنا إلى منـزلك ، قال: وماتصنع عندي؟ ماتريد إلا أن تعصر عينيك عليّ ، قال: فدخل فلم ير شيئًا ، قال: أين متاعك ؟ لا أرى

(١) الزهد / ١٢١ .

إلا لَبَدًا وصحفة وشنّـًا [1] وأنت أمير ، أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة [2] فأخذ منها كسيرات ، فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة : قد قلت لك إنك ستعصر عينيك عليَّ ، يا أمير المؤمنين يكفيك ما يُبْلُغك المقيل ، قال عمر : غيَّرتْنا الدنيا كلَّنا غيرك يا أبا عبيدة .

ذكره الإمام الذهبي وقال : وهذا والله هو الزهد الخالص لا زهد من كان فقيرًا معدما [3] .

فهذا مثل بليغ في الزهد يقدمه أحد عظماء الإسلام أمام أحد عظمائه .

لقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حينما قَدِم إلى الشام قد جعل من أهدافه المهمة أن يزور بيت أمير الشام أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه لِيُثْلج صدره برؤية مظهر من مظاهر الزهد النادرة ، ولكن أبا عبيدة كان يدرك ما ستؤول إليه حال عمر حينما يرى بيته فتلكأ قليلا في الذهاب به ، ولم يتمالك عمر نفسه حينما رأى ذلك البيت الذي كأنما هُجر من دهر فجاشت عيناه بالدموع .

---

(١) اللَّبد السرج والشنّ القربة القديمة .

(٢) يعني السلة .

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ١٧ .

ويَحْدُث مايدهش المتأمل حيث يقول أبو الزهد ومقنِّن مناهجه في عصره : «غيَّرتنا الدنيا كلَّنا غيرك يا أبا عبيدة » .

هل حقا غيَّرت الدنيا عمر ؟!

إنه الحاكم العظيم الذي ساس دولته على الزهد وكان قدوة عليا للزاهدين !

ولكنه التواضع الكبير من الرجل الكبير !

فما أعظم هذا الحوار بين هذين الرجلين العظيمين ! وما أعظم ماقدَّماه لأمة الإسلام من تضحية وفداء !!

ومن ذلك ماذكره ابن الجوزي عن مالك الداري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرة فقال للغلام : اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح . ثم تَلَهَّ ساعة في البيت حتى تنظر مايصنع .

فذهب الغلام قال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك،قال:وصله الله ورحمه،ثم قال:تعالَي ياجارية،اذهبي بهذه السبعة إلى فلان،وبهذه الخمسة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان ، حتى أنفذها .

فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل وتَلَهَّ في البيت ساعة حتى تنظر

مايصنع، فذهب بها إليه قال : يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال رحمه الله ووصله ، تعالي ياجارية ، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا ، فاطَّلَعَت امرأته فقالت : ونحن والله مساكين فأعطنا ولم يبق في الخرقة إلا ديناران فَدَحَا بهما إليها ، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره بذلك ، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض [1] .

ومن هذه الأخبار تبين لنا ماكان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الزهد في متاع الدنيا .

من أخبار أبي أمامة رضي الله عنه :

من ذلك ماروي عن مولاة لأبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قالت : كان أبو أمامة رجلا يحب الصدقة ويجمع لها من بين الدينار والدرهم والفلوس ، وما يأكل ،حتى البصلة ونحوها، ولايقف به سائل إلا أعطاه ماتهيأ له حتى يضع في يد أحدهم البصلة .

قالت : فأصبحنا ذات يوم وليس في بيته شيء من الطعام لذلك – يعني لذلك الغرض وهو الصدقة – ولا لنا ، وليس عنده إلا ثلاثة دنانير، فوقف به سائل فأعطاه دينارًا ثم وقف به سائل فأعطاه دينارًا ، ثم وقف به سائل فأعطاه دينارًا .

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٩١ .

قالت : فغضبت وقلت : لم يَبْقَ لنا شيء ! فاستلقى على فراشه وأغلقت عليه باب البيت حتى أذن المؤذن للظهر ، فجئته فأيقظته فراح إلى مسجده صائمًا ، فرققت عليه فاستقرضت ما اشتريت به عشاء فهيأت سراجا وعشاء ، ووضعت مائدة ودنوت من فراشه لأمهده له ، فرفعت المرفقة – يعني المخدة – فإذا بذهب ، فقلت في نفسي ، ماصنع إلا ثقة بما جاء به ، قالت: فعددتها فإذا ثلاثمائة دينار ، فتركتها على حالها حتى أَنصرِفَ على العشاء .

قالت : فلما دخل ورأى ماهيأت له حمد الله تعالى وتبسم في وجهي، وقال: هذا خير من غيره ، فجلس فتعشى ، فقلت : يغفر الله لك ، جئتَ بما جئت به ، ثم وضعتَه بموضع مضيعة ! فقال: وماذاك ؟ فقلت : ماجئت به من الدنانير ، ورفعت المرفقة عنها ففزع لِمَا رأى تحتها، وقال: ويحك ماهذا ؟ فقلت : لا علم لي به إلا أني وجدته على ماترى ، قالت:فكثر فزعه رضي الله عنه.

ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة والذهبي في تاريخه ، وأشار إليه في سير أعلام النبلاء وقال: لأبِي أمامة كرامة باهرة جزع هو منها [1] .

وإن مارأيناه في هذا الخبر شيء عجيب ، فَلأَنْ يتصدق المسلم بمازاد

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٧٣٤ ، تاريخ الإسلام ٣/ ٣١٥ ، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٢ .

عن حاجته فهذا ظاهر،وله أمثلة كثيرة من عمل الصالحين،لكن أن يتصدق بثمن قوته الضروري فإن هذا نادر المثال، وإنما يدل على إيمان قوي وثقة بالغة بما عند الله تعالى من الخير في الدنيا والآخرة ، فأما الجزاء الأخروي فأدلته ظاهرة معلومة،وأما الجزاء الدنيوي ففي مثل قول رسول الله ﷺ «مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينـزلان فيقول أحدهما:اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا»[1] وقد ضاعف الله تعالى لأبي أمامة الخلف بمائة ضعف ، حيث رُزِق بثلاثمائة دينار لايعرف مصدرها ، بدلا من الثلاثة التي تصدق بها .

والمشهد العجيب الثاني أنه فزع لما رأى تلك الدنانير ، وزاد فزعه يوم أن جهل مصدرها، في مقام يُتوقع فيه الفرح والسرور ، وماذاك إلا أنه وأمثاله ينظرون إلى الدنيا نظرة وجل وفزع خوفًا من الوقوع في شيء من فتنتها على حسب عرف السابقين بالخيرات ، وإن كان ذلك يُعدُّ أمرًا معتادًا عند غيرهم ، أما شدة فزعه حينما جهل مصدرها فهو مبني على شدة خشيته من الله تعالى أن يكون ذلك استدراجًا ، وأن يداخل نفسه شيء من الإعجاب بالعمل الصالح ، ولكن أنَّى يصدر ذلك ممن يحوِّلون مشاهد السرور والفرح إلى مشاهد الخوف والفزع !

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ١٤٤٢ ، الزكاة (٣/ ٣٠٤) ، صحيح مسلم ، الزكاة رقم ٥٧ .

من أخبار أبي مسلم الخولاني رحمه الله :

من الأخبار الواردة في ذلك ماذكره الحافظ أبو نعيم في ترجمة أبي مسلم الخولاني رحمه الله تعالى من حديث عثمان بن عطاء عن أبيه قال : كان أبو مسلم الخولاني إذا انصرف إلى منـزله من المسجد كبَّر على باب منـزله فتكبِّر امرأته ، فإذا كان في صحن داره كبر فتجيبه امرأته وإذا بلغ بيته كبر فتجيبه امرأته ، فانصرف ذات ليلة فكبَّر عند باب داره فلم يجبه أحد ، فلما كان في الصحن كبَّر فلم يجبه أحد ، فلما كان عند باب بيته كبر فلم يجبه أحد ،وكان إذا دخل بيته أخذَت امرأته رداءه ونعليه ، ثم أتته بطعامه ، قال: فدخل البيت فإذا البيت ليس فيه سراج ، وإذا امرأته جالسة في البيت منكِّسة تَنكُتُ بعودٍ معها ، فقال لها : مَالكِ ؟ قالت:أنت لك منـزلة من معاوية وليس لنا خادم ، فلو سألته فأخْدَمَنَا وأعطاك ، فقال : اللهم من أفسد عليَّ امرأتي فأَعْمِ بصرها .

قال : وقد جاءتها امرأة قبل ذلك فقالت لها : زوجك له منـزلة من معاوية ، فلو قلت له يسأل معاوية يُخدِمه ويعطيه عِشْتُمْ .

قال : فبينا تلك المرأة جالسة في بيتها إذ أنكرَتْ بصرها ، فقالت : مالسراجكم طَفِئَ ؟ قالوا: لا، فعرفَتْ ذنبها فأقبلَتْ إلى أبي مسلم تبكي وتسأله أن يدعو الله عز وجل لها أن يرد عليها بصرها .

قال : فرحمها أبو مسلم فدعا الله لها فردَّ عليها بصرها [1] .

أبو مسلم الخولاني هو عبد الله بن ثُوَب الخولاني اشتهر بكنيته ، كان مُجَاب الدعوة ، وأبرز مواقفه وقوفه أمام الأسود العنسي الذي ادَّعى النبوة ، فأوقد له العنسي نارًا وألقاه فيها فلم تَضرَّه ، وهذه من الكرامات المشهورة [2] .

وقد جاء في هذا الخبر أن أبا مسلم إذا انصرف إلى بيته كبَّر ، وهكذا يكون حضور القلب الصادق مع الله تعالى ، فإيذانه أهله بحضوره تكبيرٌ لله تعالى ، وكأنه يُشعرِ أهله ومن في بيته بأن الله تعالى أكبر من كل شيء فلا يليق بالمسلم أن يَشْغَله عن الله تعالى شيء ، وما الذكر اللساني إلا تنبيه للقلب ليكون معمورا بذكر الله جل وعلا واستشعار عظمته وجلاله ، وما وصل السابقون بالخيرات إلى ماوصلوا إليه إلا بمحاولة استدامة حضور القلب مع الله تعالى .

وكان أبو مسلم يعيش عيشة الزهد والقناعة وكان قد ربَّى امرأته على هذه العيشة ، فلا خادم عنده ولايهتم بشيء من كماليات الحياة التي قد يصرفه الاشتغال بها عما هو أجل وأعلى وهو استدامة ذكر الله عز

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٢٩ .

(٢) وقد ذكر خبره هذا في كتاب « صور من حياة السلف الصالح » للمؤلف .

وجل والاجتهاد في عبادته .

لقد كان زاهدا في الدنيا مع مقدرته على اكتسابها والتوسع فيها وظلت امرأته معه في تلك الحياة سامعة له مطيعة إلى أن أنكر منها ذلك التصرف الذي طلبت فيه التوسع في المعيشة وتوفير الخادم لها مادام له حَظْوة عند أمير المؤمنين .

لقد أدرك أبو مسلم حالاً أن امرأةً من ذوات الكيد والإفساد قد دخلت بيته فأفسدت عليه أهله، حيث حوَّلَتْ قناعتها ورضاها بذلك العيش المتواضع إلى سخط وتضجر ومطالبة برفع مستوى المعيشة حين تبين لها أن زوجها قادر على ذلك .

ولم يكن عند أبي مسلم سلاح يلجأ إليه إلا دعاء الله تعالى على من ظلمه وغيَّر عليه أهله ، فدعا على المرأة التي فعلت ذلك بالعَمَى ، فقد أفسدَتْ عليه بيته ، ولعلها أن تفسد بيوت آخرين من أصحابه الزهاد ، فيكون بذلك قد كفَّ شرها وشر غيرها ممن يبلغه خبرُها فيعتبر بها ويكفُّ عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات .

وأصابت دعوته تلك المرأة ففقدت بصرها فجأة وأدركت سوء فعلها، كما تذكرت في الحال صلاح أبي مسلم فتبادر إلى ذهنها أنه قد دعا عليها ،ومع إساءتها إليه فإنه قد رحمها فدعا الله أن يرد عليها بصرها

فاستجاب الله دعاءه .

وهكذا كانت هذه العقوبة التي نالتها تلك المرأة تذكيرًا لها وعبرة لغيرها ممن يسيرون على ذلك الطريق .

من أخبار إبراهيم بن أدهم رحمه الله :

في بيان حقيقة الزهد يقول الحافظ ابن كثير في ترجمة إبراهيم بن أدهم الزاهد المشهور: وقال له رجل : هذه جبة أحب أن تقبلها مني ، فقال : إن كنت غنيا قبلتها ، وإن كنت فقيرًا لم أقبلها ، قال : أنا غني ، قال: كم عندك ؟ قال : ألفان ، قال : تود أن تكون أربعة آلاف ؟ قال: نعم ، قال : فأنت فقير ، لا أقبلها منك [1] .

وهذا تعليم جيد من إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى لذلك الرجل، حيث يبين له أن الغِنَى الحقيقي هو غنى القلب ، وليس غنى الجيب ، وقد جعل مقياس معرفة الغِنَى الحقيقي بالقناعة ، وذلك بأن لا يكون لدى الإنسان رغبة في تضاعف المال عنده ، لأنه – والحال هذه – يكون قد سخَّر نفسه لماله ، فأما حين يرغب في جمع المال لا لذاته وإنما لينفقه في وجوه الخير،فإنه يكون قد سخَّر ماله،وهذا هو الغنى الحقيقي.

ومن أخباره في الزهد والتوكل على الله تعالى ماذكره الحافظ ابن كثير قال: وقال حذيفة المرعشي : أويت أنا وإبراهيم – يعني ابن أدهم –

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٤١ .

إلى مسجد خراب بالكوفة ، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئا ، فقال لي : كأنك جائع ، قلت : نعم ، فأخذ رقعة فكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود إليه بكل حال المشار إليه بكل معنى .

أنا حامـد أنـــا ذاكر أنـا شاكر أنـــا جائع أنا حاسر أنا عاري

هي ستة وأنـا الضمين لنصفها فكن الضمين لنصفها ياباري

مدحي لغيرك وَهْجُ نارٍ خضتُها فـأَجِرْ عُبَيْدك من دخول النار

ثم قال لي : اخرج بهذه الرقعة ولاتعلِّق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى ، وادفع هذه الرقعة لأول رجل تلقاه ، فخرجت فإذا رجل على بغلة فدفعتها إليه ، فلما قرأها بكى ودفع إلي ستمائة دينار وانصرف ، فسألت رجلاً : مَنْ هذا الذي على البغلة؟فقالوا :هو رجل نصراني ، فجئت إبراهيم فأخبرته فقال : الآن يجيء فيسلم ، فما كان غير قريب حتى جاء فأكبَّ على رأس إبراهيم وأسلم [1] .

ففي هذا الخبر مثل بليغ في التوكل على الله تعالى واستحضار عظمته في القلب،وإذا تجرد قلب المسلم لله جل وعلا فذكره وحده وعظمه وحده ، وأنزل به حاجته وحده فإنه سبحانه يسخِّر قلوب العباد لعبده المؤمن الموحد ، فيفرجُ له من الكربات وييسر له من الأمور مالا يخطر

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٤٣ .

على باله .

فتلك الرقعة المشتملة على كلمات هي من كمال التوحيد سخَّر الله تعالى بها قلب ذلك الرجل النصراني ، فدفع ذلك المبلغ الكبير ، ثم كان لها الأثر البالغ على نفسه حيث دخل قلبه الإسلام .

ولقد كانت فراسة ذلك العالم الربانيِّ إبراهيم بن أدهم قوية ، حيث توقع مجئ ذلك النصراني ليسلم ، فكان كما توقع ، وذلك لأن الذي يتأثر إلى حد البكاء وبذل ذلك المبلغ الكبير يغلب على الظن أن عقله السليم يقوده إلى هذا الدين الذي خرَّج رجالا موحدين مثل ابن أدهم .

من أخبار محمد بن واسع رحمه الله :

من العلماء الربانيين المشهورين بالزهد والورع والخشوع الإمام الصالح العابد محمد بن واسع الأزدي :وسأبدأ بذكر شيء من أقواله النَّيِّرة في الزهد والورع واليقين ، فمن ذلك قوله « إني لأغبط رجلا معه دينه وما معه من الدنيا شيء وهو راض »[1] .

وإذا كان هذا الإمام يغبط أهل الدين المجردين من الدنيا فما أكثر من يغبطون أصحاب الأموال، وما أبعد الفرق بين السابقين بالخيرات والمقصِّرين !

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ .

ومن مواقف محمد بن واسع في الزهد في الدنيا ما ذكره المؤرخ العلامة محمد بن جرير الطبري من خبر أبي محمد الثقفي قال : أصاب يزيد بن المهلب تاجًا بجرجان فيه جوهر، فقال: أترون أحدًا يزهد في هذا التاج ؟ قالوا : لا ، فدعا محمد بن واسع الأزدي فقال : خذ هذا التاج فهو لك ، قال: لا حاجة لي فيه ، قال : عزمت عليك ، فأخذه ، وخرج فأمر يزيد رجلا ينظر ما يصنع به، فلقي سائلاً فدفعه إليه ، فأخذ الرجل السائل فأتى به يزيد وأخبره الخبر، فأخذ يزيد التاج وعوض السائل مالاً كثيرًا [1] .

ففي هذا الخبر جرى اختبار من رجل من أهل الدنيا لرجل من أهل الآخرة، وقد نجح رجل الآخرة محمد بن واسع الأزدي في ذلك الاختبار ، لقد كان محمد بن واسع – حينما عُرض عليه ذلك التاج – يوازن بين جواهر الدنيا وجواهر الآخرة ، فزهد في جواهر الدنيا من أجل أن يظفر بجواهر الآخرة ، والذين فُتنوا بجواهر الدنيا ومظاهرها لم يبلغ إيمانهم بالآخرة درجة علم اليقين، ففضلوا عليها الدنيا التي بلغ نعيمها عندهم عين اليقين ، ولكن محمد بن واسع وأمثاله من أهل الآخرة قد بلغ إيمانهم بنعيم الآخرة علم اليقين ، فتضخمت الآخرة –

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٩ .

كثيرًا – في أعينهم ، وتضاءلت الدنيا – كثيرًا – عندهم .

ولقد كان القائد يزيد بن المهلب يعلم من هو محمد بن واسع في قوة إيمانه ورسوخ يقينه، وكان واثقًا من أنه سيرفض قبول ذلك التاج ، ولكنه أراد أن يُري الناس من أهل الدنيا نموذجًا من أهل الآخرة ، وتحقق اعتقاده في محمد بن واسع ، وخلَّد للأمة الإسلامية مثلاً رائعًا في الزهد في الدنيا و التجرد للآخرة .

من مواقف وكيع بن الجراح الرؤاسي رحمه الله :

كان وكيع مشهورًا بكثرة الصلاة والصوم ، حتى وصلت شهرته بالعبادة إلى الحجاز وهو في العراق ، وجرى له مع الفضيل بن عياض خبر في بدايته طرافة وفي نهايته حكمة ، يقول سعيد بن منصور : قدم وكيع مكة وكان سمينا فقال له الفضيل بن عياض : ماهذا السِّمَن وأنت راهب العراق ؟ قال : مِنْ فَرَحِي بالإسلام ، فأفحمه [1] .

فهذا جواب حكيم وسديد ، وذلك لأن الإنسان إذا غمره الفرح غمرته السعادة ، وإذا كان سعيدًا في حياته لم يتعرض للأمراض المنهكة التي تضعف الجسم ، وليس هناك من الفرح عند وكيع أعظم من نعمة الهداية إلى الإسلام ، ولما كان فرحه بهذه الهداية عظيما فإن ذلك قد أنساه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٥٦ .

كل هموم الدنيا ومشكلاتها فلم تَعُدْ تلك الهموم والمشكلات تؤثر على جسمه .

وهذا الجواب النيِّر من الإمام وكيع رحمه الله تعالى يصوِّر مشاعر المسلمين الصادقين الذين تغمرهم الفرحة الكبرى كلما تذكروا تحلِّيهم بنعمة الهداية إلى هذا الدين العظيم .

وكما ذكر وكيع من أن تلبُّسه بالصحة بسب فرحه بالإسلام فإن مايتمتع به المسلمون الذين يعتزون بإسلامهم من حياة الطمأنينة والصبر الجميل على الأذى والبراءة من الأمراض النفسية .. إن ذلك راجع إلى شعورهم بالسعادة الكبرى لإيمانهم بالإسلام وركونهم في كل الملمات إلى قدرة خالق الكون جل وعلا .

وهذا الذي ذكره وكيع يُعدُّ تعبيرًا عن أهم أسباب السعادة الروحية الجالبة لصحة البدن، ولايعني ذلك اطِّرادَ هذا الأمر في كل المسلمين الصادقين ، فقد يصيب الله تعالى العبد بالأمراض ليمحو بها خطاياه وليتقوَّى إيمانه بالرجوع إليه تعالى ولغير ذلك من الحكم الجليلة ، ولكن العبد المؤمن قد يُمرض جسمه ولكن لاتُمرض نفسه لإيمانه بقضاء الله تعالى وقدره .

من أخبار أبي عبد الله السَّعدي الصالحي رحمه الله :

من ذلك ما ذُكِر عن المحدث القدوة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم السعدي الصالحي ، فقد حُكِي عنه أنه كان يحضر مكانًا في جبل الصالحية لبعض شأنه فوجد جرَّة مملوءة دنانير ، وكانت زوجته معه تعينه على الحفر ، فاسترجع وطمَّ المكان كما كان أوَّلاً ، وقال لزوجته: هذه فتنة ، ولعل لها مستحقِّين لانعرفهم ، وعاهدها على أنها لا تُشعر بذلك أحدًا ولا تتعرض إليه ، وكانت صالحة مثله ، فتركا ذلك تورُّعًا مع فقرهما وحاجتهما .

قال اليونيني الذي روى هذه الحكاية : وهذا غاية الورع والزهد رحمهما الله تعالى [1] .

وهكذا ترك هذا العالم الجليل وزوجته ذلك المال مع حاجتهما الشديدة إليه لتذكُّره احتمال أن يكون هناك مستحقون لذلك الكنز ، وهذا دليل على اتصافهما بالزهد في الدنيا والتورع عن الشبهات ، فما أعظم هذه النفوس التي ترتفع عن شهواتها مع شدة الحاجة من أجل بلوغ الهدف الأعلى للمؤمن في هذه الحياة ، وهو أن يحصل على رضوان الله تعالى والنعيم المقيم في الآخرة !!

---

(١) طبقات الحنابلة ٤/ ٣٢١ ، توفي عام ٦٨٨هـ .

محاضرات المساجد

لقد دُعيت مرات عديدة على مدى سنوات لإلقاء محاضرات عامة في المساجد في عدد من مدن المملكة العربية السعودية ، وذلك في موضوعات من أهمها الدعوة والأخلاق والتاريخ الإسلامي .

وسأذكر مختارات موجزة من بعض هذه المحاضرات :

مواقف في معركة اليمامة

سأكتفي بذكر موقفين من المواقف العالية التي جرت في هذه المعركة :

فالموقف الأول : أن خالد بن الوليد لما خدعه مجَّاعة بن مرارة الحنفي فأوهمه أن في الحصون رجالاً يحملون السلاح، فتبين له أن الحصون ليس فيها إلا النساء والضَّعَفة فقال له خالد : خدعتني ، فقال: قومي ولم استطع إلا ما صنعت لم يغيِّر خالد ما اتفق عليه من الصلح معه، وهذا موقف كبير في الوفاء بالعهد ، وقد كان مجاعة يدرك أن المسلمين لا يخلفون العهد ؛ فأقدم على تلك الخدعة ، ولم يدُرْ في خَلَده أن خالدًا يمكن أن ينتقم منه ومن قومه في مقابل تلك الخدعة، وقد سار قادة المسلمين في ذلك الزمن على هذا المنهج فكان ذلك من أكبر وسائل الدعوة للدخول في الإسلام.

إن جميع الأعراف الاجتماعية التي لا تلتزم بهدي الرسالات السماوية لا تُقرُّ المخادعة وإن جرى بعدها عهد أو صلح ، لأن الطرف المخادع قد أخفى الحقيقة عن الطرف الآخر إلا العرف الإسلامي ، وذلك لكون مبدأ الوفاء بالعهد والصلح مقدسًا في الإسلام ، فقادة المسلمين ملزمون بالوفاء وإن عاملهم الطرف الآخر بالمخادعة ، ولعل ما جرى من خالد من إتمام الصلح مع مخادعة «مجَّاعة» إياه هو السبب في دخول بني حنيفة في الإسلام بعد هذه المعركة .

والموقف الثاني : ما جرى من بطل الإسلام البراء بن مالك الأنصاري رضي الله عنه ، فإن الأعداء لما أغلقوا على أنفسهم باب الحديقة طلب البراء من المسلمين أن يحملوه وأن يلقوه عليهم في الحديقة، فحملوه فوق الحُجُف - وهي التروس - ودفعوها بالرماح حتى ألقوه على الأعداء من فوق السور ، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه.

إن المتأمل لهذا الموقف العظيم يتملكه العجب ويندهش من إقدام هذا البطل الكبير على تنفيذ هذه الخطة الفدائية ، فإن أي فرد يلقي بنفسه في وسط الأعداء سيتصور الموت قتلاً بأبشع أنواع القتل ، فهل كان البراء ابن مالك يتصور ذلك وهو يلقي بنفسه ؟ نعم كان يتوقع ذلك ولكنه من قوم تهون أنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وقد أقدم على هذا الأمر

الهائل ابتغاء الظفر بالأعداء وفَتْحِ الباب للمسلمين ، فإن تم له ذلك وإلا فإن هذا موطن من المواطن التي تُطلب فيها الشهادة .

فلنَدَعْ هذا التصور ، ولنتأمل في نتيجة هذا الموقف ، كيف استطاع وحده أن يُجْلي الأعداء وأن يفتح الباب ؟ وكيف سلم من سلاح الكفار؟ لاشك عندي في أن هذه كرامة من كرامات الله تعالى لأوليائه المؤمنين لأن سلامته وقد أحاط به الأعداء على هذه الصورة من الأمور الخارقة للعادة ، وقد ثبت أن الملائكة عليهم السلام يقاتلون مع المؤمنين كما في معركة «بدر» ،فلعل الملائكة كانوا معه في هذه المعمعة إما بالقتال والحماية أو بالحماية فقط حتى أنجز هذه المهمة الخطيرة .

لقد أطلَّ على الأعداء شبح مخيف ، ربما ظنوا أنه من عالم آخر، إذ يبعد أن يصل البشر العاديون إلى هذه الشجاعة الفائقة والمقدرة الخارقة، فلذلك فسحوا له المجال لذهولهم من نزوله المفاجيء ، وكان بإمكانهم أن ينتظموه وهو في الهواء برماحهم ، فلما هبط إلى الأرض قاتلهم حتى أجلاهم عن الباب ، ويبدو أنهم قد أصيبوا منه برعب عظيم ، مما جعل مقاومتهم إياه ضعيفة ، واستطاع أن يتغلب عليهم في النهاية وأن يفتح الباب بمشهد منهم.

وهكذا فُتح الباب فاندفعت جحافل الحق الهادرة لتقضي على

جحافل الباطل المبهوتة ، وكان البراء بن مالك من أسباب تمكين المسلمين من أعدائهم ، وقد تأسى به بعض جنود الحق لما لم يتسع لهم الباب فَعَلَوا على الأسوار وهبطوا على أعدائهم كالصواعق المحرقة[1] .

(١) تُنظر أحداث هذه المعركة كاملة في كتاب «الخلفاء الراشدون» للمؤلف / ٥٧-٦٨ .

مواقف في معركة القادسية

سأكتفي بذكر نماذج من الحوارات التي جرت بين قادة الفرس ووفود المسلمين ، فمن هذه الحوارات :

حوار رستم مع زهرة :

كان أول من حاور رستم زهرة بن الحُوَيَّة التميمي وكان قائد مقدمة المسلمين، يقول الإمام الطبري :

فلما وقف [يعني رستم] على القنطرة راسل زهرة ، فخرج إليه حتى واقفه ، فأراده أن يصالحهم ويجعل لهم جُعْلاً على أن ينصرفوا عنه ، وجعل يقول فيما يقول : أنتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا ، فكنا نحسن جوارهم ، ونكف الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة .

فقال لـه زهرة : صدقت ، قد كان ماتذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ولاطَلِبَتنا ، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طَلِبتنا وهمتنا الآخرة ، كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولاً فدعانا إلى ربه فأجبناه، فقال لنبيه ﷺ، إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يَدِنْ بديني فأنا منتقم بهم منهم ، وأجْعلُ لهم الغلبة ماداموا مُقرِّين به، وهو دين الحق لايرغب عنه أحد إلا ذل ، ولايعتصم به أحد إلا عز .

فقال له رستم : وماهو ؟ قال : أما عموده الذي لايصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله والإقرار بماجاء من عند الله تعالى ، قال : ما أحسن هذا ! وأي شيء أيضًا ؟ قال :وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى ، قال :حسن ،وأي شيء أيضًا؟ قال :والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم ، قال : ما أحسن هذا!

ثم قال له رستم : أرأيت لو أنْ رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعي قومي كيف يكون أمركم ؟ أترجعون ؟ قال : إي والله ثم لانقرب بلادكم أبدًا إلا في تجارة أو حاجة ، قال : صدقتني والله ، أَمَا إن أهل فارس منذ وَلِي أردشير لم يَدَعُوا أحدًا يخرج من عمله من السّفلة ، كانوا يقولون : إذا خرجوا من أعمالهم تعدَّوا طورهم ، وعادَوا أشرافهم، فقال لـه زهرة : نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون، نطيع الله في السفلة ولايضرنا من عصى الله فينا .

فانصرف عنه ، ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فحَمُوا من ذلك وأنفوا ، فقال : أبعدكم الله وأسحقكم ، أخزى الله أخرعنا وأجبننا .

يقول الرُّفَيل راوي هذا الخبر وهو رجل فارسي : فلما انصرف رستم مِلْتُ إلى زهرة فكان إسلامي ، وكنت له عديدًا وفرض لي فرائض

أهل القادسية [1] .

وهكذا رأينا في هذه المحاورة المثيرة كيف علا نجم المسلمين وأفل نجم المجوس ، وساد منطق العدالة والعقل السليم والتواضع والقيم العليا، وخفَتَ منطق الجور والعقل المريض والكبرياء والقيم الهابطة .

ولقد كان رستم مُهيَّأً نفسيا لقبول نداء العقل السليم والسمو نحو القيم العليا، فلما سمع كلام زهرة بن الحوية المُشرق وقر في نفسه حب الإسلام الذي سيحفظ لـه كرامته وكرامة أمته، والذي سيسمو بعقول المستضعفين وهم أغلبية الأمة فيحيلهم إلى عناصر فعالة مؤثرة وسيهذِّب من نفوس عِلْيَة القوم فينـزلهم من علياء الجبروت والطغيان ليكونوا في مستوى بشريتهم ، وهنا يكون البروز لأصحاب المواهب العالية الذين ستضع بهم أمتهم ثقتها وستسند إليهم أمورها .

لقد بين زُهرة لرستم أن أهداف العرب قد تغيرت بعد الإسلام ، فيجب أن ينظر إليهم العالم على أنهم مسلمون لا على أنهم العرب الذين كانوا يعاملونهم قبل ذلك ، وقد لخص الدوافع إلى تغيير الأهداف والمناهج ببيان أن مقصد العرب قبل الإسلام الحصول على الدنيا وأن مقصدهم بعد الإسلام الظفر بنعيم الآخرة ، وحَسْبهم هذا التحول

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٧ – ٥١٨ .

الكبير في مقاصدهم لتتحول حياتهم بأكملها من حياة الخنوع والذل والتفرق والأهداف القريبة والتخلق بمساويء الأخلاق إلى حياة العز والجماعة والأهداف السامية والتخلق بمكارم الأخلاق .

وكان زهرة في غاية البراعة والتوفيق حينما ذكر لرستم أن الله تعالى قد سلط المؤمنين بهذا الدين على من كفر به ، وأن العِزَّ قرين من آمن به وأن الذل قرين من كفر به ، فقد رسخ في نفس رستم أن من سيقاتلهم ليسوا كمن اعتاد مقابلتهم بل هم مُوجَّهون من قِبَل الله تعالى ، ومن كانت هذه صفتهم فلا قِبَلَ لأحد بقتالهم .

لقد فهم رستم هذه المعاني السامية ، وأدرك أن المسلمين لاطمع عندهم في الاستيلاء على بلادهم لمنافع شخصية ، وإنما همُّهم الوحيد أن يحولوها إلى بلاد إسلامية ، ثم تبقى بعد ذلك بيد أهلها ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولقد أثر هذا المنطق العادل في نفس رستم، وهمَّ بالدخول في الإسلام وإدخال أمته فيه لولا أن حال دون ذلك إجماع مستشاريه على عداء الإسلام وقتال المسلمين،ويبدو أنهم قد اتهموه بالجبن حيث قال لهم:أخزى الله أخرعنا وأجبننا .

وقد استفاد من هذه المحاورة راوي هذه القصة الرُّفيل حيث دخل في الإسلام وكان له دور مهم في نقل أخبار الفرس والتعريف بأحوالهم.

حوار رستم مع رِبْعي بن عامر :

ذكر ابن جرير خبر خروج ربعي وقدومه على رستم وأن الفرس قابلوه بمظاهرهم الدنيوية من فرش الحرير والوسائد المنسوجة بالذهب، وأنه قابلهم بمظهره المتواضع في لباسه وسلاحه ودابَّته وماقام به من شق وسادتين لهم وربط فرسه بهما ، إلى أن قال: « فقالوا : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم فأضعُ سلاحي بأمركم ،أنتم دعوتموني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت ، فأخبروا رستم ، فقال : ائذنوا له هل هو إلا رجل واحد ! فأقبل يتوكأ على رمحه يقارب الخطو ويزجُّ النمارق والبُسُط، فما ترك لهم نمرقة ولابساطا إلا أفسده وتركه متهتكا مخرقا» .

أقول : وإن في هذا السلوك العالي مثلاً بديعًا لاحتقار مظاهر الجاهلية وإظهار عزة الإسلام، وذلك بالقول والعمل ، فقد رفض أوَّلاً أن ينصاع لمطلبهم في وضع السلاح ، فما دام أنه لم يقتنع ذاتيًّا بهذا المطلب فإن إظهار الشخصية يقتضي عدم الخضوع لإرادتهم ، ثم لما رأى أنهم يتباهون بفرشهم ووسائدهم أراد إهانتهم بإفسادها ليبيِّن لهم أن هذه المظاهر الخلاَّبة لم تؤثِّر في نفسه ، وأنها ليست من الأمور التي يهتم بها المسلمون أو يقيمون وزنا لأصحابها، فلله دره ما أعظم مُرامَه وما أسدَّ سهامه ! لقد رماهم في أعظم شيء يعتزون به وهو ما يملكونه من مظاهر

الدنيا فحطم معنوياتهم قبل أن يبدأ معهم الحوار .

قال : « فلما دنا من رستم تعلق به الحرس ، وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فقالوا : ماحملك على هذا ؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه ، فكلَّمه فقال : ماجاءبكم ؟ قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نُفْضِيَ إلى موعود الله ، قال وماموعود الله؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي .

فقال رستم : قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال : نعم كم أَحَبُّ إليكم ؟ أيومًا أو يومين؟ قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا ، - وأراد مقاربته ومدافعته- فقال : إن مما سنَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل به أئمتنا أن لانُمكِّن الأعداء من آذاننا ولانؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثا ، فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل ، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجِزاء فَنَقْبَلُ ونكفُّ عنك ، وإن كنت عن نصرنا غنيا تركناك منه ، وإن كنت

إليه محتاجًا منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، أنا كفيل لك بذلك عن أصحابي وعلى جميع من ترى ، قال: أسيِّدهم أنت ؟ قال :لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم » .

هذا وبعد الاطلاع على هذا البيان الواضح يدرك المتأمل مبلغ ماوصل إليه المسلمون الأوائل من النجاح الباهر في التفاوض مع الأعداء وأن سرَّ نجاحهم يكمُن في أمرين : أولهما حسن اختيار الوفود، وثانيهما أن أمور الجهاد قد بينها النبي صلى الله عليه وسلم وطبقها في عهده وطبقها خلفاؤه حتى أصبحت من المعلومات الواضحة عندهم ، وإنما يتفاوتون في المقدرة على التعبير عنها والنكاية بالأعداء في الحرب النفسية .

قال :«فخلص رستم برؤساء أهل فارس فقال: ماترون هل رأيتم كلامًا قط أوضح ولا أعزَّ من كلام هذا الرجل ؟ قالوا: معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه! فقال: ويحكم لاتنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة ، إن العرب تَستَخِفُّ باللباس والمأكل ويصونون الأحساب ، ليسوا مثلكم في اللباس ولايرون فيه ماترون » .

وهذا الكلام دليل على تفوق رستم على بني قومه في العقل والإدراك ولو كان معه من يؤيده لربَّما دخل في الإسلام ، فقد كان معجبا بأخلاق المسلمين ، وإطلاقُ العرب عليهم نظرًا لأن المسلمين آنذاك كانوا كلُّهم من العرب إلا القليلَ النادر .

حوار رستم مع المغيرة بن شعبة :

ذكر ابن جرير الطبري في روايته أن المغيرة سار إلى الفرس وصار يمشي على بُسطهم حتى وصل إلى رستم وجلس معه على سريره ووسادته، فوثبوا عليه فتروه وأنزلوه ومغثوه[1] فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء، لايستعبد بعضنا بعضًا إلا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تُواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أربابُ بعض ، وإن هذا الأمر لايستقيم فيكم ، فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتموني ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وإن مُلكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

فقالت السَّفلة:صدق والله العربي ، وقالت الدهاقين : والله لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينـزعون إليه ،قاتل الله أوَّلِينا ماكان أحمقهم

(١) يعني ضربوه ضربًا خفيفًا .

حين كانوا يصغِّرون أمر هذه الأمة.

وهكذا استطاع هذا العبقري الملهم أن يرمي دولتهم بقنبلة بعيدة الأثر في مجتمعهم حيث فرقت جمعهم ، ونبَّهت العامة المستضعفين إلى حقوقهم المسلوبة ، فرأوا في كلام المغيرة مايعبر عن شعورهم الدفين الذي أماته الطغيان والجبروت ،فنطقوا بما يعبر عن استيائهم من أوضاعهم السيئة حيث قالوا : صدق والله العربي ، وكأنهم كانوا في سُبات عميق وهم يسبِّحون بحمد آلهتهم من البشر من غير أن يشعروا بأنهم كان مستعبدين لهم حتى طرق أسماعَهم كلامُ المغيرة بن شعبة وهو يُصَنِّف مجتمعهم الذي رآه إلى آلهة معبودين وعبيد مُستعبدين .

وشعر كبراؤهم بخطر هذا الكلام فلم يستطيعوا كتمان مشاعرهم بل صرحوا بما سيكون لهذا الكلام من أثر في استقلالية عبيدهم وشعورهم بإنسانيتهم وكرامتهم فقالوا:والله لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينـزعون إليه .

ولقد توصل المغيرة بهذا إلى نتيجة مهمة وهي تفاؤله بأن دولتهم ستضمحل لأن المُلك لايمكن أن يستمر على الظلم والطغيان .

لقد بين لهم بلسان الحال أن أهم علامات قابلية الدولة للاستمرار أن لايكون هدف الأمة هو تعظيم أمرائهم ورؤسائهم ، والتفنن في

مظاهر الأبهة من الملابس والفرش والمراكب والقصور ، وتشكيل المجتمع إلى طبقات يخدم بعضها بعضا ويتذلل بعضها لبعض ، بحيث تكون الطبقة العليا معبودة من مختلف الطبقات،ومن هم دون ذلك عابدون لمن هم فوقهم ، معبودون ممن هم دونهم ، لأن دولةً هذه أوصافها تحمل أسباب فنائها من داخلها ، وهي وإن عُمِّرت مدة من الزمن لايمكن أن يُكتب لها الاستمرار ، لأنه لابد أن يأتي الوقت الذي يتنبه فيه العامة المستَعْبَدُون ، ويدركوا أنهم يعبدون بشرًا مثلهم، ليس لهم من المؤهلات إلا أنهم اتفقوا على الظلم والطغيان .

بل إن أهم علامات قابلية الدولة للبقاء والاستمرار أن يكون هناك شعور مشترك من الحاكمين والمحكومين بأنهم جميعًا يخدمون مبدأًساميًا ، يعيشون جميعًا من أجله،ويتفانون جميعًا في خدمته ، ومن كان أشدَّ بلاءً وأعظم تفانيًا في خدمة هذا المبدإ كان أولى بالتقديم والرفعة .

وإن المبدأ السامي الذي كان الصحابة ﷺ يعيشون له، ويتنافسون في خدمته هو الإسلام ، ومن أجل سلامتهم من عبادة البشر، وكونهم جميعًا حاكمين ومحكومين يعبدون رب البشر ، ومن أجل خدمتهم لدين الله عز وجل ، الذي أنزله لتنظيم حيا ة البشر،نصرهم الله تعالى على ممالك ضخمةٍ لم يكونوا في يوم من الأيام يحلمون بحيازة رقعة صغيرة من أراضيها .

وإنه مهما اتفق المفكرون على مبادئ من صنع البشر ومهما حاولوا إتقانها وعظموها ، وجعلوها وسيلة لإخضاع عامة الناس ، فإن هذه المبادئ لم تخرج من عبودية البشر للبشر،لأنها من صنع البشر أنفسهم .

ولأجل فهم المسلمين الأوائل لعوامل انهيار الأمم وعوامل قيامها حكم المغيرة بن شعبة على دولة الفرس بالفناء، لَمَّا عرف المبدأ الذي يتنافس فيه عامتهم ، وهو خدمة كبرائهم ، وتعظيمُهم والخضوع لهم، لأنه من السهولة بمكان أن يتنبه العامة ، وأن يقولوا: لسنا عبيدًا للبشر، ولكن مما يشبه المستحيل أن يقول العامة في دولة الإسلام: لسنا عبيدًا لرب البشر ، لأن العبودية لرب البشر جل جلاله هي منتهى العز والكرامة ، وغاية الفخر والجلال .

ولقد تنبه عقلاء الفرس إلى هذا الخطأ الكبير الذي بنوا عليه سياستهم ،كما سبق في محاورة رستم مع زهرة بن الحوية حيث قال رستم: صدقتني والله ، أما إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يَدَعوا أحدا يخرج من عمله من السَّفلة ، كانوا يقولون: إذا خرجوا من أعمالهم تعدَّوا طورهم وعادَوا أشرافهم .

مواقف في فتح تستر

سأكتفي بذكر مجيء وفد المسلمين إلى أمير المؤمنين عمر ومعهم الهرمزان ملك الأهواز :

أوفد أبو سَبرة بن أبي رُهم قائدُ المسلمين في تلك المعارك وفدًا إلى أمير المؤمنين عمر ﷺ ، وأرسل معهم الهرمزان، حتى إذا دخلوا المدينة هيأوا الهرمزان في هيئته ، فألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب ، ووضعوا على رأسه تاجًا يُدعَى الآذين مكَلَّلاً بالياقوت وعليه حليته ، كيما يراه عمر والمسلمون في هيئته ، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منـزله فلم يجدوه ، فسألوا عنه فقيل لهم : جلس في المسجد لوَفْد قدموا عليه من الكوفة ، فانطلقوا يطلبونه في المسجد، فلم يروه ، فلما انصرفوا مَرُّوا بغلمان من أهل المدينة يلعبون، فقالوا لهم: ماتلدُّدكم ؟ [يعني لماذا تلتفتون يمينًا وشمالا] ؟ أتريدون أمير المؤمنين؟ فإنه نائم في ميمنة المسجد ، متوسدًا برنسه – وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه نزع برنسه ثم توسده فنام – فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا رأوه جلسوا دونه وليس في المسجد نائم ولايقظان غيره ، والدِّرة في يده معلقة [يعني العصا الصغيرة] .

فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هُوَ ذَا ، وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه ، وأصغى الهرمزان إلى الوفد فقال: أين حرسه وحُجَّابه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان، قال: فينبغي له أن يكون نبيا ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء ، وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسًا ثم نظر إلى الهرمزان، فقال: الهرمزان ؟ قالوا : نعم ، فتأمله وتأمل ماعليه وقال : أعوذ بالله من النار، وأستعين الله، وقال : الحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه، يامعشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين، و اهتدوا بهدي نبيكم ﷺ ، ولاتُبطرنكم الدنيا فإنها غرارة .

فقال الوفد : هذا ملك الأهواز فكلِّمه ، فقال: لا ، حتى لايبقى عليه من حليته شيء فرُمي عنه بكل شيء عليه إلا شيئًا يستره، وألبسوه ثوبا صفيقا ، فقال عمر : هيه ياهرمزان ! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟ فقال : ياعمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلَّى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولامعكم ، فلما كان معكم غلبتمونا [1] .

وإننا لنخلص من هذا الخبر بمواقف عظيمة نلاحظ منها تواضع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حيث نام وحده في المسجد بلا فراش وهو أمير

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٨٥ – ٨٨ .

المؤمنين وحاكمُ أعظم دولة في العالم آنذاك ، وإن هذا دليل على منتهى التواضع والتجرد من حظ النفس .

إن تصور هذا المشهد لَيوحِي لنا بتفوق أخلاقي لانظير له إلا في حياة الأنبياء عليهم السلام والصديقين ، فما الذي حمله على كبح جماح نفسه نحو الترفع والعلو وهو يملك جميع مقومات ذلك؟

وما الذي حمله على حياة الزهد حتى أصبح يقوى على النوم على الأرض وهو يملك استخدام الفرش الوثيرة والأثاث الفاخر ؟

وما الذي حمله على أن يرضى لنفسه أن ينام في المسجد وهو الذي يملك بناء أفخم القصور ، واختيار أبعد الأماكن عن الجلبة والضجيج ؟

إنه الإيمان الراسخ واليقين القوي بأن ماعند الله خير من الدنيا ومافيها، وأن حياة الزهد والتواضع هي التي تقرِّب من رضوان الله تعالى،وهو الهدف الإسلامي الواضح الذي أثنى الله به جل وعلا على أولئك الصحب الكرام﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح: ٢٩] .

ثم ما الذي أعطاه الأمان والسلامة حتى ينام وحده في المسجد وهو الذي دوَّخ أمم الأرض وانتزع ملكهم ، ومرَّغ سمعتهم في التراب، وأذلَّ المنافقين ، وحملهم على منتهى التستر والاختفاء ، وأخذ الحق من الظالمين، وأوطأهم على الاستقامة حتى أصبح لايطمع قويّ في باطل،

ولايهاب محقّ من نيل حقه غير متعتع ولامستضعف؟

إن الذي أعطاه الأمان والطمأنينة هو إيمانه الكامل بقضاء الله وقدره، ثم عدلُه الذي أصبح مضرب الأمثال على مدار التاريخ،وإن كون العدل في الحكم محطُّ الأمان والسلامة أمر متفق عليه بين العقلاء، ولذلك قال الهرمزان لما رأى عمر نائما في المسجد:عدَلْتَ فأمنتَ فنمتَ، وذلك أن الحاكم العادل لايخشى من أمته أن يخونوه ، لأن جميع الذين ينشدون العدل من رعيته يصبحون حراسا أوفياء له ، وكذلك الذين تُستخلص حقوقهم على يديه فإنهم قد يُفنون أنفسهم من أجله، ويفدونه بكل ما يملكون ، أما الذين يُلزمهم بالحق من أصحاب الهوى والجنوح نحو الظلم فإن الله سبحانه يُنـزل في قلوبهم مهابة من يحملهم على الحق والرهبة منه ، ثم لايلبث من أراد الله له الهداية منهم حتى يحبه من قلبه ويتمنى أن يفديه بنفسه وماله .

ولذلك نص الهرمزان على العدل وحده كسبب في أمن عمر الذي حمله على النوم في المسجد ، لأن الهرمزان وأمثاله من الكفار لايعرفون قضاء الله وقدره ولايؤمنون به .

ومع أن الهرمزان قد نسب ذلك الأمن القوي إلى العدل ، فإنه عبَّر بما يفيد بأنه حتى مع العدل لايصل الأفراد العاديون إلى مثل هذا الأمن،

ولذلك قال عن عمر : ينبغي له أن يكون نبيا ، وذلك لِما تواتر في عرف الأمم أن الأنبياء عليهم السلام معصومون بحماية الله تعالى[1] .

(١) ينظر في أخبار هذه المعركة كتاب « الخلفاء الراشدون » للمؤلف / ٥٠٧ – ٥٤٢ .

ارتباطي مع إذاعة القرآن الكريم

في عام ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م اتصل بي أحد المسؤولين في إذاعة القرآن الكريم، وطلب مني المشاركة في إعداد برنامج للإذاعة،وقد أرسلت للإذاعة موضوعًا بعنوان «مواقف إسلامية» وموضوعًا آخر بعنوان «دراسات في السنة النبوية » وأرفقت نموذجا لكل موضوع ، وقد اختار المسؤولون في الإذاعة موضوع«مواقف إسلامية»وكان برنامجا أسبوعيا، وقد استمر أحد عشر عاما،وكان هذا البرنامج وسيلة تعارف بيني وبين عدد من المستمعين في أنحاء العالم،فقد عرَفني كثير ممن لاقيتهم بصوتي، وحمدت الله تعالى على أن وصل تبليغ مواقف المسلمين العالية إلى بلاد كثيرة.

ثم ألقيت برنامجا آخر بعنوان « توجيهات تربوية » وآخر بعنوان «توجيهات أخلاقية » وقد توقف هذان البرنامجان لِكَون نظام الإذاعة قد حدد سنتين لكل برنامج .

ثم عرض علي الأستاذ حمد بن محمد الدريهم الذي كان بارزًا في فن الإلقاء .. عرض علي المشاركة في برنامج بعنوان « نور من القرآن » وقد كتبت مختارات من ثلث القرآن الأخير ، ثم طلب مني كتابة حلقات إضافية فكتبتها وأرسلتها إليه،ولا يزال هذا البرنامج يتجدد بالإعادة.

وأخيرًا طلب مني الأستاذ حمد الكتابة عن مختارات من السنة

النبوية بعنوان « قبس من السنة » وقد كتبت له أكثر من ثلاثمائة حلقة، ولا يزال البرنامج يذاع حتى الآن .

هذا وإنه يجدر بي من باب إفادة القراء الكرام أن أختار ومضات مما ألقيته في برنامج « مواقف أخلاقية » وإلى هذه المختارات :

مثل من مكارم الأخلاق

أخرج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود قال : «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ ، قال: وكانت عقبة رسول الله ﷺ فقالا: نحن نمشي عنك ، فقال: ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما» [1].

وفي هذا موقفان لرسول الله ﷺ:الأول في تواضعه الجمّ،حيث عدَّ نفسه كفرد من أفراد المسلمين،فلم يجعل لنفسه راحلة مستقلة ،بل أشرك معه اثنين كبقية الجيش،وهو بهذا يقرر مبدأً عاليًا من مباديء العدالة والمساواة في الحقوق المشتركة،ويعطي بذلك مثلا عاليا للقائد القدوة في الكمال الإنساني،حيث أفاد بسلوكه هذا بأن الكمال في الإسلام لايكون بالترفع والأبَّهة والتميز،وإنما يكون بالتواضع والمساواة في الحقوق العامة .

---

(١) مسند أحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر وقد صحح إسناده ٦/ ٣ رقم ٣٩٠١ .

والموقف الثاني : في رفضه عرض زميليه علي بن أبي طالب وأبي لبابة بن عبد المنذر في التنازل له عن الراحلة ،حيث أفاد بأن الذي له حق التَّمَيُّز في مثل هذه الحال هو ضعيف الجسم الذي لايقوى على المشي، فهو معذور في تخصيصه بزيادة المنفعة « ما أنتما بأقوى مني»، كما أفاد بأن المشي في سبيل الله فيه ثواب عند الله تعالى ، ولايزهد بهذا الثواب إلا من لايقدِّر الثواب الأخروي ،والرسول ﷺ أسبق الناس إلى العمل لرضوان الله تعالى والسعادة الأخروية «وما أنا بأغنى عن الأجر منكما».

مثل من عدالة النبي ﷺ

قال ابن إسحاق : وحدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه « أن رسول الله ﷺ عدَّل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفي يده قِدْح [1] يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غُزَية، حليف بني عدي بن النجار وهو مُستنتل من الصف [2] فطعن في بطنه بالقِدح ، وقال: استو ياسواد، فقال يارسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدْني ، قال فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال : اسْتَقِدْ ، قال : فاعتنقه فقبَّل بطنه ،

(١) القدح بكسر القاف العصا الصغيرة .

(٢) أي متقدم عليه .

فقال : ماحملك على هذا ياسواد ؟ قال: يارسول الله ، حضر ماتَرى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدَك ، فدعا له رسولُ الله ﷺ بخير ، وقالَهُ له» [1] .

وهذا الموقف من سواد بن غزيَّة رضي الله عنه يدل على شدة تعلقه برسول الله ﷺ وكَلَفه بمحبته ، وهكذا كان كل الصحابة رضي الله عنهم .

وكون النبي ﷺ كشف بطنه له ليستقيد منه يعدُّ مثالا على العدالة الكاملة التي كان يتصف بها رسول الله ﷺ ، وهو في ذلك يعدُّ قدوة عليا لجميع الولاة الذين يتولون شيئًا من أمور الأمة في إنصاف أفراد رعيتهم من أنفسهم ، ومن غيرهم من الكبراء من باب أولى .

مثل أعلى في الرقي الأخلاقي

أخرج الإمام الطبراني من حديث أبي عزيز بن عمير أخي مصعب ابن عمير قال: كنت في الأسرى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ : استوصوا بالأسارى خيرا ، وكنت في نفر من الأنصار فكانوا إذا قدَّموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني البُرّ لوصية رسول الله ﷺ .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٠ .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال:رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن [1].

وأخرج الواقدي من حديث الزُّهري . قال: قال رسول الله ﷺ : استوصوا بالأسرى خيرًا. فقال أبو العاص بن الربيع : كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيرًا ، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر ، والخبز معهم قليل والتمر زادُهم . حتى إنَّ الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليّ . وكان الوَليد بن الوليد بن المُغيرة يقول مثل ذلك ويزيد: وكانوا يحملوننا ويمشون [2].

في هذين الخبرين مثل رفيع في المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ حتى مع الأعداء ، وشاهدٌ على سمو الإسلام في المجال الأخلاقي ، حيث ظفر أعداء الإسلام من معاملة المسلمين بأعلى درجات مكارم الأخلاق ، التي تتمثل في خلق الإيثار ، فالصحابة رضي الله عنهم يأكلون الطعام الذي يُعدُّ في نظرهم من الدرجة الثانية لكثرته،ويؤثرون الأسارى بالطعام الذي يُعدُّ من الدرجة الأولى لندرته،ولو أنهم اقتصروا على مساواة الأسارى بأنفسهم لكانوا قد بلغوا الكمال في العدالة، ووصلوا إلى

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٨٦ .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ١١٩ .

مستويات عليا في تمثيل مكارم الأخلاق ، ولم تتوجه إليهم أي ملامة من أهل العقل الحصيف والرأي السديد ، فكيف بهم وقد جاوزوا مرحلة المساواة إلى مرحلة الإيثار على النفس ؟! لاشك أنهم بذلك يكونون قد بلغوا القمة العليا في الرقي الأخلاقي .

إن هذا الخبر يعطينا صورة رائعة للمقدرة الفائقة عند المسلمين الصادقين على الجمع بين القوة الخارقة في الحرب ، والتمثيل العالي لمكارم الأخلاق حتى مع من كانوا قبل أيام قلائل يقابلون المسلمين في الميدان ، مع تصور أن الأعداء لو ظفروا بهم لمزقوهم شر ممزَّق .

إن شعور المسلم القوي بعداوة الأعداء وتطبيقه الحي لمبدإ البراء من الكفار يجعل من العجيب المدهش أن يصل هذا المسلم في معاملته للأعداء الذين هم تحت ملكه وتصرفه إلى حد الإيثار على النفس بمنافع الحياة الدنيا .

وإن الذي يواجه مقاتلين يستميتون في القتال دفاعا عن قضيتهم ، لاينتظر من هؤلاء المقاتلين الذين خطفوا بصره في الميدان وشلُّوا بصيرته إلا الموت البطيء على أيديهم ، فكيف به وهو يواجه رجالا يؤثرونه على أنفسهم ؟!

إنه لمن المستغرب المحيِّر للعقلاء العاديين أن يُقدم أناس على قتل

أقاربهم الأدنين في الميدان، ثم يؤثروا الأباعد عنهم بمنافع الدنيا وهم يملكون قتلهم ومادون ذلك من الإيذاء .

فما الذي حملهم على هذا الأمر الذي ظاهره التناقض ؟ ! إنه طاعة الله تعالى وابتغاء رضوانه في الحالين معا ، فهو الذي أمرهم ببذل الجهد في القتال في سبيله ، وأن لاتأخذهم به لومة لائم، وهو الذي أمرهم بأن يصلوا إلى القمة في الرقي الأخلاقي حتى مع أعدائهم.

معجزة نبوية وموقف إيماني

ذكر المؤرخ محمد بن إسحاق « أن عمير بن وهب الجمحي جلس – بعد معركة بدر – مع صفوان بن أمية فاتفقا على أن يذهب عمير إلى المدينة ليقتل رسول الله ﷺ ، فلما وصل إلى المدينة رآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يحمل سيفا ، فأخبر النبي ﷺ فقال: أدخله علي، فدخل عليه ومعه سيفه » وهذا يُعدُّ منتهى الجرأة والشجاعة وأعلى درجات اليقين بالله تعالى من رسول الله ﷺ ؛ حيث لم يأمر بنزع سلاحه منه « فلما دخل عليه قال له « ادْنُ ياعمير» وفي هذا ملاطفة حانية ومعاملة سامية حتى مع الأعداء الذين ظهرت بوادر كيدهم ، وما ذلك بغريب على صاحب المقام الرفيع والخلق الكريم ﷺ الذي أخذ بمجامع القلوب ، وأرغم أعداءه على التواضع له لا بقوة السلطان وإنما برقَّة

الجنان وعذوبة البيان .

فقال ﷺ : « فما جاء بك ياعمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا إليه [يعني ابنه] قال: فما بال هذا السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئًا ؟ قال: اصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك ، قال رسول الله ﷺ : بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر فذكرتما أصحاب القليب من قريش [1] ثم قلتَ : لولا دين عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا ، فتحمَّل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك » .

وهذه معجزة من معجزات النبي ﷺ الكثيرة التي تدل دلالة قاطعة على أنه نبي يتلقى الوحي من الله تعالى ، إذ أن هذا الأمر كان سرًّا بين صفوان وعمير ، وكانا حريصين كل الحرص على كتمانه لأن إفشاءه يؤدي إلى فشل خطتهما التي اتفقا عليها.

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يارسول الله نكذبك بما تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فو الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي

(١) يعني سادة قريش الذين قتلوا في «بدر» وأمر النبي ﷺ بإلقاء جثثهم في البئر .

هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق[1] فقال رسول الله ﷺ : « فقِّهوا أخاكم في دينه وأَقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره، ففعلوا »[2].

(١) زاد الواقدي في روايته « وفرح المسلمون حين هداه الله ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لَخنزيرٌ كان أحب إلي منه حين طلع ، وهو الساعة أحب إلي من بعض ولدي» - مغازي الواقدي ١/ ١٢٧ - .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٥٨ – ٣٦٢) باختصار .

مثل رفيع من خلق الوفاء

أخرج الإمام البخاري بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن النبي ﷺ طلع له «أُحُد» فقال : هذا جبل يحبنا ونحبه »[1] .

هذا التعبير البليغ من رسول الله ﷺ يدلنا على اتصافه بمنتهى الكمال في مكارم الأخلاق، التي يأتي على رأسها خلق الوفاء .

لقد احتضن جبل أحد المسلمين بعد إصابتهم في معركة «أُحد» ، حيث وَجدوا في تجاويفه وتعاريجه حصونا امتنعوا بها من هجوم العدو .

أفلا يُعدُّ هذا الوجدان الحي والإحساس المرهف مثلا أعلى على التخلق بخلق الوفاء ؟! ألا وإن الذي يعترف بفضل الحجارة الصماء ويُضفي عليها من الأخلاق السامية ما لا يتصف به إلا أفاضل العقلاء لَجدير به أن يعترف بأدنى فضل يكون من بني الإنسان ، وإذا كان وفاؤه ﷺ للجماد قد سَمَا حتى حاز أرقى العبارات وأرقَّها فأَخْلقْ ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم من ذلك ، فضلا عن من تجمعه بهم الأخوة في الله تعالى .

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤٠٨٤ ، (٧/ ٣٧٧) .

مثل من الكمال في حسن المعاملة

لما سُبيتْ صفية بنت حُيَيّ رضي الله عنها في معركة خيبر قال لها رسول الله ﷺ : إن أقمت على دينك لم أُكرهْك ، وإن اخترتِ الله ورسوله فهو خيرٌ لك . قالت : أختارُ الله ورسوله والإسلام.

قالت : فأعتقني رسول الله ﷺ وتزوّجني وجعل عتقي مَهري ،فلما أراد أن يخرج إلى المدينة قال أصحابُه : اليوم نعلم أزوجةٌ أم سُرِّيةٌ ، فإن كانت امرأته فسَيحجبها وإلا فهي سُرّيَّة[1] . فلما خرج أمر بسترْ فسُتِرتُ به فعُرِف أَني زوجة ، ثم قَدَّم إليّ البعير وقدَّم فَخِذَه لأضَعَ رجلي عليها ، فأعظمتُ ذلك ووضعتُ فَخِذي على فَخِذه[2]، ثم ركبتُ[3] .

في هذا الخبر مثل عظيم من تواضع النبي ﷺ حيث قدم فخذه لتطأ عليها صفية حينما أرادت أن تركب البعير .

إن هذا التواضع الكبير لَيُخْضِع جميع العقلاء لاحترام رسول الله ﷺ وإكباره والإعجاب بعظمته .

امرأة من نسائه كانت مملوكة فأعتقها وكان أبوها حيي بن أخطب

---

(١) أي جارية مملوكة .

(٢) لعل الصواب : ووضعت ركبتي على فخذه .

(٣) مغازي الواقدي (٢/ ٦٧٤ – ٦٧٥) باختصار .

عدوه اللدود الذي ألَّب قبائل العرب ضده ، وزوجها ابن أبي الحقيق هو الذي تولى بعد ابن أخطب تأليب الأعداء عليه ، ومع ذلك كله يضع رسول الله ﷺ فخذه لصفية لتتوصل بها إلى ركوب البعير !!

إن تواضع العظماء للمستذَلِّين يُعدُّ دليلا على عظمتهم لأنهم لا يرجون من هؤلاء الضعفاء أيَّ مطمع دنيوي من مال أو جاه ، لكن التواضع للجبارين المستكبرين علامة ضعف واستخذاء ، ما لم يكن هناك ملمح دعوي خاص .

ولئن كان رسول الله ﷺ عظيما في بشريته ، فلقد تَتَوَّجَ بهاءً وعظمةً وسموًّا في رسالته ، فأصبح قمة لا تُسامَى في التحلي بالفضائل واجتناب الرذائل وقدوة عليا للبشرية في التمثل بمكارم الأخلاق والبعد عن مساوئها .

أمثلة من تواضع النبي ﷺ

١ - أخرج الواقدي بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : دخل رسول الله ﷺ يومئذ – يعني يوم فتح مكة - وعليه عمامة سوداءُ ، ورايته سوداءُ، ولواؤه أسود، حتى وقف بذي طُوًى وتوسط الناس و إن عُثْنُونَه[1] ليمس واسطة الرَّحل أو يَقْرُب منه ، تواضعا لله تعالى حين رأى

(١) أي ذقنه .

ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين. ثم قال : العَيشُ عيْشُ الآخرة ![1] .

وهكذا دخل رسول الله ﷺ مكة وتحت قيادته عشرة آلاف مقاتل، وهو الذي خرج منها مستخفيا قبل ثماني سنوات وليس معه إلا صاحبه أبو بكر رضي الله عنه ، وإنه لفرق شاسع بين وضعه في خروجه ودخوله .

إنه لموقف يستهوي النفوس البشرية أن تبلغ الذروة في الكبرياء والجبروت والتعالي على الناس، خصوصا إذا علمنا أن من قدم عليهم رسول الله ﷺ بهذه الجموع الكثيرة هم الذين آذوه كثيرا وحاولوا قتله حتى خرج من بين أظهرهم مستخفيا ، فكان الوضع البشري المعتاد أن تبرز مظاهر الأبَّهة والخيلاء والرغبة في الانتقام لإذلال من سبقت منهم العداوة والإهانة ، ولكنه ﷺ دخل مكة مُطَأْطِأً رأسه تواضعا لله تعالى حتى ليكاد ذقنه يمس رحل بعيره ،وهذا مشهد رائع مثير لايكاد يتصف به إلا من اصطفاهم الله تعالى لرسالته .

وإن رسول الله ﷺ بهذا الخلق الإسلامي الرفيع ليضرب المثل للقادة من أمته كي يتشبهوا به في التواضع لله عز وجل ، والانتصار الكبير على

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٢٣ – ٨٢٤ ، وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه – سيرة ابن هشام ٤/ ٢٩ – ٣٠ ، وأخرجه البيهقي من طريقين عن أنس بن مالك رضي الله عنه وعن عبد الله بن أبي بكر بن حزم- دلائل النبوة ٥/ ٦٨ - .

هوى النفوس المخالف للمبادئ الإسلامية .

فهل أفرزت جميع الانتصارات الكبرى التي دوَّنها التاريخ مثل هذا الخلق الرفيع ؟ اللهم لا ، بل إنه من المستحيل أن يوجد مثل هذا الخلق بغير الإسلام .

إن هذا المشهد الرائع ليدلنا على عمق استحضار النبي ﷺ لعظمة الله عز وجل حتى كأنه يراه ماثلاً أمامه ، وإن من النتائج المسلَّمة في هذا أن يحتقر كل مظاهر الدنيا لأنها لاتساوي شيئًا أمام عظمة الله جل وعلا، وإنه على قدر وجود الإيمان بالله تعالى في قلب المؤمن واستحضاره لعظمته تكون درجة إيمانه ، ولاشك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – وعلى رأسهم رسول الله ﷺ – قد بلغوا الكمال الأعلى في ذلك .

٢ – أخرج الحافظ البيهقي بإسناده عن قيس بن أبي حازم البجلي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يكلِّمه فأُرعد الرجل ، فقال له :«هوِّن عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

ورواه من طريق آخر موصولا عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ولكنه قال عن المرسل هو المحفوظ[1] .

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٦٩ ، وقوله ﷺ " أنا ابن امرأة من قريش " لايعارضه ما اشتهر من أن بني النجار من الأنصار أخواله فإن أمه من بني زهرة من قريش وليست من بني النجار ، وإنما بنو النجار أخوال جده عبد المطلب لأن أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو من بني النجار .

فهذا مثل من تواضع النبي ﷺ للناس، فهو في هذه القصة لم يغتنم فرصة هيبة الناس له المبنية على الحب البالغ والإعجاب الكبير بأخلاقه العالية .. لم يغتنم ذلك ليرسِّخ لنفسه مظاهر العظمة والتعالي، وحاشاه أن يفعل ذلك ، بل سارع في هذه القصة إلى محو ما قد يعلق في بعض النفوس من تصور المظاهر التي تعارف الناس عليها بالنسبة للسادة والزعماء، وإلى تقليص الحواجز التي قد تحول بين الرعية والراعي،فذكر لذلك الرجل أنه ﷺ ابن امرأة من قريش قد نشأت على التواضع والزهد حيث كانت تأكل اللحم المجفف.

أقول : بل أنت صلى الله عليك وسلم إمام الدنيا وهادي البشرية ومحييها بشرع الله بعد موتها ومُرَوِّيها بعد جفافها .. ولكنه التواضع العظيم الذي يحمل أصحاب النفوس الكبيرة على التهوين من شأنهم ليرفعوا من شأن الآخرين ، ويزيلوا الحواجز والكلفة من نفوسهم .

لم يذكر ﷺ لذلك الرجل أنه هادي البشرية وقائدها نحو النجاة، بل لم يذكر ماهو أقل من ذلك حيث لم ينسب نفسه إلى النسب الشريف والحسب الرفيع وأنه سليل السادة النجباء من قريش ، وذلك ليمحو من قلبه أثر الرعب الذي خالطه وهو يحدثه ، وليثبت له ولسائر الناس أن أعظم الناس هداية للأمة هو أشدهم تواضعا و أكرمهم أخلاقًا .

إن عظمة الرجل ليست في مقدرته على إرهاب من يقدر عليهم ، وإنما في رفع معنوياتهم حتى يستطيعوا التعبير عما في أنفسهم .

ولقد كان من عادة العرب أن ينتسبوا إلى آبائهم عند التفاخر ، لكن النبي ﷺ انتسب إلى أمه في خطابه لهذا الرجل ، وهذا منتهى التواضع الذي يُعدُّ في القمة من مكارم الأخلاق .

موقف لرسول الله ﷺ في إسلام سهيل بن عمرو

قال الواقدي :فحدّثني موسى بن محمد ، عن أبيه ، قال : قال سُهَيل ابن عمرو : ولّما دخل رسول الله ﷺ مكة وظَهَر ، انقحمتُ[1] ببيتي وأغلقتُ عليّ بابي ، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سُهيل أن اطلب لي جوارًا من محمد ، وإني لا آمن أن أُقتل، وجعلتُ أتذكَّر أثري عند محمد وأصحابه، فليس أحدٌ أسوأ أثرًا مني ، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحُديبية بما لم يلقه أحدٌ ، وكنت الذي كاتبتُه ، مع حُضوري بدرًا وأحُدًا ، وكلما تحرَّكتْ قريش كنت فيها .

فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، تُؤمّنه ؟ فقال : «نعم ، هو آمنٌ بأمان الله فليظهر» ، ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله : «من لقي سُهيل بن عمرو فلا يَشُدُّ النَّظرَ إليه فليخرج ،

(١) أي رميت بنفسي .

فلعَمري إنّ سهيلاً له عَقْلٌ وشَرَف ، وما مثل سُهيل جَهلَ الإسلام، ولقد رأى ما كان يُوضع فيه أنه لم يكن له بنافع» ، فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ ، فقال سُهَيل : كان والله برًّا ، صغيرًا وكبيرًا، فكان سُهيل يُقبل ويُدبر ، وخرج إلى حُنَين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرَّانة[1] .

وهكذا كان رسول الله ﷺ يعرف الرجال ويقدر كرام القوم، ولقد عرف مادخل أصحابَه من الموجدة على سهيل بن عمرو حيث كان هو الذي تولى عقد ذلك الصلح الجائر يوم الحديبية الذي بسببه مُنع المسلمون من العمرة في ذلك العام ، فخشي ﷺ أن ينظر إليه الصحابة نظرات جارحة، فيكون ذلك سببا في تمنُّعه من الإسلام ، فأمر أصحابه أن لا ينظروا إليه نظرات حادَّة ، ووصف سهيلا بالعقل والشرف، وبَنَى على ذلك أن من كان في مثل عقله وشرفه فإنه لايجهل الإسلام .

لقد كان لهذه الكلمات التربوية العالية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبر طوال عمره ، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك .

إن هذا السلوك العالي من رسول الله ﷺ في معاملة سهيل يعدُّ قدوة

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٤٦ – ٨٤٧ ، وانظر المستدرك للحاكم ٣/ ٢٨١ .

عليا للدعاة من بعده وخاصة القادة منهم ، وذلك في سلوك السبل التي تسُلُّ سخائم الصدور وترفع الحرج عن الأعزة الأكابر الذين وقعوا في شيء من الذل حتى لايتعرضوا لجرح المشاعر .

لقد نهى رسول الله ﷺ الصحابة عن أن يشفوا غليلهم من سهيل بالنظرات الحادة ، لاحتمال أن يقع ذلك من بعضهم مادام سهيل على كفره، لأن هذا الأمر هو الذي يقدرون عليه، إذ أنهم لايقدرون على قتله، ولا على إيذائه بأكثر من ذلك وهو في الأمان ، فنهاهم عن ذلك لأنه يريد كسبه للإسلام ، وكسبُ مثله يعني كسب الكثيرين ممن ألفوا التبعية للأكابر .

وبهذا وأمثاله كان رسول الله ﷺ في أعلى قمم الدعوة إلى الله تعالى .

موقف لرسول الله ﷺ في إسلام عكرمة بن أبي جهل

أخرج الواقدي بإسناده إلى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: قالت أمّ حَكيم امرأة عكْرمة بن أبي جهل : يارسول الله ، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن ، وخاف أن تَقتله فأمِّنْه، فقال رسول الله ﷺ : هو آمن ، فخرجت أمّ حكيم في طلبه ، وأدركت عكْرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر ، فجعل نُوتيُّ السفينة يقول له : أخلصْ! فقال : أيّ شيء أقول : قال :قل لا إله إلا الله · قال عكْرمة : ماهربتُ إلا من هذا .

فجاءَت أم حكيم على هذا الكلام ، فجعلت تُلحّ إليه وتقول : ياابن عمّ ،جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس ، لاتُهلك نفسك . فوقف لها حتى أدركته فقالت : إني قد أستأمنت لك محمدًا رسول الله ﷺ . قال : أنت فعلت ؟ قالت : نعم ، أنا كلمته فأمَّنك. فرجع معها .

فلمّا دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه : يأتيكم عكْرمة بن أبي جهل مُؤمنًا مُهاجرًا ، فلا تَسُبّوا أباه ، فإنّ سبّ الميّت يُؤذي الحي ولايبلغ الميت .

فلمّا رأى النبي ﷺ عكرمة وثب إليه – وماعلى النبي ﷺ رداء – فَرَحًا

بعكرمة ، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف بين يديه، وزوجته مُنتقبة، فقال: يامحمد إن هذه أخبرتني أنك أمَّنتني.فقال رسول الله ﷺ : صدقت ، فأنت آمن ! فقال عكرمة : فإلى ماتدعو يامحمد ؟ قال: أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وأن تُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة – وتفعل ، وتفعل ، حتى عدّ خصال الإسلام.

فقال عكرمة : والله مادعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنتَ والله فينا قبل أن تدعو إلى مادعوتَ إليه وأنت أصدقنا حديثًا وأبرُّنا برّا . ثم قال عكرمة : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .فسُرّ بذلك رسول الله ﷺ[1].

في هذا الخبر مواقف عظيمة لرسول الله ﷺ في الدعوة والرغبة الشديدة في هداية الناس ، وخصوصا من لهم تأثير في قومهم ، فقد أعطى الأمان لعكرمة بن أبي جهل على الرغم من كونه ظل يقاتل المسلمين حتى آخر لحظة حينما دخل المسلمون مكة المكرمة .

ثم أخبر الصحابة رضي الله عنهم بأن عكرمة سيأتي مسلمًا مُهاجرًا وقال : « فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولايبلغ الميت» ، وإن من أسوأ نتائج الأذى من ذلك أن يحصل من عكرمة تَمَنُّع من الإسلام

(١) مغازي الواقدي (٢/ ٨٥١ – ٨٥٣) باختصار .

بسبب ذلك .

وهكذا تنبَّه النبي ﷺ إلى أمر قد يقع فعمل الاحتياط له حتى يزيل أي عقبة تحول بين عكرمة والإسلام ، أو تجعله ضعيف الشخصية في الإسلام لما يحصل له من التذكير بالماضي الذي لايُشرِّف المسلم، وإذا ضعفت شخصية المسلم تضاءلت طاقته وضعف عطاؤه .

ومن ذلك قيامه ﷺ لاستقبال عكرمة حتى أعجل نفسه عن أخذ ردائه من شدة فرحه بمجيء عكرمة .

إن هذا السلوك من رسول الله ﷺ يعدُّ قمة في التواضع واللطف..

إن قيامه لعكرمة مع كونه آنذاك كافرًا يشبه قيامه لأعز أحبابه المسلمين، وماذاك إلا ليمحو من نفس عكرمة أيَّ شعور يخالج فكره من الخوف والرهبة مما سيواجهه من السلوك الخشن والمعاملة الجافة من المسلمين بسبب ترسُّب أحداث الماضي في أفكارهم .

إن هذا السلوك اللطيف الحاني من رسول الله ﷺ نحو عكرمة يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام .

رجلٌ تراكمت في سجلِّ تاريخه وتاريخ أبيه أحداث مُرَّة مؤلمة نحو رسول الله ﷺ والمسلمين، ثم يَقْدُم عليهم بثياب الوَجل المتردد الذي ينتظر مواجهات ومعاملات مبنية على تراكمات الماضي، فإذا به يفاجأ

برسول الله ﷺ يقوم إليه مستقبلا قد أعجل نفسه عن لبس ردائه، يبتسم له ويرحب به ترحيب من غُمر بفضائل من قام لاستقباله !!

إنه موقف عظيم هائل..لو جسِّم ثم وُجِّه إلى الجبال الراسيات لفتَّتها ، فكيف لا يؤثر في الإنسان الذي يملك الأحاسيس والمشاعر ؟!

لقد أسلم عكرمة رضي الله عنه حالاً من حين أن عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، وأثنى على النبي ﷺ من قبل أن يبعث رسولا .

أمثلة من أخلاق النبي ﷺ وأصحابه العالية

(وفادة هوازن وإطلاق الأسرى)

قال ابن إسحاق : ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دَحْنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس، ومعه من هوازن سبي كثير[1] ، وقد قال له رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف: يارسول الله ، ادع عليهم ، فقال رسول الله ﷺ :اللهم اهد ثقيفا وأْت بهم .

ثم أتاه وفد هوزان بالجعرانة ، وكان مع رسول الله ﷺ من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء،ومن الإبل والشاء مالا يُدرى ماعدَّتهُ .

قال ابن إسحاق : فحدثني عمرو بن شُعيب ، عن أبيه ، عن جدّه

---

(١) يعني بعد معركة حنين وحصار الطائف .

عبد الله بن عمرو : أنّ وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا ، فقالوا: يارسول الله ، إنا أصلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخفَ عليك ، فامنن علينا ، مَنَّ الله عليك .

قال : فقال رسول الله ﷺ : أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يارسول الله ، خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل تردُّ إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحبُّ إلينا ، فقال لهم : أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم ، فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال الأقرعُ بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عُيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سُلَيم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ، ماكان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

قال : يقول عباس بن مرداس لبني سليم : وهَّنتموني .

فقال رسول الله ﷺ : أمَّا من تمسك منكم بحقه من هذا السَّبي فله

بكل إنسان ستُّ فرائض ، من أوّل سَبي أصيبه ، فردُّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم[1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : عدم استجابة النبي ﷺ للرجل الذي طلب منه الدعاء على قبيلة ثقيف وإجابته بضد ذلك حيث دعا الله تعالى لهم بالهداية ، وهذا مثل من رحمته ﷺ العظيمة التي لم تقتصر على المسلمين ، بل شملت الكفار حتى المحاربين منهم ، فإن قبيلة ثقيف قد حاربوا المسلمين يوم حنين، ثم اعتصموا بحصنهم وحاربوا المسلمين وقتلوا عددا منهم ، ومع ذلك لم يدْعُ عليهم رسول اللهﷺ، لأنه كان يرجو هدايتهم إلى الإسلام ، وهذا مطلب كبير ينسى معه القائد الرحيم ما اقترفه الأعداء من الإضرار بالمسلمين ، وهذا يشبه خبر الطفيل بن عمرو الدَّوسي حينما لم يستجب قومه لدعوته فطلب من النبي ﷺ أن يدعو عليهم فقال : « اللهم اهد دوسًا ، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم » .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٥٦ – ١٥٩ ، وأخرجه الإمام البخاري من حديث مروان والمسور بن مخرمة مختصرا–صحيح البخاري ، المغازي: ٨/ ٣٢ – ٣٣ ، رقم : ٤٣١٨ ، ٤٣١٩ ، وأخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو،ذكره الهيثمي وقال:رجال أحد إسناديه ثقات ٦/ ١٨٨ .

ومن هذين الخبرين وأمثالهما نعلم بأن المشروع في معاملة الأعداء هو الدعاء لهم بالهداية وليس الدعاء عليهم ، وتغليب جانب الرحمة بهم والإشفاق عليهم من المصير السيء في الآخرة على الرغبة في التشفي والانتقام منهم .

أما دعاء النبي ﷺ على بعض الكفار في القنوت فإنه في أحوال خاصة كما في حادث سرية الرجيع وسرية بئر معونة حيث طلب بعض الكفار إرسال دعاة معهم من المسلمين ليدعوا قبائلهم إلى الإسلام فغدروا بهم وقتلوهم ، وكما في دعاء النبي ﷺ على كفار قريش حينما اشتدوا في أذى المسلمين المستضعفين عندهم .

فالدعاء على عامة الكفار غير مشروع،بل يشرع الدعاء لهم بالهداية، وإنما يشرع الدعاء على المحاربين منهم في حال إصرارهم على حرب المسلمين .

ثانيًا : سياسة النبي ﷺ الحكيمة وحسن تصرفه ومقدرته على الإقناع، فقد جاء إليه وفد من قبيلة هوازن التي نُكبت في نسائها وأبنائها وأموالها ، جاؤوا إليه مسلمين راغبين في فكاك أسراهم وإعادة أموالهم إليهم ، فخلَّص لهم النبي ﷺ نساءهم وأبناءهم من الرق في موقف واحد وكلمات معدودات ، من غير أن يغتصب هذا من المسلمين الغانمين

بعدما امتلكوه ، بل بحسن السياسة والقدوة الحسنة والتدبير المحكم.

إن تصرف النبي ﷺ هذا يُعدُّ مثالا عاليا للتربية بالقدوة الحسنة، فقد ضرب المثل في البذل والتضحية بنفسه وقرابته الأدنين ، ولسان حاله يقول : ارتفعوا أيها المسلمون إلى هذا المستوى العالي الذي رفعت إليه نفسي وقرابتي ، ولاشك أن هذا من أبلغ الأساليب في التأثير على النفوس ، خاصة إذا صدر ممن هو محطُّ الأنظار وموضع القدوة .

ولقد نجح النبي ﷺ نجاحا كبيرا حيث حل هذه القضية المشكلة بعد صلاة الظهر في كلمات.. نجح حينما حمل أكثر المسلمين على التنازل عما في أيديهم من الأسرى تأسِّيًا به ﷺ ، ونجح حينما حل مشكلة المتمنِّعين المتمسكين بما في أيديهم حيث ألزمهم بتسليم ما في أيديهم من الأسرى في مقابل ستة أسهم من أول فيء يُفيئه الله تعالى عليه ، فهو في هذه الحال لم يقرَّ التفرقة بين الأسرى بحيث يُعْتَق فريق ويبقى فريق على الرق، ولم يجبر أصحاب الحق على تسليم مافي أيديهم بدون مقابل، بل أعطاهم ما أرضاهم مقابل حقهم .

فما أحكم هذه السياسة ! وما أعظم هذه القدوة ! وما ألطف هذا التدبير !

موقف لرسول الله ﷺ في إسلام مالك بن عوف[1]

قال ابن إسحاق : قال رسول الله ﷺ لوفد هوازن ، وسألهم عن مالك بن عوف مافعل ؟ فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فقال رسول الله ﷺ : «أخبروا مالكا أنه إن أتاني مُسلما رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مئة من الإبل» ، فأُتِيَ مالكٌ بذلك ، فخرج إليه من الطائف ، فلحق برسول ﷺ ، فأدركه بالجعرانة أو بمكة ، فردّ عليه أهله وماله ، وأعطاه مئة من الإبل ، وأسلم فحسُن إسلامه ، فقال مالك بن عوف حين أسلم :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... في الناس كلِّهمُ بمثل محمد

أوفَى وأعطى للجزيل إذا اجْتُدي ... ومتى تشأ يُخبركَ عما في غد

وإذا الكتيبةُ عرَّدَت أنيابُها ... بالسّمهريّ وضرب كل مُهنَّد[2]

فكأنه ليثٌ على أشباله ... وسْط الهباءة خادرٌ في مَرصد[3]

فاستعمله رسولُ الله ﷺ على من أسلم من قومه، وتلك القبائل:

---

(١) مالك بن عوف النصري هو قائد جيش الكفار في « حنين » وهو مشهور بالشجاعة .

(٢) عردت أنيابها أي خرجت كلها واشتدت ، وهو كناية عن كمال استعدادها ، والسمهري : الرمح ، والمهند: السيف .

(٣) الهباءة : الغبار ، والخادر ، المقيم في عرينه ، والمرصد : مكان الرصد .

ثُمالة ، وسلمة ، وفَهْم ، فكان يُقاتل بهم ثقيفا ، لايخرج لهم سرحٌ إلا أغار عليه ، حتى ضيق عليهم [1] .

في هذا الخبر موقف عظيم لرسول الله ﷺ في حسن السياسة والحكمة في إدارة الأمور الحربية ، والتخطيط العالي في الدعوة ، وذلك حينما خطط لاجتذاب الزعيم الكبير الذي استطاع أن يسود عددا من القبائل وأن يجمع ذلك الجيش الكثيف مع أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، ألا وهو مالك بن عوف النصري .

لقد كان النبي ﷺ يخطط لهذا الأمر قبل مجيء وفد هوازن ، ومما يدل على ذلك أنه عزل أهل مالك وماله فلم يقسم ذلك مع الغنائم ، فلما جاء وفد هوازن اغتنم الفرصة وقال لهم : « أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل » .

تُرَى ماهي مشاعر مالك بن عوف حينما انهزم قومه وذهب منهم كل شيء حتى نساؤهم وأبناؤهم ، وكان هو السبب في كل ماجرى لهم؟!

وكيف سيواجه انتقادات القبائل اللاذعة ؟ !وكيف سيستعيد سمعته العالية بين القبائل ؟!وماهي مشاعره حينما أصبح بعيدًا عن قومه

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤/ ١٦١ ، ١٦٢ ، وأخرجه الإمام الطبراني من طريق ابن إسحاق، ذكره الهيثمي وقال: ورجاله ثقات، مجمع الزوائد : ٦/ ١٨٩ .

لاجئا عند ثقيف ؟! وماهي أفكاره نحو ما سيقوم به رسول الله ﷺ من مطاردته ومحاولة القضاء عليه ؟ !

كل هذه الأفكار وأضعافها من المفترض أن تفرض نفسها على مالك ، ولكن بينما هو في خضَمِّ هذه الأفكار ، وإذا بيد حانية وصوت رحيم من عدوه الذي أجلب عليه قبائل العرب يدعوه إلى أخذ أهله وماله إضافة إلى رفده بمائة من الإبل .

كل هذا في مقابل ماذا ؟ في مقابل أن يدخل في الإسلام !

سبحان الله ! هذا النبي الكريم والسيد العظيم الذي أشعل في وجهه تلك الحرب الضروس يتنازل عن كل ما يُتصوَّر عادة من الغضب والحقد وإرادة الانتقام ، ومحاولة إذلال الخصم ، ثم لايكتفي بذلك بل يرد على مالك أهله وماله مع مائة من الإبل في مقابل أن يسلم !!

إن هذا أمر خارج عن ما اعتاده البشر وإن هذا الدين الذي سيُجعل عوضا عن كل هذه التنازلات ، وعن كل هذه المكرمات لدين عظيم يفرض على العقلاء أن يعتنقوه .

وهكذا أسلم مالك حالاً لأنه من عقلاء الرجال وحكمائهم .

إن هذا التخطيط المحكم ، والتدبير المنظَّم من رسول الله ﷺ له مابعده من النتائج العالية في مجال الدعوة ، وذلك أنه إذا أسلم زعيم

القبيلة يسلم أفرادها أو أكثرهم ، وكذلك في مجال الحرب، حيث ولاه الرسول ﷺ على من أسلم من قومه والقبائل المجاورة ، فصار مشْعَل حرب على قبيلة ثقيف التي امتنعت عن الإسلام حتى دوَّخهم وألجأهم إلى التفكير في مسالمة النبي ﷺ ، الأمر الذي قادهم إلى الإسلام .

كل هذه النتائج الضخمة ساقها ماخطط له النبي ﷺ من اجتذاب مالك بن عوف إلى الإسلام .

فما أعظمه ﷺ من قائد محنَّك ، وداعية مسدد ، وإداري حكيم!!

مثل من مقدرة النبي ﷺ على الإقناع

خبر شكوى الأنصار

قال ابن هشام : حدثني زياد بن عبد الله ، قال : حدثنا ابن إسحاق: قال : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : «لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا ، في قريش وفي قبائل العرب[1]، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت منهم القالةُ حتى قال قائلهم : لقد لقي والله رسولُ الله ﷺ قومه ،فدخل عليه سعد بن عُبادة فقال : يارسول الله ، إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجَدوا عليك في أنفسهم ، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمْتَ في قومك ، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك ياسعد ؟» قال : يارسول الله ، ما أنا إلا من قومي · قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة ، قال : فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة .

قال : فجاء رجال من المهاجرين فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم .فلما اجتمعوا له أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحيّ من

---

(١) يعني من غنائم معركة « حنين » .

الأنصار ، فأتاهم ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يامعشر الأنصار ، ماقالةٌ بلغتني عنكم ، وَجدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاَّلا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ، قالوا : بلى ، الله ورسوله أمَنُّ وأفضل ، ثم قال: ألا تجيبونني يامعشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضلُ · قال ﷺ أمَا والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدِّقتم: أتيتنا مُكذَّبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك.أوَجَدْتم يامعشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعَة[1] من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليُسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يامعشر الأنصار ، أن يذهب الناسُ بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت أمرأً من الأنصار،ولو سلك الناس شعبًا وسلكَت الأنصارُ شعبًا، لسلكتُ شعبَ الأنصار ، اللهُم ارحم الأنصار.وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» .

قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول

(١) هي البقية اليسيرة من الشراب في الإناء .

الله ﷺ قسمًا وحظًّا . ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا[1] .

وقال الحافظ ابن كثير بعدما ذكره : وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث ابن إسحاق ولم يروه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه، وهو صحيح[2] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : ما قام به النبي ﷺ من إقناع الأنصار رضي الله عنهم ، وذلك ببيانه البديع الذي غير به مشاعرهم وذلك بعدما بين بأسلوبه الرائع السبب الذي من أجله تصرف ذلك التصرف في قسمة الفيء ، الأمر الذي كان غائبا عن الأنصار تصورُه ، فلما فهموا مراد النبي ﷺ اقتنعوا حالاً، وعلموا أنه ماتركهم إلا إعلاءً لشأنهم واعتقادا منه بعلو كعبهم في الإيمان بهذا الدين .

ومن هنا نعلم أن الخطأ في تصور الأمور على حقيقتها والقصور في إدراك المقاصد قد يتعرض له بعض أقوياء الإيمان مما ينجم عنه اعتراض

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ١٧٥ – ١٧٨ ، وأخرجه الإمام البخاري وذكر نحوه – صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٣٠ (٨/ ٤٧) ، وأخرجه الإمام مسلم وذكر نحوه – صحيح مسلم ، الزكاة، رقم ١٠٥٩ (ص٧٣٣) .

(٢) البداية والنهاية ٤/ ٣٥٧ – ٣٥٨ .

على تصرفات القادة ، الأمر الذي قد يترتب عليه الخلل في سير العمل، ولكن سرعان مايزول هذا التصور الخاطيء وتعود المياه إلى مجاريها إذا وفِّق المسلمون بالقادة الحكماء ، الذين يزنون الأمور ويضعونها في مواضعها .

ولقد قدَّم النبي ﷺ لبيان السبب في إعطاء تلك العطايا الكبيرة في بعض زعماء القبائل بمقدمة بين بها فضل الأنصار ، كما ختم كلمته ببيان فضلهم والدعاء لهم ولذرياتهم ، ولقد وُفِّق ﷺ تمام التوفيق في إقناع الأنصار بوجهة نظره ، فتغيرت مشاعرهم وملامحهم من إضمار السخط وإظهار النقد إلى إضمار الرضى واظهار الفرح والسرور والتأثر البالغ مما صدر منهم الذي عبَّروا عنه بالدموع الغالية التي انسكبت على لحاهم وبقولهم : رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظًّا ، رضي الله عنهم أجمعين.

موقف لرسول الله ﷺ في إسلام قبيلة ثقيف

لما رأى زعماء قبيلة ثقيف أن الإسلام انتشر من حولهم بعد فتح مكة وأنهم أصبحوا محصورين اتَّفق رأيهم على الدخول في الإسلام ، فوفدوا إلى المدينة بقيادة عبد ياليل بن عمرو بن حبيب ، وقاموا بمفاوضة النبي ﷺ في تحليل بعض ما حرم الله فلم يوافقهم .. إلى أن قالوا: أرأيت الربَّة [يعني اللات] ما ترى فيها؟ قال: هدمها ، قالوا : هيهات ، لو تعلم

الربة أنا أوضعنا [أي أسرعنا السير] في هدمها قتلتْ أهلنا، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ويحك يا عبد ياليل، إن الربة حجر لايدري من عبده ممن لا يعبده ، قال : عبد ياليل : إنا لم نأتك ياعمر .

فأسلموا وكمل الصلح ، فلما كمل الصلح كلموا النبي ﷺ يدع الربة ثلاث سنين لايهدمها، فأبى، قالوا : سنتين ، فأبى ، قالوا : سنة ، فأبى ، قالوا : شهرًا واحدًا ، فأبى أن يوقِّت لهم وقتا، فسألوا النبي ﷺ أن يعفيهم من هدمها ، قال رسول الله ﷺ « نعم ، أنا أبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها » .

وسألوا النبي ﷺ أن يعفيهم من الصلاة ، فقال ﷺ : « لا خير في دين لا صلاة فيه» فقالوا: يامحمد أما الصلاة فسنصلي وأما الصيام فسنصوم ، وتعلموا فرائض الإسلام، وأمرهم رسول الله ﷺ أن يصوموا ما بقي من الشهر[1].

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً:موقف النبي ﷺ من وفد ثقيف حيث جاؤوا مستسلمين لقوة دولة الإسلام،ولم يأتوا مقتنعين بالإسلام ، فجاؤوا يشارطون النبي ﷺ على خضوعهم لدولة الإسلام في مقابل إسلام ناقص يتبعون فيه

(١) مغازي الواقدي (٣/ ٩٢٦ – ٩٧٢) باختصار وتصرف .

أهواءهم، فاشترطوا على النبي ﷺأن يبيح لهم الزنى والربا وشرب الخمر، فأبان لهم أن كل هذه الأمور محرمات في الإسلام ، ولايملك أن يُحل شيئًا حرمه الله تعالى .

لقد جاء هؤلاء الوفد وهم يعرضون جاهليتهم معهم ليخلطوها بالإسلام .

إنهم مازالوا غرقى في أوحال الجاهلية ، فلذلك صعب على نفوسهم أن يتخلوا من ساعتهم عن تلك الأوحال .

إن النفوس التي لم تتنور بالإيمان ولم تتحلَّ بالهداية ماتزال تهبط إلى السفل ، وتجد شيئًا من الوحشة في الصعود إلى الأعلى ، لأن عقولها مخنوقة بخناق الشهوات البهيمية .

وحينما تحلُّ جذوة الإيمان في القلوب تتنور بها البصائر،ويضعف سلطان العواطف،ويقوى سلطان العقل،ويستردُّ حريته التي كانت مكبَّلة بخضوع الإنسان لعواطفه الجامحة،فيبدأ بالتفكير السليم، ويُصدر الأوامر الحكيمة،التي ترفع من شأن الإنسان كَحَيّ عاقل،ليعيش في أجواء فكره المستنير الذي يدرك حالاً أن الحق كل الحق والحكمة كل الحكمة في تطبيق شريعة الله تعالى الذي خَلَق هذا الإنسان العاقل،والذي هو أعلم جل وعلا بما يصلحه في حاضره وفي مستقبله بعد الموت.

ولقد أجاب النبي ﷺ هؤلاء بأن الله عز وجل هو الذي حرم هذه الأشياء ، وكأنه يقول لهم: إذا كنتم تُقرُّون بأن الله جل جلاله هو الذي خلقكم أفلا تهديكم عقولكم إلى أنه سبحانه أعلم بما يصلحكم ؟ !

ومع هذا الجواب الذي رفع النبي ﷺ به عقولهم إلى الأعلى فإنهم في مشورتهم مازالوا يفكرون في حتمية العيش في الدركات السفلى ، ويرون صعوبة الارتفاع إلى العلو .

ولما رأوا إصرار النبي ﷺ على ضرورة أخذ الإسلام كاملا كما جاء من عند الله تعالى رجعوا إلى التفكير في وضعهم الذي لايسمح لهم بالبقاء منفصلين عن دولة الإسلام فعادوا إلى الخضوع والاستسلام ، ولكن بقي ماهو أكبر مما ذكروا في نظرهم وهو أن يعرفوا رأي النبي ﷺ في صنمهم «اللات » فقالوا : أرأيت الرَّبة ماترى فيها ؟ قال : «هدمها» ، قالوا : هيهات ، لو تعلم الربة أنا أوْضَعْنا في هدمها قَتَلت أهلنا .

وهذا يعني أنهم مازالوا على شركهم واعتقادهم بأن اللات تضر وتنفع من دون الله تعالى .

وهنا لم يصبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فشارك في الحوار وقال: ويحك ياعبد ياليل إن الربة حجر لايدري من عبده ممن لم يعبده، قال عبد ياليل : إنا لم نأتك ياعمر .

لقد قالوا كلاما في غاية النكارة ولكن النبي ﷺ سلك مسلك الأنبياء عليهم السلام ، وتكلم عمر كلام البشر العاديين .

لقد كان بينهم وبين النبي ﷺ جسور رقيقة بالإمكان كسرها بنظرة ساخرة أو كلمة جارحة، وكان النبي ﷺ أحرص شيء على سلامة تلك الجسور ليعبروا منها إلى الإيمان الحق .

لقد جاؤوا مستسلمين ولم يأتوا مسلمين ، فما أعظم النبي ﷺ حينما اغتنم استسلامهم ليكسب إسلامهم .

وبهذا كان الصمت وامتلاك المشاعر هو عين الحكمة .

زيارة دعوية في قَطَر

في عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م سافرت إلى دولة « قطر » بدعوة من بعض المسؤولين هناك عن الشؤون الدينية ، وقد كانت هناك لقاءات مع بعض المهتمين بالدعوة الإسلامية ، كما قمت بإلقاء أحاديث تم تسجيلها في الإذاعة ، ومن أبرز المحاضرات التي ألقيتها محاضرة بعنوان « شمول العبادة في الإسلام » وهذا جزء من تلك المحاضرة :

عمران الأرض من عبادة الله تعالى

إن إسهام المسلم في عمارة الأرض بأي نوع من أنواع العمارة..من تجارة أو زراعة أو صناعة ونحو ذلك يعدّ من عبادة الله تعالى إذا التزم فاعل ذلك بشريعة الله جل وعلا وأراد بعمله وجهه والدار الآخرة.

والإنسان من حيث حاجتُه مدفوع إلى عمارة الأرض والتسابق في ذلك لأسباب قد تكون مادية...من حب الحصول على الضرورات للمعيشة أو الكماليات للتمتع، أو معنوية من حب العلو في الأرض والسيطرة على الآخرين.

ولكن المسلم مدفوع إلى عمارة الأرض بسبب هو أعلى من ذلك وأسمى حيث إنه يُنفذ بذلك أمر الله جل وعلا، وهذا وحده يكفي لجعل المسلم أعلى إنسان في هذه الأرض وأمة الإسلام أقوى أمة.

فإذا أضيف إلى ذلك أن غير المسلمين ينظرون في إقدامهم على عمارة الأرض إلى مجرد الربح الذي يحصلون عليه في هذه الحياة وأن المسلمين يُقدمون على ذلك وإن لم يضمنوا الربح في الدنيا لضمانهم الربح الأكبر في الآخرة، عرفنا كيف أن أمة الإسلام لو طبقت الإسلام لم تتمكن أمة أخرى من السيادة على العالم مع وجودها.

فإذا قام المسلم بعمارة الأرض بأي عمل من الأعمال المشروعة مريدًا بذلك وجه الله تعالى كان بذلك عابدًا لله عز وجل.

فغير المسلم يعمل في الحياة الدنيا ليستفيد مما يعمل في هذه الحياة نفسها وما دام لا يستفيد فإنه لا يعمل، أما المسلم فإنه يعمل ليفيد نفسه وإخوانه المسلمين في الحياة الدنيا ولينال المثوبة في الآخرة فهو دائب العمل حتى لو لم يكن له أي مصلحة ذاتية دنيوية لأنه سيحصل على المنفعة الأخروية .

فالمسلم لا ينظر في عمارة الأرض لمجرد المكاسب التجارية، وإنما ينظر إلى العمل من حيث إن فيه خيرًا لمجتمعه الإسلامي، فإذا كان أمام التاجر المسلم مشروعان أحدهما أكثر كسبًا وأقل نفعًا للمسلمين، والآخر أقل كسبًا ولكنه أكثر نفعًا للمسلمين فإنه يقدِّم الأكثر نفعًا للمسلمين وإن كان أقل كسبًا، حيث إنه سيحصل على الأجر الكبير عند

الله تعالى في الجنة، أما غير المسلم فإنه ينظر إلى مجرد الربح والخسارة في الحياة الدنيا لأنه ليس له في الآخرة نصيب.

ولهذا فإن طاقة المسلم الإنتاجية أعلى بكثير من طاقة غيره، ولكن واقع المسلمين في هذا يختلف عن ذلك كثيرًا، حيث نرى أن طاقة الكفار في بعض الدول أعلى من طاقة المسلمين إجمالاً، وهذا راجع إما إلى عدم فهم المسلمين لدينهم في شموله لجميع نواحي الحياة أو لضعف إيمانهم بإسلامهم إضافة إلى عدم اهتمامهم بدنياهم، فأصبحوا بذلك أقل جهدًا من كثير من الأمم في عمارة الأرض.

إن مظاهر التخلف الاقتصادي لدى أي أمة من الأمم تعود بالدرجة الأولى إلى رغبة أفرادها في الراحة، وإصابتهم بالكسل وتعطيل بعض الطاقة التي وهبهم الله إياها، ولكن مظاهر التخلف الاقتصادي لدى المسلمين تعود بالدرجة الأولى إلى عدم اهتمامهم بتطبيق توجيهات دينهم نحو الإسراع في عمارة الأرض والإسهام الفعال في تقوية دولتهم وأمتهم.

فإذا أضيف إلى ذلك إصابتهم بمظاهر التخلف التي يتعرض لها عموم البشر فإنهم يكونون قد جمعوا بين المظاهر الذاتية التي لو توافر فيهم ضدها لبلغوا مستوى جيدًا من الإنتاج وبين المظاهر المؤثرة من

إهمالهم توجيهات دينهم التي تدفعهم إلى أعلى مستوى من الإنتاج يمكن أن يتصوره البشر.

إن بعض بلاد المسلمين يعتمد أهلها على مصدر واحد من مصادر الرزق فإذا انقطع هذا المصدر أو ضعف ركعوا خاضعين أمام من يمد يده لإنقاذهم وإن كان المنقذ من الكفار الذين يساومونهم في دينهم مقابل لقمة العيش، وكان بإمكانهم في حال الرخاء أن ينوعوا مصادر الرزق على نية تقوية شأن المسلمين وحمايتهم من الاحتياج لغيرهم.وكان بإمكانهم لو بذلوا طاقتهم في هذا المجال أن يصلوا من الغنى إلى الحد الذي يجعلهم يتألفون بأموالهم غير المسلمين إلى الإسلام.

وكان بإمكانهم وهم في حال قوتهم أن يحفروا الآبار وأن يُحيوا الأرض بالزراعة ليتوسعوا بها في الرخاء وينفقوا منها في سبيل الله وتبقى لهم في حال الشدائد.

وما أخبار المسلمين في أفريقيا الذين ضرب بلادهم الجفاف ببعيدة عن الأذهان، فقد مات الكثير من مواشيهم التي كانت مصدر غذائهم ومات على إثر ذلك عدد غير قليل منهم من الجوع واغتنم الأعداء فرصة حاجتهم الضرورية إلى الغذاء ليصرفوهم عن دينهم الحق.

وهذه النظرة في عمارة الأرض إنما تنبثق من الفهم الشامل لمقاصد الإسلام.

أما الذين يجعلون الإسلام عِضِين فيجزئونه حسب أهوائهم أو حسب علمهم القاصر الذي ورثوه فإنهم لا يستطيعون القيام بعمارة الأرض وليسوا أهلاً لها.

وإن أعداء الإسلام ليفهمون مقدرة المسلمين الخارقة على عمارة الأرض إذا فهموا إسلامهم وطبقوه كاملاً ولذلك فإنهم يقفون بالمرصاد لأي دعوة واعية تبرز في مجتمع إسلامي تدعو إلى عمارة الأرض انطلاقًا من فهمها الشامل للإسلام.

وإن أعداء الإسلام يجدون في أغلب العصور وفي هذا العصر بالذات من يقف معهم من غير قصد في تحجيم الدعوة الإسلامية وتقليص مفهومها، وذلك من الذين يجهلون شمول الإسلام لنواحي الحياة وإن كانوا من الذين يتصدرون للدعوة إليه.

إن الإسراع في عمارة الأرض وإعمال الفكر في البحث عن الطرق المؤدية إلى ذلك يكفل للمسلمين أن يتبوؤوا مكانًا عاليًا في علوم الزراعة والصناعة والاختراع مما تقوم به الحضارة المادية، وهذا بالتالي يكفل للمسلمين أن يكونوا أقوى أمة في الأرض.

وإذا امتلك المسلمون القوة المادية وأصبحوا محط أنظار العالم في علوم الحياة الدنيا فإنهم يستطيعون عرض ما يدعون إليه من الحق وهم في مقام القوة ولن يحتاجوا إلى جهود كبيرة في الدعوة إلى الإسلام لأنه سينتشر بطريقة الاقتداء وتقليد المغلوب للغالب في بداية الأمر ثم يتحول الإسلام في النفوس إلى إيمان عن قناعة كما حدث في عصور الإسلام الأولى. إنه يمكن عرض الحق والدعوة إليه في مختلف الظروف، ولكن حينما يكون أصحاب الحق ضعفاء من الناحية المادية فإنهم لن يمتلكوا من الوسائل إلا أقلها، ويحتاجون مع ذلك إلى جهد مضاعف من أجل إيصال كلمة الحق لأن أغلب الناس ينظرون دائمًا إلى الأقوى.

وحينما يكون الأقوى هو صاحب دعوة الباطل فإنه يصدِّر باطله مع كل سلعة ينتجها إلى أقطار العالم من غير أن يقوم بجهد يُذكر في سبيل الدعوة إلى باطله، فكيف إذا أُضيف إلى ذلك أن أساطين الباطل يقومون بجهود مكثفة من أجل الدعوة إلى باطلهم ؟

إن الحق يبقى مكبلاً بالحواجز والقيود ما لم تصاحبه القوة التي تزيح عن طريقه هذه الحواجز، وما لم يتدرع المسلمون بالقوة فإن دعوتهم ستظل محدودة ووجودهم سيظل ضعيفًا وإن كثر عددهم، فما أبلغ الحق متدرعًا بالقوة، وما أقبح القوة متجردة عن الحق.

إن الحق إذا تجرد عن القوة صار صوته ضعيفًا، وانغمر تحت ظلال كثيفة من الشبهات والدعايات المضللة، وإن القوة إذا تجردت من الحق تحولت إلى حماقة وتهور شنيع، وأصبح أربابها يوجهون طاقتهم إلى إشباع غريزة حب السيطرة والهيمنة في الأرض، وسخروا عقولهم وأجسامهم للإفساد والتدمير.

ومن هنا نعلم أن من أهم ما يجب على الدعاة إلى الله الاهتمام به أن ينبهوا المسلمين إلى وجوب الأخذ بأسباب القوة وتعمير الأرض كلٌّ حسب طاقته وإمكانه، وأن يعدُّوا ذلك من أبرز الأمور التي تدخل تحت دائرة العبادة التي أمرنا الله جل وعلا بها.

هذا وإن المسؤولية الكبرى في هذا التخلف تقع على عاتق المسئولين عن الأمة، إذ إن من واجبهم رعاية الأمة وتوجيهها نحو ما يحقق لها القوة والعزة في هذه الحياة، فإذا أهملوا أداء هذا الواجب والتفتوا إلى مصالحهم الذاتية ومصالح عشائرهم أو أحزابهم فإن الأمة تسير نحو الضياع والانحدار.

وأشد من ذلك وأبلغ في النكاية بالأمة إذا كانوا يحولون بين المصلحين ومحاولة النهوض بمستوى الأمة الاقتصادي فيعملون على تعطيل المشروعات التي يراد لها أن تتقدم بالأمة نحو القوة والعزة، أو

يحولون بين أفراد الأمة وما يريدون من تطوير وضعهم الاقتصادي وأوضاع من يعملون معهم.

إن كل أعمال الإصلاح تظل ضعيفة الجدوى أو تفقد مفعوليتها إذا لم يشجعها المسؤولون عن الأمة أو وقفوا ضدها حتى تصاب بالفشل والشلل، بينما تنتعش مشروعات الإصلاح والعمران بمجرد إطلاق الحرية للعاملين المنتجين فضلاً عن التشجيع والدعم المادي والمعنوي.

زيارة السودان

في عام ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م دعيت ضمن وفد من المملكة العربية السعودية لحضور مؤتمر كبير أقامته حكومة السودان بعد مرور حوالي سنتين على ثورة الإنقاذ ، وقد حضرت وقائع ذلك المؤتمر ، وأبرز المواقف التي تستحق الذكر أنني قمت بصحبة الأستاذ أحمد محمد جمال وأخيه الأستاذ صالح محمد جمال – رحمهما الله – بزيارة سيادة الرئيس عمر البشير في بيته المتواضع ، وقد عرَّفت بالأستاذين فقلت له : هذان الأستاذان من وجهاء مكة المكرمة ، فقال : يكفي أنهما من أهل مكة، وقد جاء إليه ونحن عنده أحد العاملين في بيته فقال : إنه لا يوجد سكر في البيت ، فقال : خذوا من بيت جارنا حتى يأتي السكر المخصص لنا ، وكان في السودان – آنذاك – أزمة سكر قبل الإصلاح الذي قامت به حكومة البشير، فكان الرئيس يحصل من السكر على القدر الذي يحصل منه أي مواطن آخر، وهذا مثل من الزهد والعدالة .

وكان من الأعمال الجيدة أن المنظمين للمؤتمر قاموا بتخصيص مسجد لكل واحد منا لإلقاء خطبتي الجمعة والصلاة فيه ، فتم توزيعنا على عدد من مساجد العاصمة .

ولقد ألقيت خطبة بينت فيها موقفا عظيما من مواقف رسول الله ﷺ

في الحلم والدعوة إلى الله تعالى ، وقد كتبتها فيما بعد ، وذلك فيما رواه عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال : إن الله عز وجل لما أراد هُدَى زيد بن سعنة – الذي هو من أحبار اليهود – قال زيد بن سعنة : إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولايزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، فكنت أتلطف له لأَنْ أخالطه فأعرف حلمه وجهله .

قال : فخرج رسول الله ﷺ يوما من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب ، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي ، فقال: يارسول الله إن قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، فكنت حدثتهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدا، وقد أصابتهم سنَة وشدة وقحوط من الغيث : وإني أخشى يارسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كمادخلوا فيه طمعا ، فإن رأيتَ أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به.

قال : فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل إلى جانبه أُراه عليّا فقال: مابقي منه شيء يارسول الله[1] ، قال زيد بن سعنة : فدنوت إليه فقلت: يامحمد هل لك أن تبيعني تمرا معلوما من حائط بني فلان[2] إلى أجل كذا وكذا ،

---

(١) يعني فهم علي أن رسول الله ﷺ يسأله عن مال معين .

(٢) الحائط هو البستان .

فقال: لا يايهودي ولكن أبيعك تمرا معلوما إلى أجل كذا وكذا ولا أسمي حائط بني فلان[1] ،قال: فقلت : نعم فبايعني ،فأطلقت هميانى فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا ، فأعطى الرجل ، وقال : أعجل عليهم وأغثهم بها.

قال زيد بن سعنة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة وخرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه رضي الله عنهم، فلما صلى على الجنازة ودنا من جدار ليجلس عليه أتيته فأخذت بجوامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت : ألا تقضيني يامحمد حقي فوالله ماعلمتكم يابني عبدالمطلب إلا لُمْطْل[2]، ولقد كان لي بمخالطتكم علم .

قال : فنظر إليَّ عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ، ثم رماني بطرفه وقال :ياعدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع وتفعل به ما أرى ! فو الذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فَوْتَه لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة ، وتبسَّمَ ثم قال: أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك ياعمر ، أن تأمرني بحسن

---

(١) يعني لأنه قد لايثمر الحائط المذكور فلا يمكن الوفاء منه .

(٢) يعني لاتؤدون الحقوق .

الأداء ، وتأمره بحسن التِّباعة[1] ،اذهب ياعمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعا مكان مارُعْتَه .

قال زيد : فذهب بي عمر فقضاني حقي وزادني عشرين صاعا من تمر ، فقلت: ماهذه الزيادة ؟ فقال : أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان مارُعْتُك ، فقلت: أتعرفني ياعمر؟ قال: لا ، فقلت : أنا زيد بن سعنة ، قال : الحَبْر ؟ قلت: الحبر ، قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ماقلت وتفعل مافعلت؟!قال:ياعمر،كل علامات النبوة قد عرفت في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله،ولايزيده شدة الجهل عليه إلا حلما،فقد خبرتهما، فأُشهدك ياعمر أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا،وبمحمد نبيا، وأشهدك أن شطر مالي– فإني أكثرها مالا – صدقةٌ على أمة محمد ﷺ ، فقال عمر:أو على بعضهم فإنك لاتسعُهم كلَّهم، فقال : أو على بعضهم.

قال : فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، فآمن به وتابعه ، وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة[2].

---

(١) أي طلب الحق .

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم / ٢٣ – ٢٤ .

وأخرج هذا الخبر من هذا الطريق الإمام الطبراني وابن حبان والحاكم وأبو الشيخ،كما ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني وذكر أن رجال الإسناد موثقون [1].

فهذا الخبر يدل على اتصاف النبي ﷺ بالكمال في صفتي الحلم والعفو ، فإنه قد واجه الإهانة القولية والفعلية من ذلك الرجل ، فتحمل ولم يغضب ، وإنما واجه هذا الموقف بالسكون والطمأنينة، وأنكر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ماقام به من مخاطبة ذلك الرجل بالشدة والإرهاب ، ووجَّهه إلى مايتطلبه الموقف فيما لو تكرر ذلك المشهد ، وهو أن يكون له جُهْد في امتصاص غضب أصحاب القضية ، وذلك بتذكير كل طرف بواجبه ، وهذا من تواضع النبي ﷺ ، لأن ذلك الرجل قد جاء يتقاضى حقه قبل موعد حلول الدين، فليس النبي ﷺ بحاجة إلى أن يُذكَّر بحسن القضاء ، ولكنه ﷺ أتحف أمته بهذا التوجيه الحكيم لمن حضر مثل هذا المشهد حتى يمكن القضاء على الخلاف قبل أن يتحول إلى عداء وخصام .

ونجد في هذا الخبر أن النبي ﷺ لم يهتَمَّ بالدفاع عن نفسه ، ولم ينظر

---

(١) الإصابة ١/ ٥٤٨ ، رقم ٢٩٠٤ ، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (١/ ٥٢ رقم ٢٨٨) ، المستدرك (٣/ ٦٠٤) ، أخلاق النبي ﷺ لأبي الشيخ (ص ٧٣) .

إلى مايجب لذاته من الاحترام والتقدير باعتباره زعيم أمة ، بل نظر إلى ماينبغي عمله في حال وقوع الخلاف بين الناس، من المبادرة إلى الإصلاح بين المتخاصمين وإيجاد التفاهم بينهم ، وانتزاع بواعث الدفاع عن النفس واعتبار الذات في سبيل القضاء على الخصومات وإصلاح أحوال المجتمع .

هذا وينبغي الإشادة بموقف عمر رضي الله عنه الذي جعل من نفسه حاميا لرسول الله ﷺ يَرُدُّ عنه صولة السفهاء والجاهلين ، فهيأ بذلك جوّا من الهيبة يجعل الأعداء يحسبون حسابا كبيرا قبل أن يقدموا على مخاطبة النبي ﷺ .

ومن المواقف التي جرت ، وفيها مفاجأة وحسن تصرف أنني دُعيت أنا وفضيلة الشيخ محمد علي الصابوني لندوة ، ولما حضرنا وحضر المستمعون وعددهم كبير انقطع تيار الكهرباء قبل أن تبدأ الندوة وكنا بعد المغرب، وكان الشيخ علي بجانبي فقال لي : الآن ليس فيه مكبر صوت ولن يسمع صوتي ولاصوتك إلا قليل ، ولكن الحل أن ندعُوَ الشيخ محمد محي الدين عوض ليلقي كلمةً في هذا الوقت المخصص للندوة ، وكان الشيخ محمد عوض – رحمه الله – جهوري الصوت ، فناداه الشيخ الصابوني وعرض عليه إلقاء كلمة فوافق فنادى الشيخ

الصابوني المسؤول عن ذلك الاجتماع وطلب منه تقديم الشيخ محمد عوض ، فألقى كلمة حازت على إعجابنا جميعا ، وذكر أمثلة من تطبيق الجانب الميداني للدعوة الذي قام به هو وتلاميذه في دمشق .

هذا وقد قمت بزيارة للمركز الإسلامي الأفريقي ، وقد كان يديره – آنذاك – الدكتور إبراهيم أبو عباة ، وهذا المركز يجمع بين العلوم وبين تعليم عدد من المهن الحرفية ، وكان الغرض من ذلك أن يعود الدارس إلى بلده وقد تعلم العلم وهو يحمل خبرة في مهنة من المهن ليكتفي بذلك في معيشته ويسهم في عمران بلده .

عمادة المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة

في عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م تم تكليفي بعمادة المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة في رابطة العالم الإسلامي ، مع استمراري في العمل بكلية الدعوة وأصول الدين بجدول مخفَّض ، وكان المعهد قد تحوَّل إلى نظام الدراسات العليا وأصبح يمنح درجة الماجستير منذ عام ١٤٠٧هـ وذلك في عهد معالي الدكتور عبد الله بن عمر نصيف حينما كان أمينا عامًّا لرابطة العالم الإسلامي ، وكانت الموافقة على ذلك حسنة من حسناته حفظه الله ، وقد ظل يرعى المعهد ويهتم بشؤونه إلى أن تم نقله من رابطة العالم الإسلامي عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م .

وقد تم تحويل المعهد بعد ذلك من نظام الدراسات العليا بثلاث سنوات إلى نظام الدبلوم العالي بسنة واحدة ،وذلك في عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

وقد استمر عملي في المعهد والكلية إلى عام ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م ، وذلك حينما طلبت التقاعد المبكر لأتفرغ تفرغا كاملا لإكمال بعض المؤلفات.

وقد كانت ذكرياتي عن المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة عالية جدًّا ، وذلك لأن الطلاب يتم اختيارهم اختيارا دقيقا بعد مقابلة شفهية وتحريرية ، وكان المعهد يضم طلابا من جنسيات متعددة ، وقد تخرج منه طلاب من أكثر قارات العالم ، ورجعوا إلى بلادهم وأكثرهم يحملون فكر

الوسطية والاعتدال الذي كان أهم هدف تُركز عليه مناهج المعهد ، وقد شغل بعضهم مراكز علمية ودعوية وإدارية عالية في بلادهم .

ومن ذكرياتي عن خريجي المعهد أن أحد خريجي المعهد في مرحلة الماجستير من « سيراليون » أصبح يعمل مدرسًا في إحدى الجامعات في «فريتاون» عاصمة « سيراليون» وقد كانت الجامعة تريد أن تبتعث أحد الأساتذة المتخصصين في الدراسات الإسلامية إلى بريطانيا لدراسة مرحلة الدكتوراه ، من أجل أن يتولى هذا المبتعث العمادة في كلية الدراسات الإسلامية ، فتنافس على هذه البعثة أستاذان ؛ أحدهما من خريجي معهد إعداد الأئمة والدعاة والآخر من خريجي جامعة الإمام محمد بن سعود ، وكلاهما يحمل درجة الماجستير ، وقد قامت إدارة الجامعة بدراسة مؤهلات الأستاذين ، فقدَّمتْ خِرِّيج معهد إعداد الأئمة والدعاة ؛ لكون الدراسة المنهجية في هذا المعهد مدتها سنتان ثم يتفرغ الدارس لكتابة رسالة الماجستير ، أما جامعة الإمام محمد بن سعود في ذلك الزمن فقد كانت الدراسة المنهجية في الدراسات العليا مدتها سنة واحدة .

ومما لاحظته أثناء تدريسي في المعهد أن الطلاب ينتمون إلى اتجاهات دعوية متعددة ، وأن منهم المنتسبين إلى طرق صوفية ؛ وفيهم

معتدلون ومتشددون ، ومنهم المنتسبون للاتجاه السلفي ؛ وفيهم متشددون ومعتدلون ، ومنهم المقلدون لعلمائهم في الأمور الفقهية وليس لهم نشاط في الدعوة ونظرًا لكونهم ينتمون إلى جنسيات تزيد – أحيانًا – على عشرين جنسية فإن هذه الاتجاهات المذكورة تكون ظاهرة فيهم .

وقد لاحظت في عدد من السنوات أن عددًا منهم يتحوَّلون أثناء الدراسة إلى الوسطية والاعتدال في المنهج الدعوي ، وأنهم يرجعون عن بعض الأفكار المنحرفة في مجال الدعوة أو في مجال السلوك .

وقد كنت أشجِّعهم كثيرًا على طرح الأسئلة ، وأُفَهِّمُهم من بداية العام الدراسي أن الدراسة في المعهد ليست تلقينية وإنما هي دراسة حوارية بالدرجة الأولى .

هذا وقد كان لي في المعهد محاضرات كثيرة أذكر نماذج مختصرة لبعضها :

مواقف دعوية

مثل من دعوة رسول الله ﷺ المؤثرة :

لقد كان رسول الله ﷺ عظيم النجاح في دعوته ، بليغًا في التأثير على من خاطبه، حيث يؤثر على من جالسه بهيئته وسمته ووقاره قبل أن يتكلم ، ثم إذا تحدث أسر سامعيه بمنطقه البليغ المتمثل من العقل السليم

والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء والنية الخالصة في هداية الأمة بوحي الله تعالى .

وإن من أبرز الأمثلة على قوته في التأثير بالكلمة المعبرة والأخلاق الكريمة ، ماكان من موقفه مع ضماد الأزدي الذي وفد إلى مكة وتأثر بدعاوى المشركين عن رسول الله ﷺ حتى وقر في نفسه أنه مصاب بالجنون كما يتهمه بذلك قومه .

وقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن ضمادًا الأزدي قدم مكة وكان من أزد شنوءة ، وكان يرقي من هذه الريح – يعني يعالج من الجنون – فسمع سفهاء مكة يقولون إن محمدًا مجنون فقال : لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي .

قال فلقيه فقال : يامحمد إني أرقي من هذه الريح ، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ : «إن الحمد الله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ، أما بعد» .

قال فقال : أعد علي كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول

الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر [1].

قال فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام قال: فبايعه ، فقال رسول الله ﷺ : وعلى قومك ، قال: وعلى قومي [2].

في هذا الخبر بيان اتصاف رسول اللهﷺ بصفتي الصبر والحلم وهما من أهم الصفات اللازمة للنجاح في الدعوة ، فهذا الرجل وهو ضماد الأزدي قد قدم مكة وهو يعتقد أن رسول الله ﷺ مجنون ، وذلك لكثرة مايبث قومه عنه من دعاوى كاذبة في القبائل ، وحيث إن ضمادًا يعالج من ابتلي بالجنون فإنه قد عرض على النبي ﷺ أن يعالجه من ذلك .

وهذا موقف يثير غضب من اتهم بذلك عادة ، ويتبع ذلك توبيخ المتكلم به إن لم يحصل ماهو أشد من ذلك ، ولكن رسول الله ﷺ الذي جبله الله تعالى على مكارم الأخلاق قد استقبل الأمر بحلم وهدوء مما أثار إعجاب ذلك الرجل وجعله مهيئًا لقبول ماسيدعوه إليه ، ولذلك ما إن بدأ النبي ﷺ كلامه بالمقدمة التي يستفتح بها بعض خطبه حتى أعلن ذلك الرجل أن الكلام الذي سمعه لايشبهه ولايدانيه كلام الشعراء ولا كلام الكهان والسحرة فأسلم في تلك الساعة .

---

(١) يعني وسط البحر .

(٢) صحيح مسلم ص ٥٩٣ ، رقم ٨٦٨ .

وهذا شاهد على فصاحة النبي ﷺ وقوة بيانه ، وانبعاث كلامه من قلب مُليءَ إيمانًا ويقينًا وحكمة ، حيث فاض ذلك على غُرر بيانه فأصبح آسرًا لسامعيه ، وجاذبًا لأصحاب القلوب المتجردة إلى اتباعه .

ولئن كان كثير من الناس اليوم لا يتأثر بهذا الكلام وأمثاله ، فهذا ليس لعيب في الكلام، وإنما هو لتدني مستوى المتلقي في الذوق والوجدان وفهم اللغة العربية ، أو لعدم صدور ذلك الكلام من قلب متأثر به أو لهما جميعًا .

وفي سرعة إسلام ذلك الرجل دلالة على أن الإسلام هو دين الفطرة وأن النفوس إذا تجردت من الضغوط الداخلية التي يحمل عليها اتباع الهوى ، والضغوط الخارجية التي من أبرزها هيمنة الطغاة من الأكابر الذين يرسخون في النفوس رهبتهم وتقديس مبادئهم الضالة في قلوب الناس من غير أن يكون لهم اختيار وتفكير .. إذا خلت النفوس من ذلك فإنها غالبًا تتأثر وتستجيب ، إما بسماع قول مؤثر ، أو الإعجاب بسلوك قويم .

منهج حكيم في الدعوة :

كان رسول الله ﷺ حليمًا في معاملته ، حكيمًا في دعوته فكان يحاول الدخول إلى قلوب الناس من الجوانب التي يرى أنها تؤثر عليهم ، من

غير أن يتفوه بباطل ولا أن يمارس سلوكًا منحرفًا .

وإن من أمثلة منهجه ﷺ الحكيم في دعوته ما أخرجه البيهقي من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل ابن هشام في بعض أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل ، يا أبا الحكم هلمَّ إلى الله عز وجل وإلى رسوله أدعوك إلى الله، قال أبو جهل : يامحمد هل أنت مُنْتَه عن سب آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فو الله لو أني أعلم أن ماتقول حقّا ما اتبعتك .

فانصرف رسول الله ﷺ . قال : وأقبل عليَّ فقال : فو الله إني لأعلم أن مايقول حق ولكنَّ بني قصي قالوا : فينا الحجابة فقلنا : نعم ، فقالوا : فينا الندوة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء، فقلنا : نعم ، قالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكَّت الركب قالوا منا نبي . والله لا أفعل [1] .

ففي هذا الخبر مثل مما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من حسن العرض والحكمة في الدعوة حيث يخاطب الناس بما يحبون .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٠٧ ، وذكره الحافظان الذهبي وابن كثير وسكتا عنه – تاريخ الإسلام / السيرة / ١٦١، سيرة ابن كثير ١/٤٠٦ – .

فإنه قد خاطب أبا جهل بكنيته « يا أبا الحكم » والنداء بالكنية تكريم عند العرب، وقد تناسى النبي ﷺ بذلك مواقفه السيئة في سبيل الدعوة ، وهذا درس مهمٌّ يستفيد منه الدعاة إلى الله تعالى في ضبط النفس، ومحاولة التودد إلى الناس من أجل الإسلام وإن سبقت منهم مواقف مؤلمة .

وفي هذا الخبر شهادة للإسلام بأنه دين الحق صدرت من رجل من ألدِّ أعداء هذا الدين وهو أبو جهل ، ثم بيان للمانع الذي منعه من الدخول في الإسلام وهو التنافس على الشرف الوهمي الذي ورثه وقومُه في الجاهلية .

لقد ساء أبا جهل أن دوحة بني هاشم قد اخضرت وأينعت ثمراتها، بينما ظلت دوحة بني مخزوم على جفافها وذبولها كسائر فروع قبيلة قريش فحسد بني هاشم على ذلك الشرف العظيم الذي ليس باستطاعة قومه أن يصلوا إليه ، ولو عقل وأدرك لعرف أن بإمكانه انقاذَ نفسه وقبيلته، والرفعَ من شأنها بالإيمان برسول الله ﷺ واتِّباعه .

مثل من مقدرة النبي ﷺ على إخماد الفتنة :

لما انتشر الإسلام في المدينة غاظ ذلك اليهود، فقاموا بعمل مكائد للمسلمين ، ومن ذلك أن أحد كبارهم أمر شابا يهوديًّا بأن يجلس في

المجلس الذي فيه رجال من الأوس والخزرج وأن يُذكِّرهم بأيامهم الحربية في الجاهلية وأن ينشدهم ما قالوا فيها من الأشعار ، ففعل ذلك وثارت الفتنة بين أولئك الرجال وتواعدوا للقاء الحربي ، فعلم بهم النبي ﷺ ، فخرج إليهم وقال : « يا معشر المسلمين ، اللهَ اللهَ ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألَّف به بين قلوبكم ؟ » فعرف القوم أنه نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين[1] .

ففي هذا الخبر موقفان :

الموقف الأول : في اهتمام النبي ﷺ بأمور المسلمين وإشفاقه عليهم، وفزعه مما يصيبهم من الفتن والمصائب ، فقد أسرع في الحضور إلى هؤلاء الأنصار الذين ثارت بينهم العصبية القبلية ، وذكَّرهم بالله تعالى الذي هداهم من الضلالة ، وجمعهم بعد الفرقة .

والغالب على هؤلاء الصحابة أنهم - وقد تقابلوا في الميدان - قد غاب عن قلوبهم استحضار عظمة الله تعالى ورقابته عليهم ، لأن من عُمر قلبه بذكر الله جل وعلا فإن سلوكه يكون منبثقا من الخضوع له

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢١١ – ٢١٤) باختصار .

تعالى ، بفعل أوامره والتماس رضاه ، واجتناب نواهيه والبعد عن سخطه، فكانت أول كلمة قالها رسول الله ﷺ « الله الله »أي تذكروا عظمة الله وجلاله ، وأَخضِعوا تصرفاتكم لما يحبه ويرضاه .

ثم ذكَّرهم بأن الأمر الذي أقدموا عليه هو من دعوى الجاهلية ، وأنكر عليهم أن يُقدموا على ذلك مع وجوده بينهم ، وهذا يعني أنه إذا فعلتم هذا المنكر مع وجودي بين ظهرانيكم فكيف الحال مع عدم وجودي بينكم ؟ !

ثم ذكَّرهم بالإسلام ·· هذا الدين العظيم الذي هداهم الله تعالى إليه ، والذي هو أغلى قيمة يمكن تصورها في الحياة ·· إن الناس بدونه أشبه شيء بالبهائم ، بل قد يكونون أضل منها ، فلذلك ذكر النبي ﷺ امتنان الله جل وعلا عليهم بهذا الدين وإكرامهم به ، حيث رفعهم به إلى أعلى درجات الإنسانية ·

ثم ذكَّرهم بما يتعلق بموضوعهم من فضائل الإسلام ، فقد قطع الله تعالى به عنهم أمر الجاهلية بما فيها من عداوة وحروب انتقامية ، وأنقذهم به من الكفر الذي يعدُّ انحرافا عن الهدف الأعلى الذي خُلق الإنسان من أجله ، وانحطاطا إلى درجة إبليس وجنوده من الشياطين ، كما ذكَّرهم بنعمة التأليف بين قلوبهم بهذا الدين .. هذه المعجزة التي لم

يستطيعوا الوصول إليها قبل ذلك · فكيف بعد هذا كله ينسون هذه النعم العظيمة، ويهيمن على قلوبهم التعصب لأمور الجاهلية التي أنقذهم الله منها ؟ !

وبعد هذا التذكير العظيم الذي تركز في كلمات معدودات سَرَتْ في كيان أولئك الصحابة روح جديدة مسحت كل أثر لأمر الجاهلية ، وشعروا بأنهم قد ارتكسوا قبل ذلك في ظلمة حالكة وأشفوا على هلاك محقق ، فأنقذهم الله تعالى بكلمات نبيه ﷺ العالية المعبرة ، وروحه القوية المؤثرة، وهيئته الوثابة المنذرة ، فنـزعوا عما هم فيه حالاً ، وأدركوا أن ما وقعوا فيه كان من وساوس الشيطان وكيد عدوهم من اليهود ، فبكوا ندمًا على ما قارفوا من الإثم ، وعانق بعضهم بعضا ، تعبيرًا عن زوال كل دَرَن طرأ على قلوبهم .

إن بكاء الرجال حدث جليل ، وخصوصًا إذا صدر من مثل هؤلاء الأبطال الذين يندفعون إلى الحرب بمثل هذه السرعة ، فإن الدمع عند هؤلاء وأمثالهم عزيز ، لأن نفوسهم قد تشكلت على حب البطش والانتقام ، لولا ما كان من تهذيب الإسلام والتربية النبوية ، فإذا بكوا فإنما يكون بكاؤهم لأمر جسيم هيمن على مشاعرهم ، وحوَّل ما كان في قلوبهم من القساوة وحب الانتقام إلى لين ولطف وأحاسيس جياشة

نحو الود والصفاء .

ومن هنا ندرك عظمة الرسول ﷺ ومقدرته الخارقة في الإقناع ، وتغيير المشاعر ، وتحويل الاتجاهات الشريرة حالاً إلى اتجاهات نحو الخير والصلاح .

الموقف الثاني : موقف أولئك الصحب الكرام من الأنصار الذين سارعوا إلى الأوبة والتوبة ، واقتلعوا وساوس الشيطان من جذورها ، ووضعوا عصبية الجاهلية تحت أقدامهم ، فما أن رأوا رسول الله ﷺ وسمعوا كلامه حتى تحوّلوا إلى أناس من نوع آخر ، وهجمت على مشاعرهم بسرعة فائقة أحاسيس الرحمة والمودة ، فنكسوا أسلحتهم إجلالاً لرسول الله ﷺ ولِشَرفِ الكلام النوراني الذي سمعوه،وجرت بينهم مظاهر الأخوة الفائقة،والمحبة الصادقة، ورجعوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين .

إن تراجع هؤلاء الصحابة عن أفكارهم وقناعاتهم بهذه السرعة دليل على تجرد قلوبهم من اتباع الهوى ، وعمرانها بتوحيد الله تعالى والإخلاص له ، وإن ما طرأ عليهم إنما كان استجابة لغضب مهيمن سرعان ما انقشع بسماع الموعظة المؤثرة فتغير سلوكهم حالاً ، لأن قلوبهم كانت معمورة بالتجرد والصفاء رضي الله عنهم جميعًا .

دورة في أندونيسيا

في بداية عام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م كُلِّفت من قِبَل رابطة العالم الإسلامي بالمشاركة في دورة ستقام في « أندونيسيا » وقد كنت أنا الوحيد من السعودية المكلف بالمشاركة في التدريس في تلك الدورة ، وبقية الأساتذة كانوا من أندونيسيا ، وقد صاحبني في تلك الرحلة الأستاذ عبدالله بازرعة ، وكان مسؤولا إداريًّا وماليا في تلك الدورة ، وكان نعم الصاحب في تلك الرحلة وقد أعجبت بمقدرته الإدارية وقوة شخصيته في معاملة القائمين على الدورة في الشؤون المالية ، وقد قدم لي خدمات جيدة جزاه الله خيرا .

وبعد وصولنا إلى مقر الدورة في العاصمة «جاكرتا» تم اللقاء مع مدير الدورة والتفاهم معه على تخصيص وقت لي لإلقاء بعض الدروس ، وكان طلاب الدورة بعضهم من دعاة رابطة العالم الإسلامي وبقيتهم من غيرهم .

وقد بقيت في أندونيسيا اثنين وعشرين يوما ، وتم تنظيم لقاءات علمية ألقيتُ فيها كلمات ، وقد سافرت ومعي الأخ عبد الله بازرعة وأحد الإخوة الأندونيسين من خريجي جامعة الإمام محمد بن سعود في مرحلة الماجستير إلى مدينة «باندونج» وقمت بإلقاء خطبتي الجمعة

والصلاة في مسجد الجامعة التي ذهبنا إليها ، وقد قال لي الأخ الذي صاحبنا للترجمة قبل الخطبة : إذا أنت صليت ولم تجهر بالبسملة فإن الناس لن يستفيدوا من خطبتك ، فقلت : إنني كنت عازمًا على الجهر بالبسملة لأن المنهج الوسطي الصحيح يكون في مراعاة الشعور الديني لدى أهل البلاد وذلك فيما يتعلق بالسنن ، وبعد الصلاة انهال علي عدد كبير من المصلين للسلام ، وطلب مندوب إحدى الإذاعات إجراء مقابلة مسجلة معي .

وفي طريقنا إلى « باندونج» كان صاحبنا الأندونيسي معه صحيفة فقرأ خبر دخول قوات العراق إلى الكويت، فكان الخبر مزعجا لنا فدعونا الله تعالى أن تكون العواقب سليمة.

وكان من المحاضرات التي ألقيتها في تلك الدورة محاضرة بعنوان «**اهتمام العلماء بالعلم**» وقد ذكرت أمثلة على اهتمام العلماء بالعلم وبذلهم الجهد في تحصيله .

فمن الأمثلة الرائعة لحفظ العلماء لأوقاتهم ما رواه علي بن أحمد الخوارزمي قال : سمعت عبد الرحمن بن أبي حاتم يقول : كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مَرَقة ، كل نهارنا مقسَّم لمجالس الشيوخ ، وبالليل : النسخ والمقابلة ، قال : فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا ، فقالوا:

هو عليل ، فرأينا في طريقنا سمكًا أعجبنا فاشتريناه ، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلسٍ ، فلم يمكنا إصلاحه ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام ، وكاد أن يتغير فأكلناه نيِّئًا ، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه ، ثم قال : لا يُستطاع العلم براحة الجسد [1].

فهذا مثل بليغ في الاجتهاد في طلب العلم وحفظ الوقت، فالأكل من الضرورات ومع ذلك لم يتركوا وقتًا لإعداده لاشتغالهم طوال الوقت بالسماع على الشيوخ والنسخ من الكتب .

ومن الاهتمام بالعلم العناية بالكتب العلمية ، ومن أمثلة عنايتهم بذلك مارُوي عن سليمان بن يزيد : أن علي بن أبي طاهر لما رحل إلى الشام وكتب الحديث جعل كتبه في صندوق وقيَّره [2] وركب البحر ، فاضطربت السفينة وماجت فأُلقي الصندوق في البحر ، ثم سكنت السفينة ، فلما خرج منها أقام على الساحل ثلاثا يدعو الله ، ثم سجد في الليلة الثالثة وقال : إن كان طلبي ذلك لوجهك وحبِّ رسولك فأغثني بردِّ ذلك ، فرفع رأسه فإذا الصندوق مُلْقًى عنده، فَقَدِم وأقام برهة ، ثم قصدوه لسماع الحديث فامتنع منه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٦ ، تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣٠ .

(٢) يعني طلاه بالقار حتى لايصل إليه الماء .

قال : فرأيت النبي ﷺ في منامي ومعه علي رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ : ياعلي [1] من عامل اللهُ بما عاملك به على شط البحر ؟ ! لاتمتنع من رواية أحاديثي ، قال: فقلت: قد تبت إلى الله ، فدعا لي وحثني على الرواية [2] .

فهذا مثل من العناية بكتب العلم حيث حفظها علي بن أبي طاهر من وصول الماء إليها، وكان حفظه لها متقنًا حيث بقيت مدة في البحر ولم يتسرب الماء إليها ، وهو بهذا قد أخذ بجانب الحذر والاحتياط ولم يغتر بجانب السلامة التي هي الغالب وهذا دليل على الحزم وبُعد النظر .

وقد حصل له بفقد كتبه حزن شديد جعله ينفرد من قافلته ويبقى على شط البحر ثلاثة أيام يدعو الله تعالى أن يمنَّ عليه بعودة صندوق كتبه ، وكان في حال تلهف ورجاء بالغ ولم ييأس من رحمة الله تعالى ، فأكرمه سبحانه واستجاب دعاءه وردَّ عليه كتبه سليمة لم يؤثر عليها البحر .

ولكنه رحمه الله تعالى غفل عن أهم مجال من مجالات شكر المنعم تبارك وتعالى على تلك النعمة ، حيث امتنع عن نشر العلم ، فتداركه الله

---

(١) يعني علي بن أبي طاهر .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٨٨ .

سبحانه برحمته وهيأ له تلك الرؤيا الصالحة التي غيَّر بسببها منهجه واهتم بنشر العلم .

ومما يستحق الإعجاب والثناء ماقام به الإمام أبو عبد الله محمد بن علي المازري من دراسة علم الطب إلى جانب تفوقه في العلوم الدينية ، قال الإمام الذهبي : قيل إنه مرض مَرْضَةً فلم يَجِدْ من يعالجه إلا يهودي ، فلما عوفي على يده قال :لولا التزامي بحفظ صناعتي لأعدَمْتُك المسلمين، فأثَّر هذا عند المازري فأقبل على تعلم الطب حتى فاق فيه ، وكان مما يفتي فيه كما يفتي في الفقه[1] .

وهذا الخبر يصور لنا حقد الأعداء على المسلمين وخاصة على علماء الدين الذين يعتقدون أنهم سبب قوة المسلمين ، وامتداد حيويتهم ووعيهم على مر الأجيال .

فمِنْ منطلق هذا الحقد الدفين صرح ذلك الطبيب اليهودي أنه يود قتل ذلك العالم الجليل حتى يضر بقتله المسلمين .

ومن صور معاناة العلماء ماذُكر عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سمعت أبي يقول : لما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري صرنا إلى

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٠٥ – ١٠٦ .

الجار [1] وركبنا البحر وكنا ثلاثة أنفس، أبو زهير المْوَرَّوذي – شيخ – وآخر نيسابوري ، فركبنا البحر وكانت الريح في وجوهنا فبقينا في البحر ثلاثة أشهر ، وضاقت صدورنا ، وفني ماكان معنا من الزاد ، وبقيَتْ بقية، فخرجنا إلى البر فجعلنا نمشي أياما حتى فني ما كان معنا من الزاد والماء ، فمشينا يوما وليلة لم يأكل أحد منا شيئا ولاشربنا ،واليوم الثاني كمثل ، واليومَ الثالث ، كل يوم نمشي إلى الليل فإذا جاء المساء صلينا وألقينا بأنفسنا حيث كنا ، وقد ضعفَتْ أبداننا من الجوع والعطش والعياء ، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا ، فسقط الشيخ مغشيا عليه ، فجئنا نحركه وهو لايعقل فتركناه ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري قدر فرسخ أو فرسخين فضعفتُ وسقطتُ مغشيا علي، ومضى صاحبي وتركني ، فلم يزل هو يمشي إذ بصر من بعيد قوما قد قرَّبوا سفينتهم من البر، ونزلوا على بئر موسى ﷺ ، فلما عاينهم لوَّح بثوبه إليهم فجاءوه معهم الماء في إداوة فسقوه وأخذوا بيده فقال لهم : الحقوا رفيقين لي قد ألقيا بأنفسهما مغشيا عليهما .

فما شعرت إلا برجل يصب الماء على وجهي ففتحت عيني ، فقلت : اسقني فصب من الماء في ركوة أو مشربة شيئًا يسيرا فشربت

(١) هو ميناء على ساحل البحر الأحمر وكان ميناء المدينة النبوية سابقا .

ورجعَتْ إليَّ نفسي ولم يُرْوِني ذلك القدر ، فقلت: اسقني فسقاني شيئًا يسيرا وأخذ بيدي ، فقلت: ورائي شيخ مُلْقَى ، قال : قد ذهب إلى ذاك جماعة، فأخذ بيدي وأنا أمشي أجر رجلي ، ويسقيني شيئًا بعد شيء ، حتى إذا بلغت إلى عند سفينتهم وأتوا برفيقي الثالث الشيخ ، وأحسنوا إلينا ، فبقينا أياما حتى رجعتْ إلينا أنفسنا .

ثم كتبوا لنا كتابا إلى مدينة يقال لها « رايه » إلى واليهم ، وزودونا من الكعك والسويق والماء، فلم نزل نمشي حتى نفد ماكان معنا من الماء والسويق والكعك ، فجعلنا نمشي جياعا عطاشا على شط البحر ، حتى وقعنا إلى سُلَحفاة قد رمى بها البحر مثل الترس ، فعمدنا إلى حجر كبير فضربنا على ظهر السلحفاة فانفلق ظهرها ، وإذا فيها مثل صفرة البيض ، فأخذنا من بعض الأصداف الملقى على شط البحر ، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحسَّاه حتى سكن عنا الجوع والعطش.

إلى أن ذكر وصولهم إلى مدينة الراية ، وإكرام عاملها إياهم ثم وصولهم إلى مصر[1] .

وهكذا تعرَّض أبو حاتم وصاحباه للموت مرتين وتحملوا تلك الشدائد والأهوال من أجل طلب العلم ، وإن علمًا يحصل بسببه هذا

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٦٤ – ٣٦٦ .

البلاء الكبير لابد أن يرسخ في الأذهان ، وأن يهتمَّ به أصحابه اهتمامًا بالغا ، فقد كان ثمنه باهظا ، بخلاف العلم الذي تُيَسَّر أسبابه فقد يهون على أصحابه .

ومن أمثلة الجد والدأب في طلب العلم وتحصيله ماذكره ابن القزويني عن والده مدرس النِّظَامية قال : حكى لنا الفَراويُّ قال : قدم علينا ابن عساكر فقرأ عليَّ في ثلاثة أيام فأكثر فأضجرني وآليت أن أغلق بابي وأمتنع ، جرى هذا الخاطر لي بالليل ، فقدم من الغد شخص فقال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليك ، رأيته في النوم فقال : امض إلى الفَراوي وقل له : إنْ قَدِمَ بلدكم رجل من أهل الشام أسمر يطلب حديثي فلا يأخذْك منه ضجر ولا ملل ، قال : فما كان الفراوي يقوم حتى يقوم الحافظ أولا [1] .

فهذا مثل على جد الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن عساكر واجتهاده في تحصيل العلم وجمعه من أقطار الدنيا ، فهو لايمل ولا يسأم من طلب العلم وتدوينه لأنه وهب نفسه للعلم وجعله قضيته الكبرى التي تشغل باله ووقته ، فهو لايستريح إلا إذا قرأ أو سمع أو كتب .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٦٥ .

ولقد كانت تلك الرؤيا الصالحة أقوى مساعد لهذا الحافظ الكبير على استخراج ماعند شيخه الفراوي ، فما أعظم قدر الحافظ ابن عساكر الذي يوصي به رسول الله ﷺ !

وذكر الحافظ ابن رجب أن أبا الوفاء علي بن عقيل قال في فنونه: قال حنبلي – يعني نفسه – أنا أقْصُر بغاية جهدي أوقات أكلي حتى أختار سَفَّ الكعك وتَحَسِّيه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضع توفرًا على مطالعةٍ أو تسطير فائدة لم أدركها فيه[1] .

فهذا مثل بليغ في حفظ الوقت وشغله بما ينفع ، وإذا كان هذا العالم وأمثاله يفكرون في اختصار وقت الأكل فإنهم لن يضيعوا أوقاتهم الأخرى بما لا فائدة فيه ولا حاجة إليه من نوم أو كلام أو كسل .

- حضور اجتماع بمؤسسة العلويين –

قد ذُكر لي اجتماع كبير يُعقد كل يوم أحد ، ويديره الشيخ الحِبشي ، وهذه العائلة من العائلات التي تنتسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وتوجد عوائل أخرى في أندويسيا تنتسب إلى هذا النسب، وقد كان تسعة من أجدادهم رحلوا من حضرمت إلى أندونيسيا للتجارة، وقد استوطنوا فيها ، ودخل على أيديهم عدد من أمراء إمارات تلك البلاد، ثم انتشر

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ١٤٦ .

الإسلام في جميع مناطق أندونيسيا،وقد بقي من أحفاد هؤلاء الدعاة عدد كبير،وبعض الأندونيسيين يعظمونهم لانتسابهم إلى النسب الشريف، وهذا الاجتماع يأتي إليه العوام من القرى ، وكل واحد منهم يسلِّم على ذلك الشيخ ويعطيه مبلغا من المال ، وقدَّمني شيخهم هذا فألقيت كلمة عن الأُخوَّة الإسلامية ، والذي يتم في ذلك اللقاء هو التذكير بواجب محبة آل بيت النبي ﷺ ووجوب الولاء لهم ، وقد ذكر مُرافقي أن عدد أولئك الحضور يبلغ عدة آلاف ، وليس لذلك الشيخ ومن معه من عائلته أي دور في دعوة أولئك العوام إلى الاستقامة وبيان أحكام الإسلام لهم ، وإنما دعْوتهم محصورة في تقديس آل البيت .

ولما انتهى ذلك اللقاء الكبير ذهبت أنا ومدير ذلك اللقاء الأخ الحِبشي ومعه بعض الحاشية، ودخلنا في مجلس رأيت فيه أمرًا منكرا، وذلك أني رأيت أناسًا يجلسون في اليسار ومعهم طبول يدقُّون بها، ورأيت أناسًا على اليمين يذكرون الله بأوراد يحفظونها ويرددونها، وقد تعجبت كيف ينحدر العقل ليؤمن أصحابه بهذين الأمرين المتناقضين؟ وكيف يجتمع الهزل الذي نهى عنه الإسلام مع الجد الذي أمر به على الوجه المشروع .

وقد ساءني جدا هذا الوضع الذي أصبح فيه هؤلاء الذين يُطلق الناس عليهم «سادة» لا يمثلون من الإسلام إلا تقديس آل البيت، وكتبت لذلك الشيخ خطابا من خمس صفحات ذكَّرته فيه بموقفه يوم القيامة حينما يحاسَب على تقصيره البليغ في توجيه أولئك الآلاف الذين يتبعونه ويعظمونه وأبلغته أنه مسؤول عن كل ماهم فيه من جهل ونقص في تطبيق الإسلام ، ولم أتمكن من رؤيته بعد ذلك ، فلعله قد استفاد من ذلك التذكير .

وإنني أدعو العلماء والدعاة المنتسبين إلى هذا النسب الشريف وهم على منهج السلف الصالح أن يقوموا بدعوة هؤلاء وأمثالهم في العالم الإسلامي إلى التزوُّد بالعلم النافع والعمل الصالح والتأسي برسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، وأن يعلموا بأنهم – لقرابتهم من رسول الله ﷺ –أعظم مسؤولية من غيرهم في تبليغ الإسلام الكامل الشامل لكل نواحي الحياة .

لقد عمل هؤلاء العلويون في لقاءاتهم الأحدية مع جمهور العامة بما يشبه عمل زعماء الشيعة في أخذهم الخمس من الناس،إلا أن الفرق بينهم هو أن زعماء الشيعة يحددون المبلغ الذي يأخذونه من عموم الشيعة، وهؤلاء لايحددون مبلغا،بل يأخذون ما يعطيهم الناس وإن كان قليلا .

ولقد خالف هؤلاء العلويون وزعماء الشيعة توجيه النبي ﷺ ،

وذلك في قوله لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : « أُعطيكم ما تُرزؤون لا ما تَرزؤون » وذلك حينما طلب منه علي أن يعطي بني هاشم حجابة البيت، وقد كانت حجابة البيت لبني شيبة وكانت سقاية الحجاج لبني هاشم، وكان بنو شيبة يأخذون ما يعطيهم الناس تكريما لهم لقيامهم بحجابة البيت ، بينما كان بنو هاشم يقومون بسقاية الحجاج من زمزم بدون مقابل ، بل كانوا يخلطون ماء زمزم بالزبيب لِـيُحلُّوا به ماء زمزم ، فقول النبي ﷺ لعلي « أُعطيكم ما تُرزؤون » يعني السقاية التي تدفعون فيها من أموالكم للناس « لا ما تَرزؤون » يعني ولا أعطيكم الحجابة التي يدفع الناس لكم فيها من أموالهم .

فهؤلاء الذين ينتسبون إلى آل البيت أو يزعمون محبتهم يأخذون من أموال الناس في مقابل كونهم من آل البيت أو يحبون آل البيت ، فهم بذلك خالفوا توجيه النبي ﷺ وناقضوه .

هؤلاء المقصرون التائهون وأمثالهم قد بدَّلوا الدين الإسلامي وحرفوه فجعلوه عبارة عن التغنِّي بنسبهم الشريف وترديد أمجاد بعض أسلافهم في النسب الذين لم يفهموا الإسلام فهما شاملا ولم يطبقوه تطبيقا كاملا ، واحتفظوا مع ذلك بالشعائر التعبدية والأحوال الشخصية وبعض الجوانب الأخلاقية ، أما الأمور السياسية وإدارة شؤون الحياة

فإنهم يأخذون بمبدأ النصارى « دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر » وهذه كلمة ضالة جاء الإسلام ليقضي عليها وعلى غيرها من مبادئ الجاهلية، فالمسلمون الكُمَّل يؤمنون بقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ – ١٦٣] وغير ذلك من النصوص الشرعية الكثيرة التي تدل على أن الإسلام سياسة وحكم وإدارة لشؤون الحياة كما أنه شعائر تعبدية وأحوال شخصية وجوانب أخلاقية ، والإسلام له عُرًى متعددة ذكر منها النبي ﷺ عروتين بقوله « لتُنقضنَّ عُرَى الإسلام عروة عروة ، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضًا الحكم ، وآخرهن الصلاة »[1].

فإذا قلنا إن المراد بالحكم في الحديث منهجية الوصول إلى الحكم فإن هذه العروة قد نُقضت بعد عهد الخلفاء الراشدين كما ذهب إلى ذلك الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى ، وذلك بما تم من تحويل الخلافة الإسلامية إلى الملك ، أما إذا قلنا إن المراد بالحكم الحكمُ بما أنزل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم من حديث أبي أمامة رضي الله عنه . وصححه الشيخ الألباني – مسند أحمد (٥/ ٢٥١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٨/ ٢٥٢/ رقم ٦٦٨٠) المستدرك (٤/ ٩٢) صحيح الجامع الصغير (رقم ٤٩٥١) .

الله تعالى فإن هذه العروة ظلَّ العمل بها قرونًا عديدة وإن كان العمل بها ينقص أحيانًا إلى أن تمَّ إبدال المحاكم الشرعية بالمحاكم القانونية ووُضعتْ سياسة الحكم على غير قواعد الإسلام ، وقد تم ذلك في هذا العصر الذين نعيش فيه .

وهؤلاء المذكورون لا شأن لهم بالسياسة والحكم ولا يؤمنون بأن ذلك عروة من عرى الإسلام قد ذكرها النبي ﷺ مع الصلاة ، ويستوي عندهم أن يحكمهم دولة إسلامية أو دولة كفرية ، لأن الدول الكافرة لا تتعرض لهم في أداء طقوس دينهم الخاص ، بل تتيح لهم الفرصة الكاملة بخلاف ما إذا قامت دولة إسلامية تطبق الإسلام كاملا .

وهذه لقاءاتهم الأسبوعية التي يبلغ حاضروها الآلاف لم تتعرض لها كل الحكومات المتعاقبة على حكم تلك البلاد ، بينما وقفتْ كل تلك الحكومات التي لا تلتزم بالإسلام الكامل لكل جماعة تدعو إلى تحكيم الإسلام في كل شؤون الحياة .

وهذا البيان ليس خاصا بهؤلاء ، بل يشمل أكثر الطوائف الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي ، وإنما جاء هذا البيان عن تلك الجماعة المذكورة لأن سياق الحديث كان عن ذكر شيء من واقعها .

وأقول هذه الجماعة المذكورة وأمثالها من الجماعات التي تجعل

أكبرهَمٍّ أفرادها وقادتها هو الاعتزاز بشرف النسب وعقد اللقاءات ومواصلة النشر من أجل ترسيخ هذه العقيدة في قلوب الأتباع وتهيئة وجود مُمَيَّز لها على سائر المسلمين .. أقول لهم : إن هناك قضية عظمى يجب أن يشارك فيها جميع المسلمين ؛ وهي فهم الإسلام كاملا كما جاء من عند الله تعالى ثم تطبيقه كاملا كما جاء من عنده سبحانه ، فهذه القضية لا يُعذر بالإخلال بها أحد من المسلمين ، وهذا هو العلم النافع والعمل الصالح ، والذين يطبقون الإسلام كاملا كما جاء من عند الله بعد العلم الصحيح والفهم الثاقب هم المتقون ، وقد جاء ذكر المتقين في القرآن الكريم في أكثر من مائتي آية ، وقد أخبر الله سبحانه بأن هؤلاء المتقين هم أكرم الناس عنده تعالى﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] وتفاضُل المسلمين يكون حسب تفاضلهم في التقوى التي هي التطبيق الكامل للإسلام ، فميزان الكرامة هذا ينطبق على جميع المسلمين ، ويستطيع كل مسلم مهما كان نسبه ولغته ووطنه ولونه أن ينافس في بلوغ الدرجات العالية في هذا الميزان ، يبقى بعد ذلك معيارٌ خاص للأفضلية ؛ وهو أن المنتسبين إلى النسب الشريف الذي يربطهم برسول الله ﷺ لهم أفضلية خاصة بعد الأفضلية العامة التي هي التفاضل بالتقوى ، ولكن هذه الأفضلية مشروطة ببلوغ الدرجات العالية من

التقوى ، إذ أنه لا يستساغ في الإسلام أن يكون الفساق من أهل المعاصي هم أفضل المسلمين ، كما لا يستساغ في الإسلام أن يكون القاصرون في فهم الإسلام الكامل والمقصرون في تطبيقه كاملا كما جاء من عند الله تعالى هم أفضل المسلمين ، وذلك كما جاء في قول رسول الله ﷺ «من بَطَّأَ به عمله لم يسرع به نسبه » أخرجه الإمام مسلم رحمه الله [1].

فإذا كان أولئك المنتمون لذلكم النسب الشريف قد وصلوا إلى الكمال في العلم النافع والعمل الصالح ، فإنهم أوَّلا يتساوون مع من بلغوا درجتهم في ذلك من غيرهم ، ويزيدون عليهم في فضيلة الانتماء لذلكم النسب الشريف ، فإذا نظرنا إلى طائفة منهم لم يفهموا الإسلام فهمًا شاملا ولم يطبقوه تطبيقا كاملا فإن نسبهم الشريف لا يمكن أن يرفعهم ، ولايمكن أن يصلوا في الفضيلة إلى الذين فهموا الإسلام فهما شاملا وطبقوه تطبيقا كاملا .

ومن هذا نعلم أن أصحاب هذا النسب الشريف بإمكانهم أن يكونوا أفضل المسلمين ؛ وذلك فيما إذا بلغوا القمة في التقوى ، نظرًا لأن المسلمين بإمكانهم أن يتنافسوا معهم في بلوغ الدرجات العُلَى من التقوى وليس بإمكان عموم المسلمين أن يتنافسوا معهم في شرف النسب ، وهذا

---

(١) صحيح سلم ، كتاب الذكر ، باب ١١ (٤/ ٢٠٧٤ ، رقم ٢٦٩٩) .

الفهم يدفع المنتسبين إلى هذا النسب الشريف إلى أن يبذلوا جميع طاقاتهم في التفوق في التقوى؛وذلك بفهم الإسلام شاملا كما جاء من عند الله تعالى وتطبيقه كاملا كما جاء من عنده سبحانه ليصلوا إلى الكمال ، وذلك لتميُّزِهم في مجال خاص لا ينافسهم فيه أحد ؛ وهو انتماؤهم إلى ذلكم النسب الشريف .

وأنا أطبق هذا في حياتي ، فأنا لا أتقدم أحدًا من المنتمين إلى هذا النسب الشريف في الصلاة بالجماعة إذا كان ممن بلغوا درجة الكمال في التقوى .

ولاشك أنه يستثنى من هذه المعايير الصحابة الذين جاء تفضيلهم عن رسول الله ﷺ بأحاديث ثابتة ، فمن ذلك العشرة المبشرون بالجنة فإنهم أفضل من غيرهم من غير نظر إلى النسب ، ومن ذلك أن الصديق أبا بكر هو أفضل هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ ثم الفاروق عمر رضي الله عنهما ، وذلك كما جاء في أحاديث ثابتة ليس هذا هو موضع ذكرها .

ومن ذلك أن الإمامة العظمى تكون في الصالحين لها من قريش لقول رسول الله ﷺ « إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين » أخرجه الإمام البخاري رحمه الله [1]، ولقوله

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأحكام ، باب الأمراء من قريش (١٣/ ١١٤ رقم ٧١٣٩).

ﷺ « الخلافة في قريش » قال الحافظ الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات[1] .

ولم يَرِدْ في السنة أن الأئمة من آل البيت النبوي فقط .

وليس المقصود بالدعوة إلى الاهتمام بالسياسة أن يقوم المسلم بأعمال يتعجل بها فيضر نفسه ومن حوله ، وإنما المقصود أن يكون هذا الأمر في منهج كل جماعة إسلامية من ناحية التعليم والتربية كأي تكليف آخر من تكاليف الإسلام ، ثم تأتي مرحلة العمل ، وهي محكومة بالاستطاعة، لقول رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »[2] .

فهذا الأمر ونحوه من الأمور التي فيها مجابهة للمسؤولين أو للمجتمع لابد أن يكون تنفيذه مقيَّدًا بالحكمة .

بقية أخبار الدورة :

من الأشياء المستطرفة التي وجدناها في أندونيسيا أن الأندونيسين يشربون الماء عاديًّا غير مبرَّد ويشربون الشاي باردًا ، وقد انسجمت

---

(١) مجمع الزوائد (٤/ ١٩٢) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب ٧٣ (٢ / ٩٧٥ ، رقم ١٣٣٧) ، صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب ٢ (١٣/ ٢٥١ ، رقم ٧٢٨٨) .

معهم في ذلك ، فأنا لا أشرب الماء إلا إذا كانت برودته خفيفة جدًّا، ولا أشرب الشاي الحار ، ولكن زميلي الأخ عبد الله بازرعة كان يطلب الماء باردًا ، وقد وضع أصحاب المطعم الذي نذهب إليه ثلجا من أجله، ولايشرب الشاي البارد ، وأنا أُفضِّل السمك على كل أنواع اللحوم لأن الاستمرار عليه لايضر بخلاف اللحوم الأخرى ، والسمك متوافر في كل المطاعم التي ذهبنا إليها .

وفي غير أندونيسيا كالبلاد الأوربية والبلاد التي تستورد اللحوم فإنني لا أطمئن إلى كون اللحم حلالا ، فكنت أجد في السمك مخرجا، أما في أندونيسيا فإننا نطلب أحيانًا اللحم المشوي الذي يكون في أعواد، ويسمونه « ساتيه» وذلك للطمأنينة من حِلِّ ذلك اللحم .

وبهذه المناسبة فإن أحد الطلاب سار معي أنا وصاحبي الأخ عبدالله فدخلنا في مطعم وطلبنا السمك كالعادة ، فتغير وجه الطالب وتمتم بكلام فقلنا له : مالك ؟ قال : أنا آكل السمك كل يوم فكنت أريد الدجاج، فطلبنا له لحم دجاج وقلنا له : إن توافر السمك عندكم ورُخص ثمنه يشبه توافر الدجاج عندنا ورخص ثمنه ، فكما أنك تفضِّل الدجاج فنحن نفضل السمك .

دورة في النمسا

في عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م تم تكليفي أنا وفضيلة الدكتور عبدالله بن عبد العزيز المصلح بإقامة دورة في«النمسا»وذلك من قِبَل هيئة الإغاثة الإسلامية،وحضر في الدورة عدد من الأساتذة والمفتين ، من النمسا وماحولها، وقد قمت أنا والدكتور عبد الله بإلقاء المحاضرات في تلك الدورة.

وفي « فيينا » عاصمة النمسا بدأت بكتابة كتابي الكبير « التاريخ الإسلامي / مواقف وعبر » ، وقد كنت أحمل معي في كل أسفاري أوراق العمل في التأليف، وقد حملَتْ تلك الكتب ذكريات تلك الرحلات ، وذلك لأنني كلما أعدت قراءة تلك الكتب أذكر البلاد التي كتبت فيها موضوعاتها .

وفي إحدى الأمسيات وصلنا مع مرافقينا إلى جبل في فيينا قد كتب بلغة تلك البلاد أن ذلك الجبل قد تم حوله إيقاف المد الإسلامي في القتال الذي دار بين جيوش أوروبا والعثمانيين ، وقد كان سلطان العثمانيين قد اضطر لإيقاف القتال في أوروبا من أجل أن يصد هجمات الصفويين القادمين إلى بلاده من إيران، وإنه بقدر ما كانت تلك الكتابة فخرًا للأوربيين فإنها كانت ذكرى مأساة في الواقع الإسلامي .

هذا وقد خرجنا في يوم من الأيام إلى منطقة «سالزبورج»وهي

منطقة مرتفعة باردة ، وكان قُطب الرَّحَى في تلك الرحلة الدكتور عبد الله المصلح،وأنا كنت أجد راحة وطمأنينة إذا سافرت معه ، ذلك لأنه كان قوي الشخصية ، ولا يذهل عند المفاجأة ، بل يتصرف بحكمة ، وقد يطلب القارئ مثالا لذلك فأذكر له ما ذكره لي الدكتور عبد الله حينما سافر إلى أمريكا قبل سنوات لما كانت نظرة الأمريكيين عن المسلمين معتدلة ، وقد كان في الولاية التي ذهب إليها مسلمون أمريكان يعملون في الجيش الأمريكي ، فذكروا له أنهم قدَّموا مطالب للمسؤول عن القطاع العسكري فلم يستجب لها ، فقال:أنا أذهب إليه وأكلمه، فذهب إليه وأخبره مدير مكتبه بأن أحد علماء المسلمين العرب سيقابله، فلما سُمح له بالدخول ودخل وجد ذلك المسؤول قد رفع رجليه فوق مكتبه، ففهم الدكتور عبد الله أن تلك الحركة إهانة له،فتصرف في الحال ، وذلك بأن مشَى إليه على قفاه حتى وصل إلى مكتبه،فأدرك ذلك المسؤول العسكري أنه أمام رجل عظيم،فأنزل رجليه،ثم كلمه عن طريق المترجم عن طلبات المسلمين الأمريكان العاملين في الجيش فوعده بتحقيقها .

وكان الماء شديد البرودة في تلك الجهة فلم استطع الوضوء إلا بمشقه لأنني من أبناء مكة المكرمة ، أما الدكتور المصلح فإنه قال : هذا عادي جدا عندنا في «أبها» .

ولما حانت الصلاة صلينا جماعة في حديقة ، وأَمَّنا الدكتور المصلح ،

فكان ذلك منظرًا إسلاميًّا رائعًا ، وكان أهل تلك البلاد ينظرون إلينا بإكبار واحترام .

ومن الوقائع الجيدة التي جرت من الدكتور المصلح أنه التقى في الفندق الذي نسكن فيه بأحد أمراء الخليج ، فذهبنا معه إلى غرفته ، ولما علم بذلك المسؤول عن هيئة الإغاثة في «النمسا» أحضر معه امرأتين من «المجر» دخلتا في الإسلام ، وكان معهما مرافق يتكلم بالعربية ، فذكر أنهما لما أسلمتا فقدتا عملهما ، وأن هناك بيتًا كبيرًا يريد أن يشتريه لهما ولرفيقاتهما من المسلمات حديثا لِيَقُمن بالعمل فيه في الخياطة ونحو ذلك ، فكلم الدكتور المصلح ذلك الأمير فوافق على شراء ذلك البيت لهما ، وهذا مجال دعوي رحب ، يُحسنه الدكتور المصلح ، وذلك بأن يجعل من نفسه واسطة خير بين المحتاجين والمنفقين ، وأنا لا أحسن هذا المجال، ولله في خلقه شؤون .

هذا ومن المحاضرات التي ألقيتها في تلك الدورة محاضرة بعنوان «**مواقف في التوجيه التربوي**» وهذا موجز تلك المحاضرة :

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث شهاب بن خراش عن عمه وغيره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ثلاث

يصفِّين لك ود أخيك : تبدؤه بالسلام إذا لقيته ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه[1] .

فهذه درر من توجيهات أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه التربوية ، التي تهدف إلى تصفية الود بين الإخوة ، وما أحوج المسلمين إلى المودة بينهم وتصفية قلوبهم من الغش والكدر ، فالبدء بالسلام إعلان بالمودة ، والتوسعة في المجلس إظهار للحفاوة والعناية ، وإخراج للأخ القادم من الحرج، والدعوة بأحب الأسماء مراعاة للشعور ، وكلها تؤدي إلى تحقيق المحبة وتصفيتها من الكدر.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من كتم سره كانت الخيرة في يديه ، ومن عرَّض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن ، ولاتظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءًا وأنت تجد لها من الخير مدخلا ، وضَعْ أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه مايغلبك ، ولاتكثر الحلف فيهينك الله، وما كافأت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك بإخوان الصدق ، اكتسبهم فإنهم زين في الرخاء عُدَّة

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٥٩ .

عند البلاء [1] .

فهذه حكم بالغة ، وكل حكمة تعبر عن فصل من فصول التربية .

من مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عامر بن شراحيل الشعبي قال قال علي بن أبي طالب ﷺ : إني لأستحيي من الله أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، أو جهل أعظم من حلمي ، أو عورة لايواريها ستري ، أو خلة لايسدها جودي [2] .

فهذه أربع صفات من النقص قابلهن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بأربع صفات من الكمال ، فالحياء من الله عز وجل يقتضي من الإنسان أن يتصف بالعفو عند المقدرة ، وذلك فيما إذا لم يكن الذنب فيه حد من حدود الله تعالى،وأن يتصف بالحلم الذي يحتوي جهل الجاهلين، وأن يكون ستارا لعيوب الناس،وأن يتسع كرمه لسد حاجة من احتاج إليه .

من مواقف سلمان رضي الله عنه وتوجيهاته :

من مواقفه رضي الله عنه في العلم والفقه في الدين مارواه سليمان

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٥٩ .

(٢) تاريخ دمشق ٤٢ / ٥١٧ .

ابن المغيرة عن حميد بن هلال قال : أُوخِي بين سلمان وأبي الدرداء[1] ، فسكن أبو الدرداء الشام ، وسكن سلمان الكوفة، وكتب أبو الدرداء إليه، سلام عليك أما بعد فإن الله رزقني بعدك مالاً وولدًا ، ونزلت الأرض المقدسة ، فكتب إليه سلمان : اعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد ، ولكن الخير أن يعظم حلمك، وأن ينفعك علمك ، وإن الأرض لاتَعْمل لأحد[2] اعمل كأنك ترى[3] واعدُدْ نفسك من الموتى[4] .

ولايُظن بأبي الدرداء وهو العالم الرباني أنه قد انخدع بالمال والولد والإقامة في الأرض المقدسة ، وإنما كان يتحدث بنعمة الله عليه في ذلك ، ولكن لشدة حساسية سلمان من جانب الاغترار بمظاهر الحياة الدنيا ، والاتكال على شرف المكان قدَّم هذه الموعظة لأبي الدرداء مع علمه بفقهه وورعه من باب التذكير ، وإذا كان مثل أبي الدرداء بحاجة إلى هذه الموعظة فكيف بمن هم دونه في العلم والورع بمراحل ؟!

ومن كلامه البليغ رضي الله عنه قوله في بيان علاقة القلب بالجسد :

---

(١) يعني بذلك المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

(٢) يعني فلا يغرنك كونك في الأرض المقدسة .

(٣) يعني كأنك ترى الآخرة .

(٤) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٤٨ .

مثل القلب والجسد مثل أعمى ومقعد ، قال المقعد : إني أرى تمرة ولا أستطيع أن أقوم إليها فاحملني ، فحمله فأكل وأطعمه[1] .

فهذا المثل مكون من مشبه ومشبه به فلنبين المشبه به حتى يتبين المشبه ، فالمشبه به رجلان أحدهما أعمى سليم الجسم والآخر مقعد سليم البصر ، وأمامهما تمرة ، فالأعمى لايبصر التمرة حتى يستفيد منها والمقعد يبصرها ولكن لاسبيل له إلى الوصول إليها ففكر المقعد في طريقة الاستفادة منها فقال للأعمى : احملني إليها فحمله فأخذها وأكلا جميعًا .

أما المشبه فهو الجسد والقلب ، فالجسد يشبه الرجل الأعمى لأنه لايبصر طريقه ولايصل إلى مايريد بمفرده ، والقلب يشبه الرجل المقعد لأنه يبصر بالعقل ولكنه يحتاج إلى جسد يحمله حتى يستطيع تنفيذ مايفكر به .

فإذا أراد الإنسان القيام بعمل صالح أو طالح فإن العقل يأمر الجسد بحَمْله حتى يتم القيام بذلك العمل من العقل والجسد ، فالجسد مطيَّة العقل ، فإذا كان العقل سليما لم يحمل مطيته على المهالك ولم يُدخلها في الظلمات .

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٤٧ .

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما :

من ذلك ماذكره ابن الجوزي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :ياصاحب الذنب لاتأمننَّ سوء عاقبته،ولَا يتبع الذنبَ أعظم من الذنب إذا عملتَه :قلةُ حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب الذي صنعته، وضَحِكُكَ وأنت لاتدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحُك بالذنب إذا عملته أعظم من الذنب، وحزنُك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به،وخوفُك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولايضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته[1] .

فهذا تذكير من ابن عباس رضي الله عنهما بمايجب أن يكون عليه المسلم من اليقظة والإحساس،والشعور برقابة الله عز وجل وعلمِه الدقيق بكل مايصدر من العبد حتى حديث النفس وخلجات الضمير .

من مواقف أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه :

قال الحافظ ابن كثير : وقال معاوية : أفضل الناس من إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا غضب كظم ، وإذا قدر غفر ، وإذا وعد

(١) صفة الصفوة ١/ ٧٥٤ .

أنجز، وإذا أساء استغفر [1] .

ففي هذا الخبر جمع أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه دررا من الحكم ، وهي الشكر عند الرخاء ، والصبر عند الابتلاء والتحكم في السلوك عند الغضب ، والعفو عن المقدرة ، والوفاء بالوعد، والاستغفار عند الإساءة .

من مواقف أبي حازم رحمه الله :

من وصايا أبي حازم ماجاء في قوله : لاتعادين رجلا ولا تناصبنَّه حتى تنظر إلى سريرته بينه وبين الله،فإن يكن له سريرة حسنة فإن الله لم يكن ليخذله بعداوتك،وإن كانت له سريرة رديئة فقد كفاك مساوئُه،ولو أردت أن تعمل به أكثر من معاصي الله لم تقدر [2] .

فهذا توجيه جيد لأمر مهم ، وهو أن المؤمنين الصادقين في هذه الحياة ليسوا وحدهم في الميدان ، بل هم مع الله تعالى بالمحبة والإخلاص والطاعة ، والله جل وعلا معهم بالنصر والتأييد، فإذا هم صدقوا في حبهم لله تعالى وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه فإنه جل وعلا لن يخذلهم من أجل أعدائهم وأعدائه .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٤١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٩٨ .

من مواقف أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان رحمه الله :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر بكر السهمي قال: سأل رجل عبد الملك بن مروان الخلوة، فقال لأصحابه: إن شئتم ، فلما تهيأ الرجل للكلام قال له: إياك أن تمدحني فإني أعلم بنفسي منك، أو تكْذِبني فإنه لارأي لمكذوب،أو تسعى إليّ بأحد، وإن شئت أقلتك، قال: أقلني ، فأقاله [1] .

من مواقف إبراهيم بن أدهم رحمه الله :

ومن الوصايا التي جاءت في التزهيد في الدنيا والترغيب بالآخرة مارُوي عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه قال : وأيُّ دين لو كان له رجال! من طلب العلم لله كان الخمول أحبَّ إليه من التطاول، والله ما الحياة بثقة فيُرجَى نومُها ، ولا المنية بعذر فَيُؤمَن عذرُها، فَفِيمَ التفريط والتقصير والاتكال والإبطاء ؟ قد رضينا من أعمالنا بالمعاني، ومِنْ طَلَبِ التوبة بالتواني ، ومِنَ العيش الباقي بالعيش الفاني [2] .

وقد صدق إبراهيم بن أدهم فإن الإسلام دين عظيم إذا وُفِّق برجال يحملونه ويقيمون به المجتمع السليم ويغزون به العالم ، ولكنه

---

(١) تاريخ دمشق ٣٧ / ١٤٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٩٤ .

بدون هؤلاء الرجال يبقى معاني سامية تحملها النصوص ولا وجود لها في أرض الواقع .

ثم بين أن من الأمراض القلبية الفتاكة التي تمنع تكامل الرجال الذين يمثلون هذا الدين أن يصاب المسلمون بالغرور والكبرياء والعمل للجاه والسمعة،وأن تكون نظرتهم محدودة بالحياة الدنيا، حيث يصاب العبد بطول الأمل ، ونسيان الموت ،والاشتغال بالدنيا الفانية عن الأخرى الباقية.

دورات في دول وسط آسيا

في عام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م قامت هيئة الإغاثة الإسلامية بترتيب لإقامة عدد من الدورات في دول وسط آسيا بعد تحررها من الاتحاد السوفياتي ، وقد تم تكليفي بالإشراف على تلك الدورات ، وكان نائبي في تلك المهمة الأخ الدكتور عبد الحميد بن جعفر الداغستاني ، وقد التقينا في مدينة جدة عدة لقاءات مع المشاركين في تلك الدورات وخاصة الذين سيتم إسناد إدارة الدورات لهم ، وكان من توفيق الله لي أنني ألقيت فيهم كلمة جاء فيها أن من مقتضيات المنهج الدعوي المعتدل أن لا يخالَف أهل تلك الدول في السُّنَ الظاهرة التي يلتزمون بها ، وقلت لهم : إذا ذهبتم إلى بلاد يلتزم أهلها بالمذهب الشافعي فاجهروا بالبسملة ، وإذا ذهبتم إلى بلاد يلتزم أهلها بالمذهب الحنفي فلا تجهروا بكلمة آمين ولاترفعوا السبابة عند التشهد ، وقلت لهم : لاتتعرضوا لمعتقدات الناس التي هم متمسكون بها وذلك كالتصوف مثلاً .

وقد كنت في عدد من المناسبات استشهد على ذلك بالحديث الصحيح الذي روته عائشة رضي الله عنها وهو قول الرسول ﷺ : « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لهدمت الكعبة ولبنيتها على قواعد إبراهيم » الحديث ، فالرسول ﷺ ترك هذا الأمر المهم مراعاة لأحوال

الناس الذين كانوا حديثي عهد بجاهلية ، وكذلك كنت استشهد بعمل الإمام الشافعي رحمه الله عندما زار الكوفة فلم يَقْنُت في صلاة الفجر ، فقيل له في ذلك فقال: كيف أخالفه [يعني أبا حنيفة] وأنا مجاور له ؟

وقد نفعتْ هذه الكلمة – بحمد الله – كما سيأتي .

وقد سافرت أنا والدكتور عبد الحميد داغستاني إلى «طاشكند» التي كنا قررنا أن يكون فيها تنظيم العمل، وقد رأيت من الدكتور عبد الحميد مقدرة إدارية عالية في تنظيم تلك الدورات، وقد وصل الأساتذة المشاركون في تلك الدورات ثم توزعوا في البلاد المخصصة لدوراتهم ، وكان في طاشكند دورة كنت فيها أنا وبعض الأساتذة ، وفي «طاشكند» وجدت كرمًا لم أر مثله في أي بلد آخر ، وذلك لأني رأيت الذين زرتهم في بيوتهم يصنعون سفرة دائمة ، وهي فوق طاولة طويلة وقصيرة الأرجل، ويجلس الناس حولها ، وبالنسبة للأطعمة التي لاتفسد فإنها تبقى دائما فوق تلك السفرة كالعسل والمكسرات ، وبعد مجيء الضيوف يأتون بالأطعمة الأخرى .

وقد رأى الأخ الدكتور عبد الحميد أن نسافر للاطلاع على بعض تلك الدورات، فسافرنا في رحلة طويلة إلى بلاد داغستان ونزلنا في عاصمتها «مَخَجّ قلعة» ولما وصلنا إلى مكان الدورة لم نجد الطلاب ، وقد

رأيت طالبًا يريد أن يدخل فيمنعه أبوه بالقوة،وحضرنا صلاة العشاء فصلى بنا مدير تلك الدورة وجهر بالبسملة وصلى معنا عدد من أولياء أمور الطلاب، وبمجرد أن الإمام جهر بالبسملة أدخلوا أولادهم في تلك الدورة وقالوا:هذا المدير شافعي مثلنا وقد طلبوا منه أن يصلي بهم صلاة الجمعة.وقد كنا نريد العودة إلى طاشكند فاضطررنا إلى السفر إلى موسكو لتوافر الرحلات الجوية هناك .

هذا وقد أُصبت في ذلك السفر بتعب شديد،فعزم الأخ عبدالحميد على السفر معي إلى المملكة العربية السعودية وأبقى أحد الإخوة نائبا عنه،وقد دخلت مستشفى جامعة الملك عبد العزيز . وكشفت عند الدكتور عدنان مِرداد ، ولما علم الدكتور عدنان بأني قادم من أوزبكستان قال : أظن أن الذي عندك التهاب في المرارة؛ وذلك لأن أهل تلك البلاد يستعملون زيت القطن وهو يهيج المرارة، ولما كشفت بالأجهزة تبين أن عندي حصاة كبيرة في المرارة، وقد أجرى لي عملية استئصال للمرارة بعد مدة .

أما الأخ عبد الحميد فإنه رجع بعد أسبوع إلى طاشكند فوجد أن الأمور قد تغيرت في أوزبكستان بسبب بعض التصرفات من المسؤولين عن الدورات من جهات أخرى ، وذلك بإظهار بعض الشعارات

الجهادية التي كان أهل تلك البلاد يسمعونها في أفغانستان ، فقامت وزارة الخارجية بإيقاف الدورات وأخذوا جوازات سفر الأساتذة وبقوا في الفندق ، فلما رجع الدكتور عبد الحميد أخذ الأساتذة وذهب بهم إلى الوزارة وطلب مقابلة وزير الخارجية فلم يُمكَّن من ذلك فطلب مقابلة وكيل الوزارة وتكلم معه بكلام قوي وقال له : نحن قد قدمنا من السعودية بصفة رسمية إلى آخر ما قال ، وقد أعاد المسؤولون جوازات السفر للأساتذة ، وتم الاتفاق على إنهاء الدورات بعد أسبوع .

وهذا موقف شجاع حكيم من الأخ الدكتور عبد الحميد داغستاني وهو يدل على مقدرة إدارية وقيادية فائقة .

وقد تم إنهاء تلك الدورات في الموعد المتفق عليه وعاد الأساتذة إلى بلادهم بسلام .

دورة في بلغاريا

في عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م تم اختياري من هيئة الإغاثة أنا وفضيلة الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح لإقامة دورة في «بلغاريا » وقد سافرت أنا والدكتور عبد الله ووصلنا إلى عاصمتها « صوفيا » وكان في استقبالنا رئيس المجلس الإسلامي ، وكان من أصل تركي ، وقد كان المسؤول عن الهيئة هناك قد اختار لنا مكانا سياحيا في أحد الجبال وفيه سكن للأساتذة وللطلاب ، وكان الطلاب بعضهم من بلغاريا وبعضهم قادمون من رومانيا ، وكان فيهم عرب من اليمن ومن شمال أفريقيا ، وقد كان وقت المحاضرات مقسوما بيني وبين الدكتور عبد الله.

وبعد انتهاء الدورة رجعت أنا والدكتور عبد الله عن طريق تركيا وقد بقينا في إسلامبول ثلاثة أيام قمنا فيها بزيارة بعض مساجدها الشهيرة ، وخاصة مسجد محمد الفاتح ، وكان في تلك الأيام مؤتمر حول الأدب الإسلامي ، وقد حضرنا بعض جلساته ، وقد رجعت بعد ذلك إلى « جدة » أما الأخ الدكتور عبد الله المصلح فإنه قد سافر إلى روسيا ليدير مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

ومن الكلمات التي ألقيتها في تلك الدورة كلمة بعنوان : « **مواقف تربوية** » وهذا موجزها :

من مواقف رسول الله ﷺ :

من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من خبر أبي أمامة صُدَي بن عجلان الباهلي رضي الله عنه قال: «إن فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال: يارسول الله ائذن لي بالزنى ، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه مه [(١)]، فقال : ادنه فدنا منه قريبا ، قال : فجلس ، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك ، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، قال: أفتحبه لابنتك ؟ قال: لا والله يارسول الله جعلني الله فداءك ، قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم ، قال: أفتحبه لأختك ؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك ، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم ، قال: أفتحبه لعمتك ، قال: لا والله جعلني الله فداءك ، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم ، قال : أفتحبه لخالتك؟ قال:لاوالله جعلني الله فداءك ، قال:ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه ، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء» [(٢)] .

وهكذا أقنع النبي ﷺ ذلك الفتى بالعدول عن رغبته الجامحة وذلك بنقله من الأنانية والقصور على التفكير بالذات إلى التفكير في مصلحة

---

(١) أي اسكت .

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٥٦ – ٢٥٧ .

أفراد المجتمع الآخرين .

لقد كان – وهو يبدي رغبته في الزنى – يحمل فكرًا عدوانيّا ، فهو لايريد الضرر لأهل بيته ولكنه يطلب الإذن في أن يكون مصدر أذى للآخرين ، ولقد كان – وهو يبدي تلك الرغبة – لايتصور أنه سيهتك أعراض الناس ، ولم تتبلور في مخيلته فكرة المقارنة بين أهله وأهالي الناس الذين سيعتدي على أعراضهم ، فلما أن ساءله النبي ﷺ وعقد له مقارنة بين نساء أسرته ونساء الآخرين تبين له أنه مقدم على جريمة كبيرة وتخريب لبيوت الناس .

وإن أي إنسان عاقل لو تصور أن تلك الضحية التي ستكون هدفا للمعتدين إنما هي إحدى محارمه فإنه ستقشعر نفسه من الزنى وستنقطع عنه وساوس الشيطان .

وإن هذه المحاورة لتبين لنا ما جُبل عليه رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق ، حيث لم ينتهر ذلك الشاب الذي تقدم بذلك الطلب الشاذ ، وإنما أخذه بالحوار الهادئ حتى استل من نفسه سيطرة الشهوات ونزغات الشيطان ، كما تبين لنا من هذه المحاورة مقدرة النبي ﷺ الفائقة على الإقناع وتغيير الاتجاهات الفكرية .

من مواقف أبي الدرداء رضي الله عنه :

من وصايا أبي الدرداء رضي الله عنه المفيدة ماجاء في قوله : تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة، رواه الإمام أحمد من حديث سالم بن أبي الجعد،وقد كان مطبقا لذلك كما روي من حديث عون بن عبد الله قال : سُئلَتْ أم الدرداء : ماكان أفضل عمل أبي الدرداء ؟ قالت: التفكر والاعتبار[1].

وإنما كان التفكر والاعتبار من أفضل الأعمال لأنه لابد أن يصاحبه حضور القلب مع الله تعالى ، وهذا هو الذكر القلبي الذي هو روح جميع العبادات ، فالذي ينظر في مخلوقات الله العظيمة ويتأمل في دقة تكوينها وحسن نظامها ، ومايترتب من النكبات الكبرى لواختل نظام الكون قيد شعرة ، ثم يتأمل في القوة العظمى التي تمسك بنظام الكون .. الذي يفكر هذا التفكير يتقوى إيمانه ويعظم يقينه ، ويخشى الله تعالى عن علم وبصيرة لأنه يكون من العلماء بالله تعالى الذين قال فيهم جل وعلا ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٦٢٨ ، سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٨ .

من مواقف أبي عبد الله البخاري رحمه الله :

من ذلك ماذكره محمد بن أبي حاتم كاتب الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري قال: سمعت أبا عبد الله يقول: ماينبغي للمسلم أن يكون بحالة إذا دعا لم يُسْتَجَبْ له ، فقالت له امرأة أخيه بحضرتي : فهل تبينتَ ذلك أيها الشيخ من نفسك أو جرَّبت؟ قال: نعم دعوت ربي عز وجل مرتين فاستجاب لي ، فلن أحب أن أدعو بعد ذلك فلعله يُنقَّص لي من حسناتي أو يُعجَّل لي في الدنيا، ثم قال: ماحاجة المسلم إلى الكذب والبخل ؟ [1] .

فهذه موعظة جليلة من الإمام البخاري اشتملت على الحث على الاستقامة على الدين والإكثار من الأعمال الصالحة حتى يصل المسلم إلى وضع يكون فيه مستجاب الدعاء لصدقه واستقامته ، وحصوله على رضوان الله تعالى .

مثل من المواعظ المَنَامِيَّة :

من المواعظ التي تفيدها الرؤى الصالحة مارواه عيسى بن محمد الطهماني قال : سمعت الأمير إسماعيل يقول : جاءنا أبونا بمؤدب فعلَّمنا الرفض، فنمت فرأيت النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ،

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٤٨ .

فقال لي : لِمَ تَسُبُّ صاحبَيّ ؟ فوقفت فقال لي بيده فنفضها في وجهي فانتبهت فزِعًا أرتعد من الحمَّى ، فكنت على الفراش سبعة أشهر ، وسقط شعري ، فدخل أخي فقال: أيش قصتك؟ فأخبرته ، فقال اعتذر إلى رسول الله ﷺ ، فاعتذرت وتبت، فما مر لي جمعة حتى نبت شعري [1] .

صاحب هذه القصة هو الأمير إسماعيل بن الأمير أحمد بن أسد ابن سامان بن نوح ، فهو من أمراء دولة آل سامان الذين حكموا بلاد ماوراء النهر .

وهذه الرؤيا التي رآها في صغره رؤيا جليلة ، حيث كان النبي ﷺ فيها يدافع عن صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقد أراد الله تعالى بهذا الأمير خيرا فأنقذه بهذه الرؤيا الصالحة من ذنب كبير قد أصر عليه وهو لايدري أنه قد وقع في أمر يغضب الله تعالى ورسوله ﷺ .

وقد أحدثت هذا الرؤيا لهذا الأمير خوفا من الله تعالى تحول بسببه إلى المرض الطويل،ولم يكن يدرك معنى التوبة النصوح حتى أرشده أخوه إلى ذلك ، فلما تاب إلى الله تعالى ذهب عنه اليأس فذهب عنه المرض .

وقد كان من آثار هذه الرؤيا وتلك التوبة أن تحلَّى بالاستقامة على الدين والتزم المنهج الصحيح بالأخذ عن العلماء الذين لزموا سنة رسول

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ١٥٤ – ١٥٥ .

الله ﷺ وأصحابه .

من مواقف مالك بن دينار رحمه الله :

دخل عليه لصّ فما وجد مايأخذ ، فناداه مالك : لم تجد شيئًا من الدنيا ، فترغبُ في شيء من الآخرة ؟ قال: نعم : قال: توضأ وصل ركعتين ، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد ، فسئل : من ذا ؟ قال : جاء ليسرق فسرقناه[1] .

لقد دخل ذلك اللص منزل مالك بن دينار ليسرق المال مغتنما ظلام الليل وإخلاد الناس إلى النوم، ولم يَدُرْ في خَلَده أن بعض البيوت لايسودها الظلام في الليل ، بل تكون معمورة بأنوار عبادة العبَّاد، ولا يخلد أهلها للنوم ؛ بل يوقظهم شغف الشوق إلى مناجاة الله عز وجل .

لقد دخل ذلك اللص ليسرق المال فسرق مالك بن دينار قلبه إلى الهداية والصلاح ، ولقد كان من حظ ذلك اللص أن وقع في بيت عالم من الزهاد فلم يجد في بيته شيئًا يسرقه فتأثر بوعظ مالك ورجع إلى الله تعالى ، فما أسوأ السارق حينما يُقدم على سرقة المال ! وما أجمل المصلح حينما يُقدم على سرقة القلوب للهداية والاستقامة !

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٦٣ .

وحينما نتأمل في هذا الموضوع نتساءل : كيف أن ذلك السارق لم يعتدِ على مالك بن دينار والحال أن السرَّاق إذا واجهوا أحدًا في البيوت يعتدون عليه ليخلصوا أنفسهم ، أو على الأقل يحاولون الهرب، ولكن ذلك اللص بقي مشدوها أمام مالك بن دينار ، فكان في حال استسلام له، وهذا يقودنا إلى إدراك أن هناك قوة عظمى غير منظورة ؛ هي قوة الله عز وجل ، فهو سبحانه الذي رسَّخ مهابة مالك في فكر ذلك الرجل فاستسلم له ، وذلك مَثَلٌ من حماية الله تعالى ورعايته لأوليائه المتقين .

من مواقف وهب بن منبِّه :

ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة وهب بن منبِّه اليماني رحمه الله من خبر منير مولى الفضل بن أبي عياش قال: كنت جالسا مع وهب بن منبِّه فأتاه رجل فقال لـه: إني مررت بفلان وهو يشتمك ، فغضب وقال: ماوجد الشيطان رسولا غيرك؟ فما برحْتُ من عنده حتى جاءه ذلك الشاتم فسلم على وهب فرد عليه السلام، ومد يده إليه وصافحه وأجلسه إلى جنبه[1] .

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٨٦ .

فهذا فهم جيد من وهب بن منبه حيث رد على ذلك النمام بهذا الرد الذي أبان به أن الشيطان وراء النمامين يسوقهم حتى يستوعبوا مايقال، ثم يسوقهم حتى يخبروا بما سمعوا من قالة الناس بعضهم ببعض .

دورة في إيطاليا

كلفني معالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي الدكتور عبد الله ابن صالح العبيد بالقيام برحلة علمية إلى « إيطاليا » فاخترت الدكتور عبد الله بن مقبل القرني ليكون مشاركا لي في تلك الرحلة ، وكان نعم الصاحب والمعين،وقد اصطحبت معنا ابني أحمد ليساعدنا في الترجمة، وقد سافر على حسابي الخاص وليس ضمن الوفد المبتعث من الرابطة، وذلك في أواخر الإجازة الصيفية عام ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .

وقد وصلنا إلى « روما » عاصمة إيطاليا وذهبنا إلى مبنى المركز الإسلامي الذي يُعدُّ من أكبر المباني الإسلامية في أوروبا .

وقد بقينا في « روما » ثلاثة أيام ، ثم دعانا أحد المسلمين الإيطاليين إلى الذهاب معه إلى « ميلانو» في شمال إيطاليا ، وبقينا فيها أياما، وقد ألقيت عدة كلمات في الجمعيات الإسلامية .

ثم عدنا إلى « روما » وزرنا بعض الجمعيات الإسلامية ، وألقيت في مساجدها وفي مساجد أخرى عددا من الكلمات والمحاضرات .

ومن المحاضرات التي ألقيتها محاضرة بعنوان « **مواقف في الرحمة**» ومما جاء فيها :

مواقف من رحمة النبي ﷺ :

رحمته ﷺ بأصحابه :

من ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث مجاهد بن جبر أن أباهريرة رضي الله عنه كان يقول « آلله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد على كبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع . ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه ، فمرَّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليُشبعني ، فمر ولم يفعل ، ثم مرَّ بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ،ما سألته إلا ليشبعني، فمرَّ فلم يفعل ، ثم مر بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ، ثم قال يا أبا هِرّ ، قلتُ: لبيك رسول الله ، قال : الْحَقْ ، ومضى ، فتبعته ، فدخل فاستأذن فأذن لي ، فدخل فوجد لبنًا في قدح فقال : من أين هذا اللبن ؟ قالوا : أهداه لك فلان – أو فلانة – قال: أبا هِرّ ، قلت لبيك يارسول الله ، قال : الْحَقْ إلى أهل الصُّفة فادعُهم لي . قال : وأهلُ الصفة أضياف الإسلام ، لا يأوُون على أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتتهُ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا ، وإذا أتته هديةٌ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها ، فساءني ذلك ، فقلت : وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنتُ أحق أن أصيب من هذا اللبن شَربةً

أتقوَّى بها، فإذا جاءوا أمرني فكنتُ أنا أعطيهم ، وما عسى أن يَبْلغَني من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺبُدّ ، فأتيتهم فدَعَوتهم، فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم ، وأخذوا مجالسهم في البيت . قال : يا أبا هرّ ، قلت: لبيك يارسول الله ، قال : خذ فأعطهم ، فأخذتُ القدح فجعلتُ أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القدح فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يرد عليَّ القدح فأعطيه الرجل ، فيشرب حتى يروى ، ثم يردُّ عليَّ القدح،حتى انتهيت إلى النبي ﷺوقد روي القوم كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده،فنظر إلي فتبسم فقال:أبا هر، قلت لبيك يارسول الله ، قال : بقيتُ أنا وأنت ، قلتُ صدقت يارسول الله ، قال : اقعد فاشرب ، فقعدتُ فشربت ، فقال : اشرب ، فشربت، فما زال يقول: اشرب ،حتى قلتُ ، لا والذي بعثك بالحق، ما أجدُ له مسلكًا . قال : فأرني ، فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمَّى وشرب الفضلة »[1] .

فهذا حديث عظيم يبين لنا عددًا من الأمور المهمة ومنها في موضوعنا هذا أن فيه مثلاً من رحمة النبي ﷺحيث قام بمواساة أولئك الكرام الذين ضحوا بسعادتهم المادية في مقابل الظفر بالسعادة الروحية فهاجروا من بلادهم وتركوا أموالهم ، فحينما وجد ذلك اللبن تذكَّر على

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٤٥٢ (١١/ ٢٨١) .

الفور أصحاب الصُّفَّة الذين يمسُّهم الجوع أحيانًا فاستدعاهم ليشاركوا أبا هريرة في ذلك اللبن، فهذا مثل بليغ في المواساة الرحيمة والشعور بالمسؤولية عن المسلمين الذين قعدتْ بهم ظروفهم المعيشية عن تحصيل القدر الأدنى للحياة الكريمة .

ويبين لنا هذا الحديث أن من مظاهر السمو الفكري والشفافية الحانية في المشاعر أن يتلمس المسؤول احتياج المحتاجين وإن كانوا في حال غياب عن ناظرَيْه وأن لا يقتصر في نظراته ومشاعره على من حضر عنده أو جمعتْه بهم المجامع،فليس حضور الحاضرين بالذي يرفع من مستوى احتياجهم،وليس غياب الغائبين بالذي يخفض من ذلك، وليست مقاصد مجاملة الحاضرين بالتي تغلب على مقاصد مواساة ذوي الحاجات من الغائبين عند العظماء الذين بلغوا الكمال في الرقي الأخلاقي.

إن الذي ينظر في تقييم الأمور إلى عالم الحس والمشاهدة ويغفل عن عالم الغيب يكون تأثره بجوانب طلب المحمدة والمجاملة أكثر من تأثره بجواذب العاطفة والوجدان .

وإنه من أجل ملاحظة هذه المعاني الكريمة والمقاصد النبيلة نجد أن النبي ﷺقد صبر على احتمال منظر أبي هريرة وهو يتلوَّى من الجوع من

أجل أن يشبع بطونًا أخرى جائعة قد غابت عن ناظرَيْه ولكنها كانت مهيمنة على مخيلته وتفكيره ليُحيْلَ أكبر عدد ممكن من حياة البؤس إلى حياة السعادة وليرى في قسمات وجوههم مظاهر البشر والفرح بدلاً من أن يرى ذلك في وجه رجل واحد .

وفي الحديث إشارة إلى أن الحق في الإسلام يصل إلى مستحقيه دون أن يطلبوه ، ليستوي الجميع في إمكانية الحصول على حقوقهم ولايؤثر في ذلك قوة القوي فيأخذ ولا ضعف الضعيف فيهمَل .

رحمته ﷺ بالحيوان :

لم تقتصر رحمة النبي ﷺعلى الإنسان بل تجاوزت ذلك إلى الحيوان، فمن ذلك ما أخرجه الإمام أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته ، فرأينا حُمَّرةً معها فرخان فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت تُعَرِّش[1] ، فجاء النبي ﷺ فقال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها .

قال : ورأى قرية نمل قد حرقناها ، فقال : من حرق هذه ؟ قلنا: نحن، قال : إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار[2] .

---

(١) يعني ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها .

(٢) سنن أبي داود رقم ٥٢٦٨ ، كتاب الأدب (٥/ ٤١٩) وصححه الشيخ الألباني – صحيح سنن أبي داود ، رقم (٢٣٢٩ – ٢٦٧٥) .

وأخرج أبو داود أيضًا من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم فأسرَّ إليَّ حديثًا لا أحدث به أحدا من الناس ، وكان أحبُّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفًا أو حائش نخل ، قال : فدخل حائطا لرجل من الأنصار فإذا جمل ، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه ، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفْراه[1] فسكت ، فقال: من ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل ؟ فجاء فتًى من الأنصار فقال: لي يارسول الله ، قال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها ؟ فإنه شكَى إلي أنك تجيعه وتُدْئبه[2][3] .

وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه[4] .

وأخرج الواقدي [في بيان أحداث غزوة فتح مكة]:من خبر عبد الله ابن أبي بكر بن حزم أن النبي ﷺ لما سار من المدينة إلى مكة نظر إلى كلبة تَهرُّ على أولادها وهم حولها يرضعونها، فأمر رجلاً من أصحابه يُقال له جُعَيل بن سُراقة أن يَقوم حذاءَها ، لايعرض لها أحدٌ من الجيش

---

(١) أي مؤخر رأسه .

(٢) يعني تتعبه في العمل .

(٣) سنن أبي داود رقم ٢٤٣٩ ، كتاب الجهاد (٣/ ٣٨٦) .

(٤) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٣/ ١٧٥٥ رقم ١٧٥٤ .

ولأولادها[1] .

وهكذا شملت رحمة النبي ﷺ الحيوان فأوقف أحد الصحابة يحرس تلك الكلبة حتى لاتتضرَّر هي وأولادها من مرور الجيش، وهناك أمثلة أخرى من رحمته ﷺ بالحيوانات والطيور .

وفي هذه الأخبار وغيرها تعليم من رسول الله ﷺ لأمته بوجوب الرفق بالحيوان وعدم إيذائه ، ولزوم التيسير عليه في العمل وتوفير الغذاء الكافي له ، فليعلم الذين يظنون أن الدول الغربية هي أول من أنشأ جمعيات الرفق بالحيوان بأن الإسلام قد سبقهم بتوجيه جميع أفراد الأمة الإسلامية إلى الإحسان إلى جميع الأحياء ، وتوفير الحياة الملائمة لكل حي بلا ظلم ولاتقصير .

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

أخرج الحافظ البيهقي من خبر أبي عثمان النهدي قال: استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عهده ، قال: فأتى عمر رضي الله عنه ببعض ولده فقبله، قال: أتقبل هذا؟ ما قبلت ولدا قط ، فقال عمر : فأنت بالناس أقل رحمة هات عهدنا

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٠٤ .

لاتعمل لي عملا أبدا [1].

فهذا استدلال جيد من أمير المؤمنين عمر ، فإن أقرب الناس إلى الإنسان أولاده ووالداه ، فإذا قلَّت رحمته بأولاده أو بوالديه فإن ذلك دليل على قسوة قلبه ، ومن كان كذلك فإنه لا يصلح للولاية، لأن أهم مقومات العدل الاتصاف بالرحمة .

من مواقف عمرو بن العاص رضي الله عنه :

لما انتهى فتح حصن باب اليون – وذلك في فتوح مصر - أراد عمرو بن العاص التحول من مكانه ذلك ، وأمر بالرحيل لاستكمال فتح مصر، فحدثت حادثة واجهها عمرو بن العاص بسلوك إسلامي رفيع يدل على عمق تخلقه بمكارم الأخلاق، وقد ذكر ذلك ابن عبد الحكم رحمه الله حيث يقول : لما فتح عمرو بن العاص الحصن، وهو المسمى الآن بقصر الشمع فكان فسطاطه قبالة الحصن، فلما أراد التوجه إلى الإسكندرية أمر بنـزع الفسطاط من ذلك المكان ، فلما أرادوا ذلك وجدوا عليه عُشَّ يمامة قد باضت وأفرخت، فقال عمرو:اتركوا الفسطاط على حاله احترامًا لليمامة التي عشَّشت عليه [2].

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي٩/ ٤١ – ٤٢ .

(٢) بدائع الزهور ١/ ١٠٣ .

وفي رواية أخرى عند ابن عبد الحكم : أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بقي بها من الروم أمر بنـزع فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو بن العاص : لقد تحرَّم منا بمتحرَّم ، فأمر به فأقرَّ كما هو ، وأوصى به صاحب القصر [1] .

وهذا شاهد حيّ على ماكان يتمتع به المسلمون الأوائل من الرحمة والعطف والمواساة ، فلم تكن الحروب المتواصلة ومشاهد القتل والدماء عاملاً على قسوة قلوبهم وميلها إلى العدوان والانتقام بل وجدهم العالمُ رحماءَ بررة أوفياء ، ولا أدل على هيمنة الرحمة على قلوبهم من هذا الخبر ، حيث ترك عمرو فسطاطه رحمة بالحمامة التي عششت عليه وفرخت فيه .

من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز :

مثل من رحمته بالأيتام :

قال الحافظ ابن كثير : وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشجه صبي منهم، فاحتملوا الصبي الذي شج ابنه وجاؤوا به إلى عمر ، فسمع الجلبة فخرج إليهم فإذا مُرَيئَة تقول : إنه ابني وإنه يتيم ، فقال لها عمر : هوِّني عليك ، ثم قال لها عمر : أله عطاء في الديوان ؟ قالت: لا قال: فاكتبوه في الذرية ، فقالت زوجته فاطمة : أتفعل هذا به وقد شجَّ

---

(١) فتوح مصر / ٦٨ .

ابنك ؟ فعل الله به وفعل، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية ، فقال : ويحك إنه يتيم وقد افزعتموه ! [1] .

وهكذا يشمل لطفه ذلك اليتيم مع إساءته إلى أحد ابنائه ، ويُحظى منه بالتعويض المالي مقابل ذلك الفزع الذي حصل له ، فما أبلغ رحمة عمر، وما أرق مشاعره ، وما أسمى تفكيره في معاملة إخوانه المسلمين !!

مثل من رحمته بالغلمان :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبدالعزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: قال لي رجاء بن حيوة : ما أكمل مروءة أبيك ، سمرت عنده ذات ليلة فعشَى السراج فقال لي : ماترى السراج قد عشى؟ قلت: بلى ، وإلى جانبه وصيف راقد ، قال قلت: ألا أنبهه ؟ قال: لا: دعه يرقد [2] ، قال : قلت : أفلا أقوم أنا ؟ قال: لا ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه، قال: فوضع رداءه ثم قام إلى بَطَّة زيت معلقة فأخذها فأصلح السراج ثم ردها إلى موضعها ثم رجع، قال : قمت وأنا

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥٠ .

(٢) وفي رواية ابن كثير "لا أحب أن أجمع عليه عملين" .

عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز [1] .

فهذا الخبر يدل على قلب كبير يعرف مكارم الأخلاق ويقدرها . فهو يؤثر الرحمة بالمستخدمين على القسوة عليهم ، ويؤثر إكرام الضيف على تكليفه بخدمته مع أنه أمير المؤمنين وأعظم حاكم على وجه الأرض آنذاك ، فالرحمة والتواضع من أخلاق العظماء ، ولايتصف بهما إلا من تجرد من حظ النفس وعاش للآخرين بفكره وجسمه ووقته .

من مواقف سفيان الثوري رحمه الله :

إن من أخبار الرحمة بالحيوان ما روي عن الإمام الرباني سفيان الثوري ورحمته بالطائر ، فقد أخرج أبو نعيم من حديث عارم قال : أتيت أبا منصور أعوده فقال لي :بات سفيان في هذا البيت ، وكان هنا بلبل لابني ، فقال : مابال هذا محبوسا؟ لوخُلِّي عنه ،قلت : هُوَ لابْني وهو يهبه لك،قال:لا ولكن أعطيه دينارًا ، فأخذه فخلَّى عنه ، فكان يذهب ويرعى فيجيء بالعَشِيّ فيكون في ناحية البيت ، فلما مات سفيان تبع جنازته فكان يضطرب على قبره ، ثم اختلف بعد ذلك ليالي إلى قبره فكان ربما بات عليه،وربما رجع إلى البيت،ثم وجدوه ميتا عند قبره،فدفن عنده .

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٢٥ – ٢٢٦ ، وانظر الزهد للإمام أحمد /٢٩٨ ، والبداية والنهاية ٩/ ٢٠٣ .

قال الذهبي : أبو منصور هو بسر بن منصور السَّليمي كان سفيان مختفيا عنده بالبصرة بعد أن خرج من دار عبد الرحمن بن مهدي ، قاله الطبراني[1] .

وهكذا أدركت رحمة هذا العالم الرباني ذلك الطير المحبوس ، وساءه تقييد حريته ، وهذا ثمرة من ثمرات العلم النافع ، وهذا يعني أن شعوره بمشاعر إخوانه المسلمين أعظم من ذلك بكثير .

ولقد كان هذا الإمام مُربِّيا ناجحا ، خبيرًا بأحاسيس النفوس وآلامها وآمالها ، فحينما عرض عليه والد الطفل ذلك الطير هدية ليطلقه أَبَى أن يقبل ذلك ، فهو ليس ممن تدركه الرحمة بالحيوان وينسى أحاسيس الإنسان ، فالطفل متعلق بطيره ، ولو ذهب منه بدون مقابل لأصابه الحزن ولتأثرت نفسه بذلك ، ولكن حينما تتم مواساته ويعوض عنه بما يحب فإنه لن يحصل له شيء من التأثر ، وسيظل محبا لذلك الشيخ الذي جبر قلبه وقدَّر مشاعره .

وإن ماجرى من ذلك الطائر من تعلقه بالشيخ حال حياته وبعد وفاته حدث عجيب ، وإنه يعطي مثلا حيا على مدى الألفة والانجذاب بين الإنسان والحيوان .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٦ .

من مواقف صلاح الدين رحمه الله :

قد كان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله رقيق القلب رحيمًا بالمسلمين عطوفًا عليهم ، وقد بلغت رحمته أعداءه ، ومن ذلك أن امرأة من الفرنج سُرِق ولدها الرضيع وهو ابن ثلاثة أشهر، فوجدت عليه أمه وجدًا شديدًا واشتكت إلى ملوكهم ، فقالوا لها : إن سلطان المسلمين رحيم القلب ، وقد أذنَّا لك أن تذهبي إليه فتشتكي أمرك إليه ، فجاءت إلى السلطان فأنهت إليه حالها ، فرقَّ لها رقة شديدة حتى دمعت عينه ، ثم أمر بإحضار ولدها ، فإذا هو قد بيع في السوق ، فرسمَ بدفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل واقفًا حتى جيء بالغلام ، فأخذته أمه وأرضعته ساعة وهي تبكي من شدة فرحها وشوقها إليه ، ثم أمر بحملها إلى خيمتها على فرس مكرَّمة ، رحمه الله تعالى[1] .

ولاشك أن هذا الموقف وأمثاله من المواقف الأخلاقية كان لها أثر بالغ في رفع سمعة المسلمين الأخلاقية واجتذاب الناس إلى الدخول في الإسلام .

بقية أخبار الرحلة :

سافرت أنا والدكتور القرني وابني أحمد إلى مدينة«نابلي»جنوب

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٦٤ وانظر الروضتين ٤/ ٢٤٥ .

«روما»والتقينا ببعض ممثلي الجمعيات الإسلامية،وتم إلقاء عدد من الكلمات .

وقد وجدت في « نابلي» أعلى نسبة في الغش التجاري في جميع الدول التي ذهبت إليها ، ومن ذلك أن الدكتور عبد الله القرني وابني أحمد قد ذهبا من الفندق إلى سوق تجاري فوجدا أناسًا واقفين يبيعون الهواتف المحمولة ، وكانت رخيصة الثمن، فاشترى الدكتور عبد الله واحدًا منها ، وكان الذي يبيع يحمل عددا من الزنابيل ، فلما سلَّم الدكتور عبد الله قيمة الهاتف أعطاه البائع زنبيلا فيه كرتون مثل كرتون الهاتف الذي نظر إليه ، وجاء إلى الفندق فلما فتح الكرتون وجد فيه قطعة من الاسمنت ، وقد رأيتها ، ثم نزل إلى صاحب الفندق فأطلعه على ذلك فقال: هذا شيء معروف في هذا السوق فهم يغشون السيَّاح ، أما أهل البلد فإنهم يعرفونهم ، فكان من المفترض أن لا تذهبوا لشراء شيء حتى يكون معكم واحد من عمال الفندق ، وقال : لو ذهبنا إليه الآن لانجده لأنه يضع البضاعة مع رجل آخر .

وقد رجعنا إلى « روما» ثم سافرت أنا وابني أحمد إلى جزيرة «صقلية» وذلك بعد سفر الدكتور عبد الله إلى السعودية ، وكان معنا مرافق صومالي يتحدث بالإيطالية ، وقد سافرنا بالطائرة ونزلنا في العاصمة «بالِيرمو » وسكنا في أحد الفنادق .

ومن الأحداث التي وقعت لي لأول مرة ولم تقع لي بعد ذلك أن زلزالاً خفيفا وقع في المدينة ، وأنا كنت جالسا في الحمام فشعرت بأن الكرسي يتحرك ، فكلمت المرافق فنزل وسأل مدير الفندق فقال: إنه حدث زلزال خفيف .

وقد ألقيت كلمات في عدد من المساجد ، وزرت إحدى الجمعيات الإسلامية وألقيت كلمة في مسجدها ، وقد شاهدت بعض المساجد القديمة ، ودخلت مسجدا كبيرا قد حُوِّل إلى كنيسة ، ولم نغادر العاصمة التي تقع في غرب الجزيرة ، وكان بودِّي لوزرنا شرق الجزيرة الذي وصل إليه المسلمون في فتوحاتهم الأولى وقامت بعد ذلك دول إسلامية في الجزيرة ، والآثار الإسلامية هناك أكثر ، ولكن الوقت لايكفي لذلك.

وقد عدنا إلى « روما » وواصلت إلقاء الكلمات في المساجد إلى أن رجعنا إلى المملكة العربية السعودية .

دورة في باكستان

في عام ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م تم اختياري من قِبَل إدارة الدعوة والتعليم في الرابطة للمشاركة في دورة علمية في « باكستان» في عاصمتها «إسلام أباد» وكان الطلاب الحاضرون من دعاة الرابطة ودعاة هيئة الإغاثة الإسلامية وغيرهم .

وقد ألقيت عددا من المحاضرات ، منها محاضرة بعنوان «**تقدير أهل الفضل** » ذكرت فيها عددا من الأخبار فمن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال : كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته ، فقال النبي ﷺ أما صاحبكم فقد غامر [(١)] ، فسلَّم وقال : يارسول الله إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لي فأبى علي فأقبلت إليك ، قال : يغفر الله لك يا أبا بكر (ثلاثا) ، ثم إن عمر ندم فأتى منـزل أبي بكر فسأل : أَثَمَّ أبو بكر ؟ فقالوا : لا ، فأتى إلى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر [(٢)] ، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال : يارسول الله والله أنا كنت أظلم (مرتين) ، فقال النبي ﷺ :

---

(١) أي دخل في غمرة الخصومة .

(٢) أي يتغير ويتلون من الغضب .

إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبتَ وقال أبو بكر : صدقتَ ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لي صاحبي ؟ (مرتين) ، فما أُوذي بعدها[1].

وهذا الإعلان من النبي ﷺ لفضل أبي بكر رضي الله عنه مع اعترافه بالخطأ دليل على اهتمام النبي ﷺ بتمييز أهل الفضل والإشادة بهم ليكونوا أعلام هداية في القدوة الحسنة ، فإن الأمة تقاد برجالها الذين يحملون مبادئها ، وليست تقاد بمجرد المبادئ ، ولهذا وغيره من المقاصد العالية ركز النبي ﷺ في الثناء على أناس معدودين من الصحابة على رأسهم أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما.

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ ابن الأثير من خبر عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: وفد ناس من أهل الكوفة وناس من أهل البصرة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : فلما نزلوا المدينة تحدث القوم بينهم إلى أن ذكروا أبابكر وعمر رضي الله عنهما ، ففضل بعض القوم أبا بكر على عمر، وفضل بعض القوم عمر على أبي بكر ، وكان الجارود بن المُعَلَّى ممن فضل أبا بكر على عمر، فجاء عمر ومعه دِرَّةٌ [أي عصا] فأقبل على الذين فضلوه على أبي بكر فجعل يضربهم بالدرة، حتى ما يتقي أحدهم

---

(١) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٦١ (٧/ ١٨) .

إلا برِجْله ، فقال له الجارود : أَفِقْ أفِقْ يا أمير المؤمنين فإن الله عز وجل لم يكن ليرانا نفضلك على أبي بكر ، أبو بكر أفضل منك في كذا وأفضل منك في كذا ، فَسُرِّيَ عن عمر، ثم انصرف فلما كان من العشي صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ،فمن قال غير ذلك بعد مقامي هذا فهو مفتر عليه ماعلى المفتري[1].

وهكذا رأينا موقفا جليلا من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث غضب غضبا شديدا على من فضلوه على أبي بكر رضي الله عنه ،وقد حمله ذلك على القيام بتأديبهم وهو في حال من التأثر الشديد من مقالتهم ، وإنه حينما يقوم بذلك العمل لايقوم به تمثيلا ولاتظاهرا بالتواضع .

إنه عاصف يعصر قلبه أن سمع من يفضله على أبي بكر ، فظهرت آثار هذا العاصف المشاهَدةُ للناس بصورة التأديب التي قام بها .

ولئن شاهد الناس منه شيئا من مظاهر إجلاله لأبي بكر فإن مايُكِنُّ قلبه أبلغ من ذلك بكثير ، ولا أدل على ذلك من ظهور السرور على وجهه حينما بين له المعلَّى فضل أبي بكر عليه .

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/ ٢١٥ – ٢١٦ .

« أفق أفق يا أمير المؤمنين » كلمات شديدة قالها المعلَّى لعمر ، فهل كان عمر في غيبوبة !! الحقيقة أنه كان في حال من الغضب الشديد الذي هيمن على مشاعره فعبر عنه بذلك التأديب الذي قام به ، ولقد كان المعلَّى بحاجة إلى هذا التعبير لأنه هو السلوك المناسب لرفع حالة الغضب الشديد الذي هيَّج أمير المؤمنين عمر ، فهي كلمات تنبيه قوية ليصغي عمر لما سيقوله له من بيان فضل أبي بكر عليه ، فلما سمع عمر ذلك البيان زال غضبه واطمأنت نفسه ، فأين طلاب الدنيا الذين يتسابقون على بناء أمجادهم الشخصية ليسمعوا هذه الروائع العظيمة من حياة الصحابة رضي الله عنهم !!

ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : « كان عمر يقول: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا، يعني بلالا »[1] .

فأما كون أبي بكر سيدهم فهذا معروف بأنه سيد المسلمين، ولكن الشيء الطريف والرائع أن يصف عمر بلالاً بأنه سيد المسلمين وهو قد كان مملوكًا فأعتقه أبو بكر ، فهذا تواضع كبير من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه واعتراف منه بفضل بلال في الدين ، وهذا من عظمة الإسلام؛

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٧٥٤ ، فضائل الصحابة / ٢٣ / (٧/ ٩٩) .

حيث يرتفع الذين كانوا مملوكين بإيمانهم وتقواهم ليكونوا سادة عظماء الأحرار ، وبهذه الصورة المشرقة لتطبيق المسلمين للإسلام ارتفع الذين كانوا موئل المهانة والذلة ليكونوا من عظماء الرجال وسادة المسلمين .

ومن ذلك ماأخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أبي جحيفة قال: دخلت على علي – رضي الله عنه – فقلت ياخير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: فقال: مهلا ياأبا جحيفة، أوَلا أخبرك بخير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر وعمر ، ويحك ياأبا جحيفة لايجتمع حبي وبغض أبي بكر وعمر في قلب مؤمن، ويحك ياأبا جحيفة لايجتمع بغضي وحب أبي بكر وعمر في قلب مؤمن [1] .

ففي هذا الخبر يبين علي رضي الله عنه فضل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على سائر الناس بعد رسول الله ﷺ ، ويبين أن حبه ملازم لحبهما، وأن من أبغضهما فقد أبغضه، ومن أبغضه فقد أبغضهما، ذلك لأنهم إخوة في الله متحابون، ويسر كل واحد منهما مايسر صاحبيه ويسوؤه مايسوؤهما .

ومن ذلك ماأخرجه اللالكائي والشيرازي وأبو الحسن البغدادي وابن منده وابن عساكر من خبر سويد بن غفلة قال: مررت بقوم

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٢٠١ ، وانظر كنز العمال ١٥/ ١٦ .

يذكرون أبا بكر وعمر وينتقصونهما ، فأتيت عليا فذكرت له ذلك فقال لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل، أخوا رسول الله ﷺ ووزيراه .

قال: ثم صعد المنبر فخطب خطبة بليغة فقال: مابال أقوام يذكرون سيدي قريش وأبوي المسلمين بما أنا عنه متنـزه ومما يقولون بريء وعلى مايقولون معاقب، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لايحبهما إلا مؤمن تقي ولايبغضهما إلا فاجر ردي ، صحبا رسول الله ﷺ بالصدق والوفاء ، يأمران وينهيان ويعاقبان ، فما يجاوزان فيما يصنعان رأي رسول الله ﷺ، ولايرى رسول اللهﷺ كرأيهما رأيا، ولايحب كحبهما حبا، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهما راض، والناس راضون، وولَّى أبا بكر الصلاة ، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ولاه المسلمون ذلك ، وفوضوا إليه الزكاة لأنهما مقرونتان، وكنت أول من لبَّى له من بني عبدالمطلب وهو لذلك كاره، يود أن بعضنا كفاه فكان والله خير من بقي، أرأفه رأفة ، وأرحمه رحمة، وأكيسه ورعا، وأقدمه إسلاما ، شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم بميكائيل رأفة ورحمة، وبإبراهيم عفوا ووقارا ، فسار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبض رحمة الله عليه .

قال: ثم ولَّى الأمر من بعده عمر بن الخطاب، واستأمر في ذلك الناس، فمنهم من رضي ومنهم من كره، فكنت ممن رضي، فو الله مافارق

عمر الدنيا حتى رضي من كان له كارها، فأقام الأمر على منهاج النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه، يتبع آثارهما كما يتبع الفصيل أثر أمه، وكان والله خير من بقي، رفيقا رحيما، وناصر المظلوم على الظالم، ثم ضرب الله بالحق على لسانه حتى رأينا أن ملكا ينطق على لسانه، وأعز الله بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للدين قواما، وقذف في قلوب المؤمنين الحب له، وفي قلوب المنافقين الرهبة منه، شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم بجبريل فظًّا غليظًا على الأعداء، وبنوح حَنِقًا ومغتاظًا على الكافرين، فمن لكم بمثلهما؟ لايُبْلَغ مبلغهما إلا بالحب لهما، واتباع آثارهما، فمن أحبهما فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني وأنا منه بريء ، ولو كنت تقدَّمتُ في أمرهما[1] لعاقبت أشد العقوبة، فمن أُتيت به بعد مقامي هذا فعليه ماعلى المفتري، ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر،ثم الله أعلم بالخير أين هو،أقول قولي هذا ويغفر الله لي ولكم[2] .

فهذه خطبة بليغة بين فيها علي بن أبي طالب أفضلية الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهم، وذكر شيئا من فضائلهما،وهذا موقف يذكر له

---

(١) يعني لو كنت أنذرت مَنْ فعل ذلك .

(٢) كنز العمال ٥/ ١٦ – ١٨ ، تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٦٦ .

في الوقت الذي غالى في حبه وتفضيله بعض التابعين،فقال كلامًا فصلاً في هذا الموضوع ووضع الأمور في نصابها .

من مواقف حذيفة رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: لأن أعلم أن فيكم مائةَ مؤمن أحبُّ إليَّ من حمر النعم وسودها، فقال أصحاب النبي ﷺ: ما تهاجرنا بيننا، ولاتشاتمنا بيننا ولاتفرقنا، قال : هل فيكم من لايخاف في الله لومة لائم؟ ثم بكى ، ثم قال: لا أعلمه إلا عمرَ بن الخطاب فكيف أنتم لو فارقكم ؟![1] .

في هذا الخبر يبين لنا حذيفة رضي الله عنه صفة من الصفات التي تميز بها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وهي قول الحق والعمل به في جميع الظروف والأحوال ، وعدم خشية الناس، وهذا مقام من مقامات الدين العظيمة، وهو دليل على قوة الإيمان ورسوخ اليقين، وبه تصلح أمور الأمة، ويستسلم الناس للحق طوعا أو كرها .

ويقصد حذيفة بذلك الكمالَ في هذه الصفة، وإلا فإن الصحابة يتصفون بهذه الصفة بِنِسَب متفاوتة، ولكنهم لايصلون في ذلك إلى مستوى عمر ولا إلى قريب منه رضي الله عنهم أجمعين .

---

(١) مسند أحمد ١/ ٤٦٣ ، صحيح البخاري ، رقم ٦٧٣٦ ، الفرائض (٢/ ١٧) .

موقف للشِّفَاء بنت عبد الله رحمها الله :

أخرج الحافظ ابن عساكر من حديث سليمان بن أبي حثمة قال: قالت الشِّفَاء بنت عبد الله: - ورأت فتيانا يقصدون في المشي ويتكلمون رويدا فقالت - : ماهذا ؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقا[1] .

نعم فليست العبادة بتصنع الوقار، وإظهار النفوس في حال التخشع المفتعل، بل هي بالاستقامة على منهج الله تعالى الكامل الذي تصبح فيه العلانية صورة من السريرة .

من مواقف محمد بن علي بن الحسين رحمه الله :

قال عروة بن عبد الله: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيف فقال: لابأس به، قد حلَّى أبو بكر الصدِّيق سيفه. قال: قلت: وتقول الصديق؟ قال : فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال: نَعَمْ الصديق، نعم الصدِّيق، فمن لم يقل الصديق فلا صدَّق الله له قولا في الدنيا والآخرة .

وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي : ياجابر! بلغني أن قومًا بالعراق يزعمون أنهم يحبونا ويتناولون أبا بكر وعمر ويزعمون أني

---

(١) تاريخ الإسلام ٤٤/ ٢٨٨ .

أمرتهم بذلك، فأبلغهم عني أني إلى الله منهم بريء ، والذي نفس محمد بيده – يعني نفسه – لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما، وأترحم عليهما ، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما، فأبلغهم أني بريء منهم وممن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وقال: من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة .

وقال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [المائدة : ٥٥] الآية · قال: هم أصحاب محمد ﷺ، قال : قلت: يقولون : هو علي قال : علي من أصحاب محمد ﷺ"[1] .

فهذا كلام جليل من الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين في الاعتراف بالفضل لأهل الفضل، والكلام في إثبات عدالة الصحابة رضي الله عنهم وبيان فضلهم يُعدُّ من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها فاعلها،وخاصة إذا صدر ذلك من علماء آل البيت،حيث نسب إليهم المبطلون كلاما في التنقيص من قدر الصحابة هم منه برءاء .

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٢٣ .

موقف للأمير إسماعيل بن أحمد الساماني رحمه الله :

من أمثلة تقدير أهل الفضل والعلم ماذكره الوزير أبو الفضل محمد ابن عبيد الله البَلْعَمي : سمعت الأمير إسماعيل بن أحمد يقول: كنت بسمرقند ، فجلست يوما للمظالم وجلس أخي إسحاق إلى جنبي إذ دخل أبو عبد الله محمد بن نصر، فقمت له إجلالا للعلم، فلما خرج عاتبني أخي وقال : أنت والي خراسان تقوم لرجل من الرعية ؟ هذا ذهاب السياسة .

قال : فبتُّ تلك الليلة وأنا متقسِّم القلب، فرأيت النبي ﷺ في المنام ، كأنِّي واقف مع أخي إسحاق، إذ أقبل النبي ﷺ فأخذ بعضُدِي ، فقال لي : ثَبَتَ ملكك وملك بنيك بإجلالك محمد بن نصر ، ثم التفت إلى إسحاق فقال : ذهب ملك إسحاق وملك بنيه باستخفافه بمحمد بن نصر[1] .

وهكذا أنقذ الله تعالى بهذه الرؤيا المباركة الأمير إسماعيل بن أحمد ابن أسد بن سامان من تلك الحيرة التي تردد فيها بين الاستمرار في احترام العلماء ، وهو الذي تميل إليه نفسه الطيبة، وبين التمسك بالمظاهر المصطنعة التي يقصد بها إظهار هيبة السلطة، فتبيَّن له من هذه الرؤيا أن

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٨ – ٣٩ .

التواضع للعلماء هو السياسة الحكيمة وهو الذي يعطي ولي الأمر قوة تُبقي على ولايته وتحبب الرعية إليه .

لقاء مع بعض الدعاة :

هذا وقد جرى في أحد اللقاءات الحديث عن سبب فشل الأحزاب الإسلامية في الانتخابات السياسية في باكستان، وبينت أن من أسباب ذلك وجود جماعات إسلامية لاتؤمن بالسياسة كجماعة التبليغ وجماعة البريلويين ، وهؤلاء يُعدُّون بالملايين ، وبينت أن من أهم أسباب عدم نجاح الجماعات الدينية في كثير من البلاد الإسلامية في الانتخابات السياسية هو عدم قبول تبعية الجماعات بعضها لبعض ، وكان يمكن حلُّ هذه العقدة بإعطاء الحرية لكل جماعة من الجماعات في أن يكون لها منهجها الخاص وتبعية أعضائها ومنسوبيها في مرحلتي الدعوة والتربية، فيكون لكل جماعة استقلالها التنظيمي والمنهجي في المرحلتين المذكورتين بشرط أن لا يكون هناك تنافس على جذب الأعضاء من الجماعات الأخرى ولا محاولات لتعطيل مشاريعها أو نقدها ، ثم يجب أن تجتمع جميع الجماعات في المرحلة الثالثة وهي مرحلة العمل، والتي منها الدخول في الانتخابات السياسية ؛ بحيث تكون حزبًا واحدًا يُمثِّل جميع الجماعات، وكل من يشذ عن هذا الاجتماع يكون قد قصر في تطبيق

الإسلام ويتعرض للإثم البليغ .

وهذا من أهم أسباب نجاح الصحابة رضي الله عنهم في العمل على إقامة الدولة الإسلامية وتقويتها وحمايتها .

العمل مع رابطة العالم الإسلامي

في شهر جمادى الأولى من عام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م التقيت بمعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي في رابطة العالم الإسلامي بعد أن أصبح الأمين العام لها فسألني عن وضعي الوظيفي فقلت له : إني تقاعدت تقاعدا مبكرا من أجل أن أتم بعض مؤلفاتي ، فقال لي : نحن بحاجة إليك للعمل في الرابطة وخيَّرني بين إدارة الدعوة وإدارة التعليم ، فاخترت إدارة الدعوة ، والدكتور التركي تربطني به علاقة قديمة وثيقة من أيام الدراسة في كلية الشريعة ، وقد بقيت في هذه الإدارة سنة وأشهر.

وقد قمت خلال هذه المدة بإدارة سبع دورات ، هي دورة أثيوبيا الأولى ، ودورة بنجلادش ، ودورة بلجيكا ، ودورة أوغندا ، ودورة كينيا، ودورة كازخستان ، ودورة أثيوبيا الثانية .

دورة أثيوبيا الأولى

في شهر جمادى الثانية من عام ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م تم تكليفي من رابطة العالم الإسلامي بإقامة دورة علمية في « أثيوبيا» وقد سافرت أنا والدكتور عبدالجليل العروسي الأثيوبي ، وتم جمع دعاة الرابطة ودعاة هيئة الإغاثة في المدرسة الأولية في العاصمة«أديس بابا»،وألقيت أنا والدكتور عبدالجليل المحاضرات في تلك الدورة .

ومن المحاضرات التي ألقيتها محاضرة بعنوان « مواقف في العفة والورع » وهذا موجز عن تلك المحاضرة :

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر عبدالرحمن بن نجيح قال: نزلت على عمر رضي الله عنه ، فكانت له ناقة يحلبها ، فانطلق غلامه ذات يوم فسقاه لبنا أنكره، فقال: ويحك من أين هذا اللبن لك ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن الناقة انفلت عليها ولدها فشربها، فحلبت لك ناقة من مال الله ، فقال: ويحك تسقيني نارًا ، واستحل ذلك اللبن من بعض الناس ، فقيل هو لك حلال يا أمير المؤمنين ولحمها [١] .

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٧٠٢ .

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، حيث خشي من عذاب الله جل وعلا لما شرب ذلك اللبن مع أنه لم يتعمد ذلك ، ولم تطمئن نفسه إلا بعد أن استحل ذلك من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم الذين يمثلون المسلمين في ذلك الأمر ، وهذا الخبر وأمثاله يدل على أن ذكر الآخرة بما فيها من حساب ونعيم أو شقاء قد أخذ بمجامع قلب عمر وملأ عليه تفكيره، حتى أصبح ذلك موجها لسلوكه في هذه الحياة .

ومن أمثلة ورعه رضي الله عنه ما أخرجه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري من خبر إياس بن سلمة عن أبيه [1] قال : مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السوق ومعه الدِّرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال أمط عن الطريق ، فلما كان في العام المقبل لقيني فقال : ياسلمة تريد الحج؟ فقلت : نعم ، فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منـزله فأعطاني ستمائة درهم وقال : استعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك ، قلت : يا أمير المؤمنين ماذكرتها ، قال: وأنا مانسيتها [2].

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث شعر بأنه قد ضرب ذلك الرجل وهو غير مستحق للضرب ،

---

(١) أبوه هو سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمي رضي الله عنه .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٢٤ .

فعوضه بذلك المال إبراء لذمته ، وهو بذلك يقتدي برسول الله ﷺ كما ورد الخبر عنه بذلك في يوم حنين وغيره .

من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه :

أخرج الحافظ ابن كثير في ترجمة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : وفي رواية محمد بن عائذ الدمشقي عن الهيثم بن حميد عن مطعم عن المقدام وغيره أن سعدا قال : يارسول الله ادع الله أن يجيب دعوتي ، فقال : إنه لايستجيب الله دعوة عبد حتى يطيب مطعمه ، فقال : يارسول الله ادع الله أن يطيِّب مطعمي ، فدعا له ، قالوا : فكان سعد يتورع من السنبلة يجدها في زرعه فيردها من حيث أُخذت [1] .

ففي هذا الخبر بيان لاهتمام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالورع واستقامته على ذلك، وكونه يهتم بسنبلة وقعت في أرضه دليل على قوة ورعه ، فإن كثيرًا من الناس لايلتفتون لمثل هذا، وإذا كان قد تورع عن هذا الشيء الحقير فإن تورعه عن الأمور الكبيرة الواضحة في الحرام والشبهات من باب أولى ، وهذا الحديث صريح في أن أهم أسباب إجابة الدعاء الورع عن الحرام والشبهات .

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٧٦ .

من مواقف أبي أمامة رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الإمام الطبراني في معجمه الكبير من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى باهلة ، فأتيتهم وهم على الطعام ، فرحبوا بي وأكرموني، وقالوا: تعال فكل ، فقلت : إني جئتكم لأنهاكم عن هذا الطعام [(١)] ، وأنا رسول رسول الله ﷺ أتيتكم لتؤمنوا به ، فكذبوني وزبروني [(٢)] ، وأنا جائع ظمآن ، فنمت فأُتِيت في منامي بشربة لبن فشربت ورويت وعظم بطني ، قال القوم : أتاكم رجل من أشرافكم وسَراتكم فرددتموه ، اذهبوا إليه وأطعموه من الطعام والشراب مايشتهي ، فأتوني بالطعام والشراب ، فقلت : لاحاجة لي في طعامكم وشرابكم ، فإن الله أطعمني وسقاني ، فانظروا إلى الحال التي أنا عليها ، فنظروا فأريتهم بطني ، فأسلموا عن آخرهم .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه الطبراني بإسنادين وإسناد الأولى حسن [(٣)] .

---

(١) جاء في إحدى الروايات أنه كان طعامهم الدم ، وكانوا يستخرجونه من البهائم ويجعلونه في طعامهم، فلذلك لم يأكل أبو أمامة من طعامهم لأنه محرم .

(٢) أي انتهروه .

(٣) مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٧ .

وهكذا أظهر هذا الصحابي الجليل عزة الإسلام فلم يدار المشركين في اقتراف شيء مما نهى الله تعالى عنه ، فكان أهلا لأن تجري على يديه كرامة الله جل وعلا حيث أطعمه وسقاه، ثم هدى على يديه قبيلته بأكملها ، وتلك من عاجل بشرى المؤمن في الحياة الدنيا ، مع ما ادخره الله تعالى له في الآخرة من الثواب العظيم .

وهذا مثل رائع في باب الورع والتقوى ، وبيان واضح لأثر ذلك في نجاح الداعية ، كما هو ظاهر في استجابة قوم أبي أمامة ، وقد كانوا كذبوه أولاً وزجروه ، ثم أكبروا فيه الامتناع عن الطعام والشراب تَدَيُّنًا مع شدة احتياجه إليه ، فلما رأوا ما مَنَّ الله به عليه من تلك الكرامة العظيمة خضعوا للحق فأسلموا .

من مواقف إبراهيم التيمي رحمه الله :

من أخباره في الورع ما أخرجه ابن سعد عن علي بن محمد قال :

كان سبب حبس إبراهيم التيمي[1] أن الحجاج طلب إبراهيم النخعي ، فجاء الذي طلبه فقال : أريد إبراهيم ، قال إبراهيم التيمي : أنا إبراهيم ، فأخذه وهو يعلم أنه يريد إبراهيم النخعي فلم يستحلَّ أن يدلَّه عليه ،

(١) هو الإمام الفقيه الواعظ إبراهيم بن يزيد التيمي من تيم الرباب .

فأُتِيَ به الحجاج فأمر بحبسه في الديماس [1] ،ولم يكن لهم ظل من الشمس ولاكنٌّ من البرد، وكان كل اثنين في سلسلة ، فتغير إبراهيم فجاءته أمه في الحبس فلم تعرفه حتى كلمها ، فمات في السجن، فرأى الحجاج في منامه قائلاً يقول : مات في هذه البلدة الليلةَ رجل من أهل الجنة ، فلما أصبح قال: هل مات الليلة أحد بواسط ؟ قالوا : نعم إبراهيم التيمي مات في السجن ، فقال : حُلُم ، نزغة من نزغات الشيطان ، وأمر به فأُلْقِيَ على الكناسة [2] .

فهذا مثال للورع الذي يكلف صاحبه تضحية بالنفس ، فقد كان إبراهيم التيمي يعلم أن رسول الحجاج لايريده وإنما يريد إبراهيم النخعي ، فلم يستحل أن يدله عليه وفداه بنفسه فأيُّ عنصر زكي قد اشتمل عليه هذا العالم الجليل !

إن هذه التضحية نادرة المثال ، وإن مما ساعد التيمي على انتصاره على شهوات النفس وأهوائها ما اشتهر به من الزهد في الدنيا والتخفف من مطالب الحياة ، فهو عبد لله تعالى قد سعى حثيثا في إكمال هذه العبودية التي تقتضي من العبد أن يكون على مراد الله تعالى ، يتوجه حيثما

---

(١) الديماس يطلق على الحمام والسَّرَب ويسمى به سجن الحجاج كما ذكر صاحب القاموس .

(٢) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٨٥ .

وجهه الإسلام ، كلما لاح له عمل صالح سارع إليه ، وكلما اعترضه عمل سيء اجتنبه وإن كان في ذلك زهاق نفسه .

من مواقف يونس بن عبيد رحمه الله :

ومن العلماء المشهورين بالورع الإمام يونس بن عبيد العبدي ومن أخباره في الورع والاحتياط في كسب المال الحلال وتحريه الشديد في ذلك ماذكره الإمام الذهبي عن الأصمعي عن مؤمل بن إسماعيل قال : جاء رجل شامي إلى سوق الخزازين ، فقال : عندك مُطْرَف بأربعمائة؟ فقال يونس بن عبيد : عندنا بمائتين ، فنادى المنادي : الصلاة ، فانطلق يونس إلى بني قُشَيْر ليصلي بهم ، فجاء وقد باع ابن أخته المطرف من الشامي بأربعمائة ، فقال : ماهذه الدارهم ؟ قال : ثمن ذلك المطرف ، فقال : ياعبد الله هذا المطرف الذي عرضته عليك بمئتي درهم، فإن شئت فخذه وخذ مائتين وإن شئت فَدَعْه ، قال : من أنت ؟ وما اسمك ؟ قال : يونس بن عبيد ، قال : فو الله إنا لنكون في نحر العدو فإذا اشتد الأمر علينا قلنا : اللهم رب يونس فرِّج عنا ،أو شبيه هذا.

فقال يونس : سبحان الله سبحان الله ! [1] .

قال الذهبي : وقال : أمية بن خالد : جاءت امرأةٌ يونسَ بن عبيد

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٩ .

بجبة خَزّ ، فقالت له: اشترِها، قال: بكم ؟ قالت : بخمسمائة ، قال : هي خير من ذلك ، قالت : بستمائة ، قال: هي خير من ذلك ، فلم يزل حتى بلغت ألفا .

وكان يشتري الإبريسم من البصرة فيبعث به إلى وكيله بالسوس ، وكان وكيله يبعث إليه بالخز، فإن كتب وكيله إليه : إن المتاع عندهم زائد لم يشتر منهم أبدا حتى يخبرهم أن وكيله كتب إليه أن المتاع عندهم زائد[1] .

قال : وقال بشر بن المفضل : جاءت امرأة بمُطْرَف خزٍّ إلى يونس ابن عبيد تعرضه عليه ، فقال لها: بكم ؟ قالت : بستين درهما ، فألقاه إلى جاره فقال : كيف تراه ؟ قال : بعشرين ومائة، قال: أرى ذاك ثمنه أو نحوا من ثمنه ، فقال لها : اذهبي فاستأمري أهلك في بيعه بخمس وعشرين ومائة، قالت : أمروني أن أبيعه بستين ، قال : ارجعي فاستأمريهم[2] .

قال : وقال النضر بن شميل : غلا الخَزّ في موضع كان إذا غلا هناك غلا بالبصرة ، وكان يونس بن عبيد خزَّازًا فعلم بذلك فاشترى من

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٠ .

رجل متاعا بثلاثين ألفا ، فلما كان بعد ذلك قال لصاحبه: هل كنت علمت أن المتاع غلا بأرض كذا وكذا ؟ قال : لا ، لو علمت لم أَبِعْ قال : هَلُمَّ إليَّ مالي وخذ مالك ، فرد عليه الثلاثين الألف [1] .

فما الذي دفع يونس بن عبيد إلى التعفف عن ذلك المال الذي جاء برضَى من أصحابه ؟!

إنه شعوره القوي برقابة الله عز وجل ، وإحساسه بأن أخذ ذلك المال لايُرضي الله سبحانه ، وإيمانه القوي الحي باليوم الآخر ومافيه من الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب ، ثم المصير إلى الثواب العظيم أو العقاب الأليم .

إن هذا الشعور لايماثله ولايقاربه أي دافع آخر نحو العفة والنـزاهة ، لأنه يحول بين المرء وهواه المنحرف ، ويعدِّل سلوكه حتى في الأمور التي لاتزال حبيسة الصدور ، ولم تظهر للناس .

وإن يونس بن عبيد بهذه المعاملة الإسلامية ليُعدُّ قدوة عالية للتجارة في العفة والورع واكتساب المال الطيب .

من مواقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله :

من أخباره في الورع مارُوِي عن سليمان الشاذكوني قال في الثناء

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٣ .

على الإمام أحمد بن حنبل : لقد حضرت من ورعه شيئا بمكة : أنه أرهن سطلاً عند فامِيّ [1] فأخذ منه شيئًا لِيُقوِّته فجاء فأعطاه فِكَاكه ، فأخرج إليه سطلين ، فقال : انظر أيهما سطلك ؟ فقال : لا أدري أنت في حل منه وما أعطيتك ، ولم يأخذه ، قال الفامي : والله إنه لسطله ، وإنما أردت أن أمتحنه فيه[2] .

فهذا مثال جيد في الورع وترك الشبهات ، فحينما اشتبه الحلال بالحرام عند الإمام أحمد ترك الحلال خشية الوقوع في الحرام ، وكان من شدة ورعه أنه ترك السطلين حالاً ولم ينتظر حتى يبحث الفامي ويتأكد من سطله خشية أن يعيِّن له أحدهما وقد يكون غيره .

ومن ذلك ما أخرجه القاضي محمد بن أبي يعلى من حديث عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل قال : مرَّت بنا جنازة ونحن قعود على مسجد أبي ، فقال أبي : ما كانت صَنْعَةُ صاحب الجنازة؟ قالوا: كان يبيع على الطريق ، قال : في فنائه أو في فناء غيره ؟ قالوا : في فناء غيره ، قال: عَزَّ عليّ عَزَّ عليّ ، إن كان فناء يتيم أو غيره فقد ذهبت أيامه عُطلا ، ثم قال : قم نصلي عليه عسى الله أن يكفِّر عنه سيئاته ، قال : فكبَّر عليه أربع

---

(١) أي بائع الفوم أي الحِمْص ويطلق على الحنطة وغيرها من الحبوب .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٠٣ .

تكبيرات ، ثم حملناه إلى قبره ودفنَّاه ، ونام أبي تلك الليلة وهو مُغتَمٌّ به ، فإذا نحن بامرأة من بعض جيراننا جاءت إلى أبي ، فقالت : يا أبا عبد الله ألا أبشرك بشارة ؟ فقال لها : قولي يامباركة ، أنت امرأة صالحة ، قالت : نمت البارحة فرأيت صاحب الجنازة الذي مررتَ معه وهو يجري في الجنة جَرْيًا وعليه حلَّتان خضراوان ، فقلت له : مافعل الله بك؟ قال : غضبان عليَّ وقت خروج روحي ، فصلَّى علي أحمد بن حنبل فغفر ذنوبي ومتَّعني بالجنة [1] .

في هذا الخبر مثل من إحساس الإمام أحمد الدقيق نحو الحلال والحرام والشبهات ، فإنه لَمَّا علم أن صاحب الجنازة يستعمل الطريق العام للتجارة خشي أن يكون اعتدى على ما يخص بعض الجيران من المنافع التي تتبع البيوت فاهتمَّ بالدعاء له ، وقد أفادت تلك الرؤيا الصالحة بأن الله تعالى غفر لذلك التاجر بسبب دعاء الإمام أحمد له .

وهذا الذي لاحظه الإمام أحمد يغفل عنه بعض المسلمين ، حيث ينافسون جيرانهم على المنافع التي تتبع دورهم ، وهم أولى بها من غيرهم، وبهذا يقع هؤلاء في آثام لم يحسبوا لها حسابا .

ويمكن التمثيل لذلك فيما يتعلق بهذا العصر بالاستفادة من ظل

---

(١) طبقات الحنابلة ٢/ ٥٨ .

البيوت في إيقاف السيارات فصاحب البيت أولى من غيره بذلك .

من مواقف سريّ السقطي رحمه الله :

قال الحافظ ابن كثير في ترجمة سَرِي السَّقطي : وكان عنده مرة لوز فساومه رجل على الكُرِّ [1] بثلاثة وستين دينارا ، ثم ذهب الرجل فإذا اللوز يساوي : الكرُّ تسعين دينارا ، فقال له [يعني الرجل] : إني أشتري منك الكر بتسعين دينارا ، فقال له : إني إنما ساومتك بثلاثة وستين دينارا وإني لا أبيعه إلا بذلك ، فقال الرجل : أنا اشتري منك بتسعين دينارا ، فقال : لا أبيعك هو إلا بما ساومتك عليه ، فقال له الرجل : إن من النصح أن لا أشتري منك إلا بتسعين دينارا ، وذهب فلم يشتر منه [2] .

فهذا مثال جيد في العفة والورع والزهد في الدنيا ، ولقد كان كل من البائع والمشتري يتصفان بهذه الصفات العالية ، فهما مثالان للتربية الإسلامية ، فلقد كان بإمكان كل واحد منهما أن يوافق صاحبه فيما عرض عليه ويأخذ المبلغ الكبير ، لكنهما كانا يَعدَّان المبلغ الكبير هو في أن يكسبا حلالاً وإن قلَّ ، وأَنْ يُعفَّا أنفسهما من كل شبهة حاكت في النفس .

---

(١) هو نوع من المكاييل الكبيرة .

(٢) البداية والنهاية ١١/ ١٥ .

من مواقف الإمام البخاري رحمه الله :

من ذلك ماذكره الحافظ البغدادي من خبر أبي سعيد بكرِ بن منير قال :كان حُمِل إلى محمد ابن إسماعيل – يعني الإمام البخاري – بضاعة أنفذها إليه فلان ، فاجتمع بعض التجار إليه بالعشية فطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم ، فقال لهم : انصرفوا الليلة ، فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه تلك البضاعة بربح عشرة آلاف درهم فردهم وقال: إني نويت البارحة أن أدفع إلى الذين طلبوا أمس بما طلبوا أول مرة ، فدفعها إليهم بما طلبوا – يعني الذين طلبوا أول مرة – ودفع إليهم بربح خمسة آلاف درهم وقال: لا أحب أن أنقض نيتي [1] .

فهذا مثال عال في العفة والقناعة من الإمام البخاري فقد حاسب نفسه على نية البيع على التجار الأولين الذين ساموا البضاعة بنصف ماسامها به الآخرون ، مع أنه لم يتم بينهم عقد ولامجرد وعد بذلك .

وهذا الخلق الكريم من لزوم ما لايلزم ابتغاء وجه الله تعالى دليل على قوة الإيمان وعمق اليقين وغلبة التفكير بالآخرة على التفكير بالدنيا .

قدوم أمين عام الرابطة :

قبل انتهاء الدورة قدم معالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١١ – ١٢ .

الدكتور عبد الله التركي بدعوة من حكومة أثيوبيا ، وقد حضر حفل اختتام الدورة وألقى على الطلاب كلمة توجيهية .

ثم شاركتُ أنا والدكتور عبد الجليل العروسي في بعض زيارات الأمين العام ، وكان مما شاركنا فيه زيارة منطقة « تَغْراي» وفيها مدينة «وَقْرو» التي بقربها قبور بعض الصحابة رضي الله عنهم، وقد زرنا قبورهم ، وهم في غرفة مستطيلة ، وقد وُضع على قبورهم طاولة طويلة وعليها غطاء أخضر .

ومما لفت نظري أنه قد مرَّ علي وأنا أكتب في السيرة النبوية رواية أم سلمة رضي الله عنها التي أخرجها الإمام أحمد بسند صحيح، وقد جاء فيها : « أن رجلا من الحبشة خرج على النجاشي .. إلى أن قالت : وسار إليه النجاشي وبينهما عَرْض النيل »[1] .

وهذا يفيد بأن الصحابة – آنذاك – كانوا حول نهر النيل، وقد سألت عن بحيرة « تانا » التي ينبع منها نهر النيل الأزرق الذي يلتقي مع نهر النيل الأبيض في «الخرطوم» عاصمة السودان ، فأخبروني أن تلك البحيرة تبعد عن البلدة التي فيها القبور تسعمائة كيلو ، فهي بعيدة جدًّا عن الموقع الذي فيه القبور ، فهل كان النجاشي ودولته والصحابة في

---

(١) مسند أحمد (٥/ ٢٩٠) .

غرب أثيوبيا حول نهر النيل ثم انتقل الصحابة بعد ذلك إلى منطقة «تغراي» وماتوا فيها ؟ قد يكون ذلك إذا ثبت تاريخيًّا أن تلك القبور هي قبور الصحابة رضي الله عنهم .

دورة في بنجلاديش

في شهر شوال من عام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م دُعيت لحضور المجلس الأعلى لجامعة «شيتاغونغ» في جمهورية «بنجلادش» باعتباري عضوا في ذلك المجلس، فاغتنمت الفرصة لإقامة دورة علمية هناك ، وطلبت من معالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي الموافقة على ذلك ، فتمَّتْ موافقته ، وسافرت أنا والدكتور عبد الرزاق ظفر الذي كان حتى ذلك الوقت رئيسا لذلك المجلس ، وقد اتصلت فور وصولي إلى «دكا» عاصمة بنجلادش بالأخ فهد الحربي مدير فرع هيئة الإغاثة الإسلامية ، وأبلغته برغبتي في إقامة دورة علمية وأن يسعى سريعا في جمع دعاة الهيئة ودعاة الرابطة .

ثم سافرنا إلى «شيتاغونغ» لحضور جلسات المجلس الأعلى لجامعتها الإسلامية ، وكان أبرز حدث في ذلك المجلس هو اختيار معالي الدكتور عبد الله بن عمر نصيف لرئاسة المجلس الأعلى للجامعة واختيار فضيلة الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح ليكون نائبًا له ، وقد دخلتْ الجامعة بعد ذلك في وضع أفضل مما كانت عليه .

وقد بقينا في «شيتاغونغ» ثلاثة أيام حتى نهاية أعمال المجلس، ثم عُدنا إلى العاصمة «دكا» أنا والدكتور عبد الرزاق ظفر والدكتور عبدالله

المصلح ، وكنت طلبت منه أن يشترك معي في محاضرات الدورة، وقد وجدنا الأخ فهد الحربي قد استأجر مكانا للدورة وجمع دعاة الرابطة ودعاة هيئة الإغاثة ، وقد شارك معي الدكتور عبد الله المصلح في بعض المحاضرات ، ثم اعتذر عن إكمال الدورة ، وسافر إلى السعودية لارتباطه مع قناة «اقرأ» ببرنامج مباشر ، وأكملت إلقاء المحاضرات إلى نهاية الدورة ، وقد شارك الدكتور عبد الرزاق ظفر ببعض التوجيهات التربوية.

وسأذكر للفائدة موجزا لإحدى المحاضرات التي ألقيتها في تلك الدورة وهي بعنوان :

« مواقف في التواضع »

نماذج من تواضع النبي ﷺ :

مما روي عن رسول الله ﷺ في خلق التواضع ما أخرجه الإمام الترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال:«كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لاينـزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينـزع، ولايصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه،ولم يُرَ مقدِّما ركبته بين يدي جليس له» [1].

---

(١) سنن الترمذي رقم ٢٤٩٠ ، القيامة ب٤٦ (٤/ ٦٥٤) .

وهذه آداب إسلامية رفيعة مبعثها التواضع ، ويشملها خلق الإيثار، فهي تقوم على اعتبار تقديم الغير على النفس في أمور الحياة ، سواء في ذلك الأمور المعنوية ، التي تقتضي إعزاز الآخرين والرفع من مكانتهم كما في هذا الحديث ، أو في الأمور المادية التي تقوم على التنازل عن الحقوق المالية لمصلحة الآخرين .

ونجده ﷺ يتواضع لمن يستخدمهم ويعاملهم بالعناية والرعاية كما يعامل أبناءه كما جاء فيما أخرجه الإمام أبو داود من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا ، فأرسلني يوما لحاجة ، فقلت : والله لا أذهب ، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ ، قال: فخرجت حتى أمرّ على صبيان وهو يلعبون في السوق فإذا النبي ﷺ قابض بقفاي من ورائي ، فنظرت إليه وهو يضحك، فقال : يا أنيس اذهب حيث أمرتك ؟ قلت: نعم أنا أذهب يارسول الله ، قال أنس : والله لقد خدمته سبع سنين – أو تسع سنين – ماعلمت قال لشيء صنعت لِمَ فعلت كذا وكذا ؟ ولا لشيء تركت هلا فعلت كذا وكذا" [1] .

وهل نجد مثلا أعلى من هذا في معاملة الخدم ؟!

---

(١) سنن أبي داوود رقم ٤٧٧٣ ، الأدب باب ١ (٥/ ١٣٢) .

إن هذه المعاملة الكريمة تُشعر الإنسان المستخدم بكرامته وإنسانيته ولاتلغي وجوده في المجتمع كإنسان يسهم في بناء المجتمع ، والترقي به نحو الكمال ، وهو حينما يخدم أهل النبل والفضل فإنما هو تلميذ في مدرسة تربوية أخلاقية ، ومن المفترض أن يتخرج من هذه المدرسة وهو أعلى مايكون في سمو الفكر ونبل الأخلاق .

ولقد امتد تواضعه ﷺ ليشمل البادية كما شمل الحاضرة ، ومن ذلك ما أخرجه الإمامان البزار والطبراني من حديث سالم بن أبي الجعد عن رجل من أشجع يقال له زاهر بن حرام رجل بدوي، وكان لايزال يأتي النبي ﷺ بطُرفة أو هدية ، فرآه النبي ﷺ في سوق المدينة يبيع سلعة ، ولم يكن أتاه في ذلك الوقت ، فاحتضنه من وراء كتفه ، فالتفت فأبصر النبي ﷺ فقبَّل كفه ، فقال: من يشتري العبد ؟ فقال: إذًا تجدني يارسول الله كاسدا ، قال: لكنك عند الله ربيح ، فقالﷺ : لكل حاضر بادية ، وبادية آل محمد زاهر بن حرام »[1] .

وهذا مثل عال للمزح التربوي ، الذي يهدف إلى رفع الكلفة ، وتوثيق الصلة ، فإن الإنسان إذا منَّ الله عليه بالسمعة العالية ، والمكانة الرفيعة ، تكون له في النفوس هيبة قد تمنع من الاستفادة منه فيما إذا كان

(١) جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد ٢/ ٥٦٥ – ٥٦٦ ، رقم ٨٩٤٨ .

مسؤولاً إداريًّا ، أو عالمًا مربيًا ، وقد تمنعه من الاستفادة من الناس في فهم واقع المجتمع الذي تنبني عليه بعض الفتاوى والأحكام ، فإذا جرى من المسؤول أو العالم المربي نوع من هذا المزح الهادف فإنه يفتح مغاليق النفوس ويزيل الحرج من الصدور .

وهذا المزح التربوي إنما يكون مبنيًّا على الرغبة الصادقة في إصلاح المجتمع وتقويمه مع التخلق بخلق التواضع .

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر عبيد الله بن عمر ابن حفص : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حمل قربة على عنقه ، فقال له أصحابه : يا أمير المؤمنين ما حملك على هذا ؟ قال: إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها [1] .

فهذا السلوك قد جرى أيضًا من صحابة آخرين ، وهذا شاهد على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يحاسبون أنفسهم حتى على الخطرات ، وأنهم يحافظون على مستوى إيمانهم ، فيسعون إلى زيادته بالطاعات ، ويَحذرون من نقصه بالمخالفات ، حتى لو كان ذلك من هواجس النفس التي لم يترتب عليها عمل .

---

(١) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٨ .

إنهم أطباء القلوب الماهرون في علاج أمراضها ،ولما كان الإعجاب بالنفس من الأمراض الخطيرة فإن علاجه عندهم هو محاولة إذلال النفس أمام الناس ليكون المؤمن بريئا حتى من الهواجس وإيحاءات الضمير .

فلله دَرُّهُم ما أدق ملاحظاتهم !!

وما أقدرهم على كبح جماح نفوسهم !!

من مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه :

من أخبار تواضعه رضي الله عنه مارُوي عنه أنه اشترى تمرًا بدرهم فحمله في ملحفة ، فقالوا: نحمل عنك يا أمير المؤمنين ، قال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل [1] .

فهذا مثل من تواضعه حيث حمل متاعه بنفسه مع كونه أمير المؤمنين ومع كبر سنه ، فلم يَرَ في ذلك مسوِّغًا لقبول خدمة الناس له ، وهو بهذا يجعل من نفسه قدوة حسنة للمسلمين في التواضع، فلو نازعتْ أحدَ الكبراء نفسهُ في تصور العيب من حمل المتاع فإنه بتذكُّره لموقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يزول مافي نفسه من ذلك ، ولو اعترض على أحد المتواضعين معترض فإن له من الاقتداء بأكبر أمير على

(١) الزهد للإمام أحمد / ١٣٣ .

وجه الأرض مايرد هذا الاعتراض .

من مواقف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في التواضع مارُوي عن مجاهد رحمه الله قال: كنت أصحب ابن عمر رضي الله عنهما في السفر فإذا أردت أن أركب مسك ركابي، فإذا ركبت سَوَّى عليَّ ثيابي ، فرآني مرة كرهت ذلك فيَّ ، فقال: يامجاهد إنك لضيِّق الخلق، وفي رواية قال: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني [1] .

فهذه أخلاق عالية من العالم الرباني عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، حيث يقوم بخدمة تلاميذه ، ولقد كانت هذه الأخلاق أصيلة فيه حيث كان يصرُّ عليها ، ويغضب حينما تظهر الكراهية لذلك في وجوه تلاميذه .

ولقد كان أهمَّ الدوافع لتخَلُّق الصحابة وعامة الصالحين بتلك الأخلاق الكريمة اهتمامُهم الكبير باكتساب الأعمال الصالحة ، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالتواضع لمن هو دونهم ، وبهذه الأخلاق النبيلة ربَّوا مجتمعا صالحا خلَفَهم في وراثة هذا الدين وتبليغه لمن بعدهم .

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٥ .

من مواقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر حبيب بن أبي ثابت قال : خرج ابن مسعود ذات يوم فاتبعه ناس،فقال لهم:أَلَكُم حاجة؟قالوا:لا، ولكن أردنا أن نمشي معك،قال:ارجعوا فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع[1] .

فهذا مثل على تواضع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وتعليله المذكور فيه نوع من الفقه الدقيق لمداخل الضعف في النفوس ، وتغليب لجانب حفظ الدين وحمايته ، فكم من مخدوع بتبعيَّة الناس له ووطئهم عقبيه أضر بآخرته ولم يخرج من الدنيا إلا بمقت الناس واحتقارهم ، وعلى فرض محبة الناس للمتبوع فإن ذلك تربية لهم على الذلة والخنوع .

---

(١) صفوة الصفوة ١/ ٤٠٦ .

المشاركة في التوعية في الحج

بما أنني كنت مسؤولا عن إدارة الدعوة في رابطة العالم الإسلامي ، فإنه قد تم تكليفي بإدارة التوعية الإسلامية في الحج ، وذلك اعتبارًا من عام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م ، ولما طلبت إعفائي من عمادة المعهد عام ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ورشَّحت للعمادة فضيلة الدكتور حسن بن علي الحجاجي طلبت إعفائي أيضًا من إدارة التوعية في الحج في العام نفسه ورشحت الدكتور الحجاجي لهذه الإدارة ، ولا أزال أشارك في أنشطة هذه الإدارة .

وقد كان الدكتور حسن الحجاجي مسؤولا عن إدارة فرع وزارة الشؤون الإسلامية في منطقة مكة المكرمة ، وهو يقوم الآن بأعمال عمادة معهد إعداد الأئمة والدعاة على أحسن وجه .

وقد قامت إدارة التوعية في الحج باستقطاب عدد من علماء المسلمين لإلقاء محاضرات في موسم الحج والمشاركة في الندوات ، كما قامت بتوزيع عدد كبير من الكتب والنشرات على الحجاج ، ومن خلال العمل بهذه الإدارة تم التعرف على أعلام من دعاة المسلمين الذين يَفِدون للحج .

وقد شاركت في تلك المواسم بإلقاء عدد من الأحاديث عن موضوعات من أهمها مقاصد الحج، وأخلاق الرسول ﷺ ، وشرح بعض

الأحاديث النبوية ، وسأذكر نماذج من هذه الموضوعات :

من مقاصد الحج

إقامة ذكر الله عز وجل :

تحدثت عن ذكر الله تعالى في منى وفي عرفات وفي مزدلفة وبعد الحج، ومن الموضوعات التي جاء بيانها مما يتعلق بالذكر :

المقاصد السامية من ذكر الله تعالى :

إن ذكر الله – عز وجل – لا يكون حقيقياً ولا مؤثرًا إلا إذا صدر من القلب سواء وافقه اللسان وهو الأكمل أو اقتصر على القلب، وإن أعظم مقاصد الذكر أن تستقر عظمة الله تعالى في قلب الذاكر، وذلك لأن القلب هو مستقر حقائق الإيمان، فإذا كان القلب الذاكر قد امتلأ بالإيمان بالله جل وعلا وأُفعِم بحبه وإجلاله والخوف منه والرجاء لما عنده فإنه غير قابل للمزاحمة بتأثير القوى الأخرى، ويكون محصَّنا من أن يتسرب إليه تعظيم غير الله تعالى أو الخوف منه أو رجاؤه، وبالتالي فإنه ينطلق في أُفُقه الرحيب، حيث يلبي نداء الفكر الصافي والعقل السليم، فيتحدد سلوك صاحبه في هذه الحياة وفق ميزان واحد لا يتبدل ولا يتغير، وهو إخضاع الفكر والسلوك لما يرضي الله سبحانه وإن سخط جميع البشر، واجتناب ما يسخطه جل وعلا وإن رضي جميع البشر، فتكون أعمال هذا

الذاكر منسجمة مع شريعة الله تعالى .

وإننا حينما ننظر إلى جهاد موسى عليه الصلاة و السلام في تحطيم طغيان فرعون ثم نقارن بينه وبين العمل الذي عزم على القيام به بقوله ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ [طه :٣٣-٣٤] وذلك حينما دعا ربه جل وعلا بأن يعينه بأخيه هارون عليه الصلاة والسلام ...حينما نقارن بين ذلك نجد الفهم الدقيق والإدراك العميق لحقيقة ذكر الله تعالى.

فهل بقي موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام يذكران الله تعالى في صومعة حتى أدركتهما الوفاة؟! الواقع أنهما قاما على الفور بالجهاد لاستخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فكان المقصد الأعلى من ذكر الله تعالى هو أن ينتزعا من عقول الناس طغيان فرعون وهيمنته على النفوس ليحل محلها تعظيم الله جل وعلا، فإنه ما دام يُخيِّم على العقول تعظيم القوى البشرية فلن يصل ذكر الله تعالى إلى شغاف القلوب وإن تردد على الألسنة.

وقد قرن الله جل وعلا بين أمر موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام بذكره تعالى وقيامهما بدعوة فرعون، حيث يقول سبحانه ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ [طه:٤٢-٤٣] .

قال الحافظ ابن كثير: وقوله ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى ﴾ أي بحججي وبراهيني ﴿ وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ قال علي بن طلحة عن ابن عباس: لا تبطئا، وقال مجاهد عن ابن عباس: لا تضعفا، والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عونًا لهما عليه وقوة لهما، وسلطانًا كاسرًا له، كما جاء في الحديث «إن عبدي كلَّ عبدي الذي يذكرني وهو مناجزٌ قِرنه»[1].

ولقد كان رسول الله ﷺ أعظم الذاكرين الله تعالى، ومع ذلك كان أعظم المصلحين والمجاهدين، ولقد كان من نتائج ذكره العميق قيامه بمحاربة الطغيان في عهده، المتمثل في إنكار هيمنة البشر على حق التشريع من دون الله تعالى .

التذكير بالآخرة :

إن مناسك الحج تشتمل على مقاصد عالية ، وأسرار جليلة ، فإن أعمال الحج تذكِّر بالآخرة، فحينما يُعدُّ الحاج زاده وعدته للسفر فليطلب ذلك من المال الحلال ، فإن الله تعالى لايقبل عبادة نشأت من مال حرام، وليكن استعداده بالزاد المادي الذي به تقوم الحياة مذكرا له بزاد الآخرة

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٦).

وهو التقوى .

وأول مايقوم به الحاج هو الإحرام من الميقات ، وثياب الإحرام تشبه الكفن الذي يلف به الميت ، فليتذكر الحاج وهو يلبس ثياب الإحرام الموت الذي سيلاقيه ، وليعدَّ للأمر عدته من العمل الصالح واجتناب المعاصي .

ثم يقوم الحاج بالتلبية ، وهو حينما يقول : « لبيك اللهم لبيك » إنما هو يجيب نداء الله عز وجل الذي دعاه للحج وفرضه عليه ، فليكن أول مايهتم به أن تكون استجابته مقبولة عند الله تعالى ، وأن لايكون ممن تردُّ تلبيتهم ، ولقد كان الصالحون من السلف يهتمون كثيرًا بإجابة التلبية .

فإذا دخل الحاج مكة المكرمة فليتذكر أنه قد دخل في حرم مقدس آمن ، ويستشعر عظمة المكان الذي دخل فيه ، وليكن حرصه على تعظيم الحرم ورعاية الأمن فيه مذكرا له بضرورة توفير الأمن والحماية لنفسه من وساوس الشيطان ومراودة النفس الأمارة بالسوء .

وليتذكر الحاج بطوافه بالبيت لقاءه بربه عز وجل في الآخرة والنظر إلى وجهه الكريم ، فإن من زار بيتًا طمع في لقاء صاحبه .

والكعبة بيت الله عز وجل ، فمن زار الكعبة وطاف بها مخلصا لله تعالى خاضعا له مخليا قلبه من غيره فإنه جدير بلقاء الله جل وعلا يوم

إطلالة على الذكريات

القيامة وتكريمه ، ولما كانت أبصار الناس كليلة عن رؤية الله عز وجل في الدنيا فإنه تعالى قد وعد أولياءه بالظفر بلذة النظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة بعد أن يُبدَّلوا خلقا آخر ، فليسعدوا برؤية بيت الله تعالى والطواف حوله رجاء أن ينالوا منتهى مناهم فيسعدوا بالنظر إلى وجه ربهم الكريم في الآخرة .

من أخلاق النبي ﷺ

مما ألقيت في مواسم الحج في بيان أخلاق النبي ﷺ :

أمثلة من عدل النبي ﷺ وتواضعه :

من ذلك ما أخرجه الحافظ ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه دينًا كان عليه، فاشتد عليه حتى قال له:أُحرِّج عليك إلا قضيتني، فانتهره أصحابه وقالوا: ويحك تدري من تكلم؟ قال: إني أطلب حقي، فقال النبي ﷺ: «هلا مع صاحب الحق كنتم؟»ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها: «إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمرنا فنقضيك» فقالت: نعم بأبي أنت يا رسول الله، قال: فأقرضته، فقضى الأعرابي وأطعمه، فقال: أوفيت أوفى الله لك، فقال: «أولئك خيار الناس إنه لا قُدِّسَتْ أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع» وقال البوصيري: إسناد صحيح[1] .

فهذا حديث عظيم يبين اتصاف النبي ﷺ بأعلى درجات التواضع والعدالة، فعلى الرغم من سوء أدب ذلك الأعرابي فإن رسول الله ﷺ لم

(١) سنن ابن ماجه رقم ٢٤٢٦ ، كتاب الصدقات (٢/ ١٨٠) وأخرج آخر الحديث الحافظ الطبراني من حديث معاوية رضي الله عنه ، ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله ثقات – مجمع الزوائد – ٥/ ٢٠٩ .

يغضب عليه، بل أنكر على الصحابة - رضي الله عنهم - حينما انتهروا ذلك الأعرابي وأرشدهم إلى أن يكونوا مع صاحب الحق الذي يطلب حقه وإن أساء الأدب، ولم يطلب من ذلك الأعرابي أن يمهله، بل اقترض من تلك الصحابية ما أدى به ذلك الدين.

ولقد توج النبي ﷺ ذلك الدرس العملي البليغ بهذا التوجيه العالي «إنه لا قُدِّسَتْ أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع» حيث أفاد بأنه من حق صاحب الحق أن يأخذ حقه من غير أن يُمنع ولا أن توضع في طريقه العوائق، وأن الأمة التي يحال فيها بين صاحب الحق والحصول على حقه بسهولة ويُسر أمةٌ لا تستحق التقديس والاحترام.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ الطبراني من حديث خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنها قالت: كان على رسول الله ﷺ وسق من تمر لرجل من بني ساعدة، فأتاه يقتضيه، فأمر رسول الله ﷺ رجلًا من الأنصار أن يقضيه، فقضاه تمرًا دون تمره فأبى أن يقبله، فقال: أترد على رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم، ومن أحق بالعدل من رسول الله ﷺ ، فاكتحلت عينا رسول الله ﷺ بدموعه، ثم قال: صدق، ومن أحق بالعدل مني؟ لا قدَّس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها ولا يتعتعه، ثم قال: يا خولة عُدِّيهِ واقضيه، فإنه ليس من غريم يخرج من عند غريمه

راضيًا إلا صلت عليه دواب الأرض ونون البحار،وليس من عبد يلوي غريمه وهو يجد إلا كتب الله عليه في كل يوم وليلة إثمًا » .

ذكره الحافظ المنذري وقال: إسناده جيد[1] .

صلى الله عليك يا رسول الله، يا أرحم الناس وأعدلهم، يا من تدمع عيناه يوم أن شاهد ذلك الموقف المؤثر من رجل يطلب الكمال في حقه، وآخر يريد أن يتوصل بما لرسول الله ﷺ من حق عظيم وتقدير بالغ إلى أن يهضم ذلك الرجل حقه الكامل، فأنكر ﷺ ذلك وأمر بأن يُقضَى حقه كاملًا، وأتحف أمته بتوجيهها نحو الكمال الذي تحوز به القداسة، وذلك بأن يؤخذ لضعيفها الحق من قويها، كما ذكَّر الغرماء بالسعي نحو إرضاء غرمائهم ليحوزوا على دعاء دواب الأرض وحيتان البحار،وحذر من مماطلة الغرماء لأصحاب الحقوق، وذلك ببيان أن المماطل يكسب نفسه الإثم الذي يكتب عليه كل يوم وليلة.

(١) الترغيب والترهيب ، ٣/ ٢٧٠ .

شرح بعض الأحاديث النبوية

مما ألقيت في مواسم الحج من شرح بعض الأحاديث النبوية :

علامات الساعة :

من الأحاديث التي تم الكلام عليها حديث سؤال جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن أمور الدين ، وقد أخرج الحديث في ذلك الإمامان البخاري ومسلم ، وسأقتصر على الحديث عن أشراط الساعة، وقد جاء فيها « ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا وَلدت الأَمَة ربَّتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها »[1].

في هذا الحديث سأل جبريل عليه السلام عن الساعة مع سؤاله عن أمور الدين الكبرى ، ففي هذا إشارة إلى أهمية معرفة علامات الساعة ، فإنَّ معرفتها تُنبِّه المسلمين إلى قرب زوال الدنيا ، وذلك مما يحضهم على الاهتمام بأعمال الآخرة.

ولقد كان جواب النبي ﷺ ببيان علامتين من علامات الساعة الصغرى، فلماذا ذكر النبي ﷺ علامتين من علامات الساعة الصغرى ولم

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، رقم ٥٠ (١/ ١١٤) و ٤٧٧٧ (٨/ ٥١٣) ، صحيح مسلم ، رقم ٨ (ص٣٦) كتاب الإيمان .

يذكر شيئًا من العلامات الكبرى ؟!

الظاهر – والله أعلم – أن علامات الساعة الكبرى تأتي متتابعة متقاربة في الزمن بحيث لا يستفيد من عِبَرها إلا جيل محدود بوقت قصير، أما علامات الساعة الصغرى فإنها تظهر من وقت مبكر وتمتد في زمان طويل يشمل عددًا من الأجيال فتكون العبرة بها أشمل وأكثر .

وهاتان العلامتان اللتان ذكرهما رسول الله ﷺ هما :

الأولى : « أن تلد الأمة ربَّتها » وقد ذكر العلماء أقوالاً عديدة في المراد بهذه العلامة، ولكني سأقتصر على ذكر القول الذي رجحه الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى ، وفي ذلك يقول : أن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام، فأطلق عليها ربَّها مجازًا لذلك ، أو المراد بالرب المربي فيكون حقيقة ، وهذا أوجه الأوجه عندي لعمومه ، ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة ، ومُحصَّله الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المربَّى مربِّيًا ، والسافل عاليًا ، وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى :أن تصير الحفاة ملوك الأرض[1].

(١) فتح الباري (١/ ١٢٢ – ١٢٣) .

فهذه العلامة تشير إلى تغيُّرٍ ظاهر في أنماط المجتمع الإسلامي ، تنقلب فيه الموازين ، وتتبدل فيه القيم .

فالمعروف في المجتمعات السوية أن السيادة في الأُسَر تكون للأب والأم وأن الأولاد من بنين وبنات ينشأون على محبة الوالدين واحترامهما وطاعتهما، ولكن حينما تتبدل الأحوال وتنقلب المفاهيم فإن الأولاد تكون لهم السيادة والطاعة على الوالدين .

ومن أسباب ذلك التغيراتُ التي تطرأ على المجتمع فترفع الجيل الناشئ على الجيل الراشد ، وهذه التغيرات من عواملها الأساسية انتشار التعليم في الجيل الناشئ وربط المناصب الدنيوية بذلك التعليم ، بحيث تكون الموارد المالية بيد البنين والبنات ، ويصبح أباؤهم وأمهاتهم عالة عليهم في النفقة وتأمين مطالب الحياة .

وهذه الحالة واضحة في الأمهات مع أبنائهن وبناتهن،لأن الأمهات في المجتمع غير المتفتِّح نحو التعليم والعمل يكنَّ من ربات البيوت،ولا يكون بأيديهن شيء من المال،بخلاف الآباء فإنهم قد يستغنون عن أولادهم،ولهذا ذُكرت المرأة في الحديث في الرواية المشهورة.

ففي مثل هذا المجتمع تعيش الأمهات في شيء من الذلة والاستصغار لأولادهن، ويعيش الأولاد من بنين وبنات في شيء من

الترفع والسيادة على أمهاتهم ، لأنهم يرون أن لهم فضلاً عليهن بما يبذلونه لهن من أموالهم، وقد نسي هؤلاء الأولاد ما قدمت لهم أمهاتهم من تربية وعناء منذ ولادتهم حتى أصبحوا في غناء عن أمهاتهم ، ونسوا أن المهمة الكبرى للمرأة هي تنشئة الأجيال الصالحة .

ولاشك أن أصحاب العقول الراجحة من الأبناء والبنات يدركون عظمة هذه المهمة فيُولون أمهاتهم كل احترام وعناية ، ولكن وجود هؤلاء لا يؤثر على شهرة تلك الظاهرة من عقوق الأولاد لأمهاتهم .

العلامة الثانية : جاء في رواية البخاري « وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها» وجاء في رواية مسلم « أن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » .

ورواية البخاري أقرب في تحديد الظاهرة المستغربة التي لم توجد في عصور الإسلام السابقة ، أما تحوُّل أهل البادية إلى الحاضرة والتنافس في البنيان فقد حدث في عهد الخلفاء الراشدين .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني:زاد الإسماعيلي في روايته «الصم البكم» قال:وقيل لهم ذلك مبالغة في وصفهم بالجهل، أي لم يستعملوا أسماعهم ولا أبصارهم في الشيء من أمر دينهم وإن كانت حواسهم

سليمة[1] .

ولقد ذكر رسول الله ﷺ من علامات الساعة إسناد الأمر إلى غير أهله وتَولِّي غير الأكفاء أمور الأمة .

ومن ذلك قوله ﷺ « إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[2].

وقوله«إن من أشراط الساعة أن يوضع الأخيار ويُرفع الأشرار»[3].

وإن من مقاصد هذه الأحاديث أن الناس الذين لايُؤبَه لهم وليس لهم في المجتمع مكانة ولاشهرة يرتفعون فجأة ليكونوا سادة الأمة والمتحكمين في حاضرها ومستقبلها .

والمعروف في المجتمعات السوية أن السيادة في المجتمع تتكوَّن ببطء وتؤدة، وأن لها مقومات أخلاقية لابد أن تتوافر في الأفراد والأسر التي تتطلع للسيادة،وذلك كالكرم والشهامة والوفاء والأمانة وبذل المعروف، فيصبح الناس ينظرون إلى أولئك البارزين بالمقوِّمات الأخلاقية على أنهم يتفوقون عليهم بأمور لايستطيعون بلوغها،فيعترفون لهم بالسيادة عن اختيار وطواعية، ويستشيرونهم في أمورهم المهمة

---

(١) فتح الباري (١/ ١٢٣) .

(٢) رواه البخاري رقم ٥٩ و ٦٤٩٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) المستدرك (٤/ ٥٥٤ – ٥٥٥) وصححه الحاكم وأقره الذهبي ؛ ورواه الطبراني ، ذكره الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح- مجمع الزوائد (٧/ ٣٢٦) .

ويرجعون إلى معونتهم ورِفدهم عند الشدائد .

وهذه المقومات الأخلاقية قد تكون متوارثة في الأسر الكريمة نظرًا لأن الأولاد ينشأون على أخلاق آبائهم وأمهاتهم،وقد تتوافر في الأفراد الطموحين نحو المعالي وإن لم يكونوا من أبناء الأسر المشهورة بالمكارم .

فإذا كان ولاة الأمور من هؤلاء الذين يتمتعون بقدر عالٍ من هذه المقومات الأخلاقية فإن أحوال الأمة – غالبًا – تسير باعتدال وأمن وسلامة ، نظرًا إلى أن القائمين على الأمور لهم من رصيدهم الأخلاقي ما يمنحهم الشهرة العالية وإن لم يصلوا إلى الولاية ، ولذلك فإن أقوالهم وأفعالهم تتسم بالحكمة والرزانة والعدالة .

ومن المعلوم أن تلك المقومات الأخلاقية إنما تقوم بالدرجة الأولى على الوازع الديني المبني على قوة الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر .

فأما حينما يصل إلى الولاية من عاشوا على الحرمان والشح والحقد والتربية الهابطة فإن أعمالهم تكون صورة لماضيهم السقيم،ويقلبون موازين المجتمع،حيث يبعدون أصحاب المكارم الذين يقدرهم الناس ، ويقربون أمثالهم من الهابطين ، فتسود مساوئ الأخلاق،من الشح والجشع والخيانة والرشوة،ويضطر بعض الناس إلى احترام هؤلاء والتقرب إليهم وإن كانوا يمثلون أسوأ الأخلاق لكون الدنيا بيدهم .

أعمال ترفع وأعمال تَخفِض في الآخرة :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث كفارات ، وثلاث درجات ، وثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات فأما الكفارات فإسباغ الوضوء في السَّبرات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وأما الدرجات فإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام ، وأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السر والعلانية ، وأما المهلكات فشحٌّ مطاع ، وهوى متبع،وإعجاب المرء بنفسه » أخرجه الحافظان البزار والطبراني[1] ، وحسنه الشيخ الألباني[2].

فهذا الحديث الشريف ذكر فيه رسول الله ﷺ عدداً من جوامع الكلم ، وقد جمع فيه الكفاراتِ التي يمحو الله بها سيئات المؤمنين ، والدرجاتِ التي يرفع بها منازلهم في الجنة ، والمنجياتِ التي ينجيهم بها من النار ، والمهلكاتِ التي توصل الظالمي أنفسهم إلى العذاب .

وسأتحدث في هذا الكتاب عن خصلة واحدة وهي قوله ﷺ « وأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا » فالمسلم مأمور بأن يلزم العدل في

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار (١/ ٥٩ رقم ٨٠) المعجم الأوسط (٤/ ١٢٩رقم ٥٤٥٢).

(٢) صحيح الجامع الصغير، رقم (٣٠٤١) وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٨٠٢) .

حكمه على الناس على مقتضى شريعة الله تعالى ، وأن لا يحمله الغضب على الظلم ومنع الناس من حقهم ، كما لا يحمله الرضا على إعطاء الناس ما ليس من حقهم ، وفي هذا المعنى يقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

فالله تعالى يأمر المسلمين بأن يكونوا قوامين بالحق من أجل الله تعالى لا من أجل الناس ، وأن يكونوا شهداء بالعدل لا بالظلم ، وقوله جل وعلا ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾ يعني ولا يحملنَّكم بغض قوم على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بما لايجوز لكم في الشرع ، ﴿ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ فهذا تأكيد بالأمر بالعدل مع الأعداء بعد النهي عن ظلمهم ، فإن العدل هو الذي يتناسب مع التقوى وهو الأولى بالمتقين .

ومن الأخبار الجيدة التي تُعدُّ تطبيقاً لما جاء في هذه الآية ما أخرجه الإمام مالك من حديث سليمان بن يسار : أن النبي ﷺ كان يبعث عبد الله ابن رواحة إلى خيبر ، فيخرص بينه وبين يهود خيبر ، قال : فجمعوا له

حُليًّا من حلي نسائهم فقالوا له : هذا لك وخفف عنا وتجاوز في القسم ، فقال عبد الله بن رواحة : يا معشر اليهود والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلي، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم ، فأما ما عرضتم من الرشوة فإنها سحت، وإنا لا نأكلها، فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض [1].

وإذا كان الله سبحانه قد أمر بمعاملة الكفار بالعدالة مع وجود البغضاء الشديدة بينهم وبين المؤمنين فكيف الحال بالمعاملة بين المؤمنين بعضهم مع بعض ؟

لا شك أن المعاملة بين المؤمنين يجب أن تخلو تماماً من الظلم وإن وقع بينهم شيء من الشقاق والبغضاء .

ومن هذا نعلم أن ميزان العدل لا علاقة له برضا الناس ولا ببغضهم ، وإنما يجب أن ينظر المسلم إلى حقيقة العدل بتجردٍ من الهوى والعاطفة ، فيقول كلمة الحق ، ويحكم بالعدل وإنْ خالف هوى نفسه أو أهواء من يحاولون أن يقفوا حجر عثرة في طريق العدالة .

والله تعالى يأمرنا أن نقول الحق ونحكم بالعدل ولو على أنفسنا أو أقرب الناس إلينا ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ

(١) الموطأ ، كتاب المساقاة ، رقم ٢ (٧٠٣) .

وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] يعني يا أيها الذين آمنوا كونوا مجتهدين بإقامة العدل وإقامة الشهادة لوجه الله تعالى ، وذلك بالإقرار على أنفسكم بالحق والشهادة به على الوالدين وجميع الأقارب ، وأن لا تحابوا غنياً طلباً لرضاه ولا فقيراً من باب العطف عليه ، فالله تعالى أعلم بما يحقق مصلحة الغني والفقير في الدنيا والآخرة ، فلا تخضعوا لأهوائكم المنحرفة التي تميل بكم نحو الظلم ، وحكِّموا عقولكم السليمة التي تستهدي بنور الله تعالى نحو العدل والإنصاف ، وأما إذا حرَّفتم الشهادات وغيرتموها خدمة للباطل ضد الحق ، أو كتمتم شهادات الحق، أو أمضيتم أحكامكم بالباطل فإن الله تعالى دقيق العلم بأخباركم فيعاقبُ من انحرف عن طريق العدل ويثيب من لزمه وعمل به .

التدريس في الحرم المكي

كان اسمي ضمن الأسماء التي صدرت موافقة الجهات العليا على تدريسهم في الحرم المكي،وقد درَّست سنتين تقريبًا وذلك في مادتي الحديث والسيرة النبوية ثم اعتذرت من التدريس في عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م ، وذلك لأنني وجدت أن التدريس في الحرم يشغلني عن العمل في تأليف الكتب مع كوني أعمل في الصباح في رابطة العالم الإسلامي ، وقد درَست الموضوع فوجدت أن الاشتغال بالتأليف أنفع كثيرًا للمسلمين،لأن الكتاب الذي أقدمه ينفع الله به مئات الألوف من المسلمين إلى قيام الساعة، ولكن يبقى مع ذلك شرف التدريس في المسجد الحرام.

وقد كان الإخوة المسؤولون في الحرم يُلحُّون عليَّ بالعودة إلى التدريس ، ولعلي أتمكن من ذلك بعد الانتهاء من تأليف الكتب التي بدأت بها .

وهذا موجز لبعض الدروس التي ألقيتها في الحرم المكي في مادة السنة النبوية ، وهي تدور حول العقيدة والسلوك ومكارم الأخلاق .

دروس في السنة النبوية

احفظ الله يحفظك :

إن من الأحاديث الجليلة التي تربي المسلم منذ صغره على الإيمان

بالله تعالى والاعتماد عليه ما أخرجه أبو عيسى الترمذي رحمه الله تعالى من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوما فقال: «ياغلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفت الصحف » .

قال أبو عيسى:هذا حديث حسن صحيح وصححه الشيخ الألباني[1].

وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل وزاد فيه « تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة »وزاد أيضا «واعلم أن في الصبر على ماتكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر،وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا» [2] .

وسأقتصر في الكلام في شرح هذا الحديث على بيان قوله ﷺ «احفظ الله يحفظك » أي احفظ الله تعالى في دينه يحفظك في دنياك وأخراك،

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب صفة القيامة، باب ٥٩ (٤/ ٦٦٧رقم ٢٥١٦) ، صحيح سنن الترمذي، رقم (٢٠٤٣-٢٦٤٨) .

(٢) مسند أحمد ١/ ٣٠٧ .

وحفظ الدين يكون بفهمه كما جاء من عند الله تعالى وتطبيقه على النفس تطبيقا كاملا .

ومما جاء في حفظ الله تعالى عباده المؤمنين ما أخرجه الحافظ الطبراني من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «يقول الله عز وجل إن من عبادي من لايُصلِح إيمانه إلا الفقر ولو بسطْتُ عليه أفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي من لايُصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي من لايُصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي من يطلب بابا من العبادة فأكفه عنه لكيلا يدخله العُجْب ، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني عليم خبير»ذكره الحافظ ابن رجب ، وأخرجه البيهقي والحكيم الترمذي وابن عساكر [1] .

وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « إن العبد ليهمُّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له ، فينظر الله إليه فيقول للملائكة : اصرفوه عنه فإنه إن يسرته له أدخلته النار فيصرفه الله عنه ،

(١) جامع العلوم والحكم/ ١٦٤، الأسماء والصفات / ١٥٠نوادر الأصول/ ٢٠٤،تاريخ دمشق / ٩٦/٧ .

فيظل يتطير بقوله سبني فلان وأهانني فلان ، وماهو إلا فضل الله عز وجل » ذكره الحافظ ابن رجب ، وأخرجه أبو نعيم [1] .

ومما يدخل في ذلك ما يشعر به بعض الناس من أن سبب إخفاقهم في مشاريعهم الدنيوية هو إصابتهم بالعين من الحاسدين .

قال ابن رجب :وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته كما قيل في قوله تعالى ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ [الآية :الكهف :٨٢] أنهما حُفظا بصلاح أبيهما ، قال سعيد بن المسيب لابنه: لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك،ثم تلا هذه الآية،وقال ابن المنكدر:إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدويرات التي حوله ، فمايزالون في حفظ من الله وستر.

قال : ومن عجيب حفظ الله لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى، كما جرى لسفينة مولى النبي ﷺ ثم ذكر خبره مختصرا [2] .

وقد ذكر خبره الحافظ الطبراني من خبر محمد بن المنكدر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها

---

(١) جامع العلوم والحكم / ١٦٣ ، حلية الأولياء ٨/ ٢٥٢ .

(٢) جامع العلوم والحكم / ١٦٣ .

فركبت لوحا من ألواحها فطرحني اللوح في أجَمة فيها الأسد فأقبل إليَّ يريدني فقلت : يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله ﷺ فطأطأ رأسه وأقبل إليَّ فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة ووضعني على الطريق، وهَمْهم، فظننت أنه يودعني فكان ذلك آخر عهدي به .

وأخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي [1] .

وهذا يدل على قوة توحيد أبي عبد الرحمن سفينة رضي الله عنه حيث شعر حال رؤيته الأسد بأنه هو وإياه في قبضة الله تعالى ، وأنه جل وعلا الذي أودع في الأسد القوة والشراسة قادرٌ أن يحوِّله حَمَلاً وديعا يتذلل لذلك الرجل الصالح ، بل أبلغ من ذلك أن الأسد قام بما يقوم به الإنسان العاقل من دلالة سفينة على الطريق الموصل إلى الأمان .

ولقد كان أول ماتبادر إلى ذهن سفينة رضي الله عنه قربه من رسول الله ﷺ وما قام به من خدمته فتوسل إلى الله تعالى بهذا العمل الصالح .

وسفينة قد اختلف في اسمه اختلافا كثيرا ، وذلك لأنه ألغى اسمه القديم واكتفى بالاسم الذي سماه به رسول الله ﷺ ، كما ذكر ابن الأثير أنه كان إذا قيل له ما اسمك؟ يقول: ما أنا بمخبرك سماني رسول الله ﷺ

(١) معجم الطبراني الكبير ٧/ ٩٤ رقم ٦٤٣٢ ، المستدرك ٣/ ٦٠٦ .

سفينة فلا أريد غيره ، وذكر أن أصل تسميته بذلك أنه كان مع رسول الله ﷺ في سفر ، فكلما أعيا بعض القوم ألقى عليه سيفه وترسه ورمحه حتى حمل من ذلك شيئا كثيرا ، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : أنت سفينة [1] .

وإننا حينما نطلع على هذا الحديث فإننا – في الغالب- لانصل في معرفته إلى حد علم اليقين ، فلا نفهم من قول النبي ﷺ « يحفظْك» لزوم تحقق وعد النبي ﷺ بحفظ الله لعباده المتقين إذا حفظوا الله تعالى في دينه فطبقوه كمال التطبيق وعظموا الله – سبحانه – حق تعظيمه، ومثله قول الله عز وجل ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ ومن أجل عدم بلوغ معرفتنا إلى حد علم اليقين فإننا لا نستفيد كثيرًا من الآيات والأحاديث التي فيها وعد الله سبحانه بحفظنا ونصرنا ، لأننا نحملها – في الغالب – على احتمال وقوع ذلك، ولقد كان من أعظم أسلحة النصر التي تزود بها الصحابة – رضي الله عنهم – بلوغ معرفتهم إلى حد اليقين في آيات وأحاديث الوعد ، فكانوا ينطلقون لقتال أعدائهم وهم واثقون من أن النصر حليفهم ، وكان الأمر الوحيد الذي يركزون عليه في التنبيه أن يتأكد المسلمون من أنهم مع الله تعالى ، وأنهم قد حفظوا دينهم ، ومن هذا

(١) أسد الغابة ٢/ ٣٣٤ .

المنطلق قابل المسلمون في المدينة جموع المرتدين والمتمردين في جزيرة العرب بعد وفاة النبي ﷺ ، وقابلوا جيوش دولتي العالم العظيمتين الفرس والروم في وقت واحد ، فنصرهم الله تعالى على جميع أعدائهم[1] .

قضاء حوائج المسلمين :

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من مشى في حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق ، كل خندق أبعد مما بين الخافقين » .

رواه الحافظ الطبراني في معجمه الأوسط[2] .

وقال الحافظ الهيثمي : إسناده جيد[3] .

بيَّن النبي ﷺ في هذا الحديث ضخامة العمل الصالح؛ فيما يتعلق بقضاء حوائج المسلمين والإحسان إليهم ، وذلك بصورة تجعل مَنْ فهم هذه الضخامة ينافس إخوانه المسلمين على هذا العمل ، فقد جعل ﷺ القيام بقضاء حاجة المسلم أفضل من الاعتكاف عشر سنين ، ثم بين أن

---

(١) ينظر الكلام على بقية الحديث في كتاب « مختارات من أحاديث الإيمان للمؤلف ص١٤٣».

(٢) المعجم الأوسط (٥/ ٢٧٩ رقم ٧٣٢٦) .

(٣) مجمع الزوائد (٨/ ١٩٢) .

من اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق ، كل خندق منها أبعد مما بين المشرق والمغرب.

فإذا تصورنا هذا الجزاء لاعتكاف يوم واحد فما هو جزاء اعتكاف عشر سنين التي تعادل ثلاثة آلاف وستمائة يوم ، فإذا كان جزاء كل يوم يعادل البُعْدَ من النار ثلاثة خنادق فإن جزاء اعتكاف ثلاثة آلاف وستمائة يوم هو عشرة آلاف وثمانمائة خندق ، وكل خندق أبعد مما بين المشرق والمغرب .

وبهذا يكون جزاء من سعى في حاجة أخيه المسلم أن يباعد الله سبحانه بينه وبين النار عشرة آلاف وثمانمائة خندق ، يعدل كل واحد منها ما بين المشرق والمغرب.

فهل بعد هذا الجزاء العظيم الهائل يتقاعس المسلم عن السعي في حاجة أخيه المسلم .

لو كان هناك إيمان عند المسلمين يصل إلى حد اليقين لم يوجد مسلم عنده حاجة ؛ لأن الملايين من المسلمين سيسارعون إلى قضاء حوائج إخوانهم رجاء الحصول على هذا الثواب العظيم .

واليقين هو أن يصل تصور المسلم لوجود الشيء مرحلة علم اليقين التي تقرب من عين اليقين ، فلو أن إنسانا أخبر قوما بأن سلوكهم هذا

الطريق سيوقعهم في نهايته في نار عظيمة ، وإذا رأوها فلن يستطيعوا النجاة منها .. فإن مشاهدتهم تلك النار هو عين اليقين ، وإيمان الذين آمنوا بصدق من أخبرهم وتركُهم ذلك الطريق هو علم اليقين .

فالذين وصلوا إلى علم اليقين إذا سمعوا بهذا الحديث وأمثاله فإنهم يسارعون إلى تطبيقه ، أما الذين لم يصلوا إلى علم اليقين فإنهم يسمعونه وينسونه بعد ذلك ولا يكون له أثر في سلوكهم .

وقد جاء هذا الثواب العظيم من أجل الترغيب في عمل لا يُقْدِم عليه الناس كثيرا ، لأن النفوس يغلب عليها العمل لذواتها ، وتستثقل بذل الجهد في قضاء حوائج الناس، لأن ذلك يكلف الإنسان عملا زائدًا على أعماله اليومية .

دروس في السيرة النبوية

أما الدرس الثاني من دروس الحرم المكي الشريف فقد كان في مختارات من السيرة النبوية ، وهذا نموذج مختصر لبعض هذه الدروس :

مثل من ثبات النبي ﷺ :

في خبر شكوى قريش لأبي طالب من رسول الله ﷺ لكونه ينتقد عبادتهم للأصنام ، وما وقع فيه أبو طالب من الحرج مع قومه وقوله لرسول ﷺ : يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا فأَبق عليَّ وعلى نفسك ولاتحمِّلني من الأمر ما لا أطيق ، وقول النبي ﷺ « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يمني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » وأن النبي ﷺ استعبر فبكى، فقال له أبو طالب : اذهب يا ابن أخي فقل ما أجببت فو الله لا أسلمك لشيء أبدا [1].

إن هذا لموقف عظيم من رسول الله ﷺ حيث وقف وهو في قلة من أنصاره يتحدى زعماء قريش وهم في عزهم وغناهم ومكانتهم العالية في العرب ، وقد بين صلابته في التمسك بهذا الدين ودعوة الناس إليه مهما تكن الظروف ، ومهما وُضع في طريقه من عقبات ، وأنه على استعداد

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٦١ – ٢٦٤) باختصار .

كامل لأن يقدِّم نفسه رخيصة في سبيل هذا الدين ، فضرب بذلك المثل العالي لأمته والقدوةَ الكاملة للدعاة إلى الله تعالى في تسخير نفسه بكل طاقاتها لخدمة دعوته ولو أدى ذلك إلى هلاكها.

فليسر على دربه المؤمنون المتقون في بذل الجهد في الدعوة وتحمُّل كل ما يواجههم من صعوبات ونكبات فإن لهم فيه ﷺ أسوة حسنة .

هذا وإن تلك الدموع الغالية التي تحدرت من عيني رسول الله ﷺ تبين لنا خطورة الموقف وصعوبة الأمر عليه ، حيث كان بين أمرين كل واحد منهما شاق على نفسه ، لكن إيقاع عمه في الحرج أهون عليه كثيرًا من التنازل عن دعوته ، بل لامقارنة بين الأمرين لأن أحدهما صعب والآخر مستحيل .

وإنه من أجل الخروج من هذا المأزق وإصدار القرار السامي الذي لاخيار له فيه فإنه لابد لصاحب النفس الكريمة التي بلغت نهاية الكمال البشري في السمو الأخلاقي أن يعبر عن أساه وأسفه لصاحب المعروف الكبير عليه أن أوقعه في حرج كبير وأدخله في معركة حامية مع قومه، في الوقت الذي كان يتوسل إليه أن لايوقعه في ذلك ، فكانت الدموع الزكية أبلغ تعبير عن ذلك الأسى والأسف .

إن دموع فحول الرجال الأشداء غالية ، وتكون أشد غلاء حينما

تنحدر من عيني من بلغ الكمال في كل معاني الرجولة ، وإن غلاء تلك الدموع ليصور لنا جسامة المسؤولية التي تحملها رسول الله ﷺ واستهان من أجلها بكل ما تعارف عليه البشر من الأخلاق والتقاليد والعادات .

مثل من تأثر الصحابة بالقرآن وقوة تأثيرهم به :

إن من أبرز الأمثلة على اتصاف الصحابة رضي الله عنهم بذلك ما أخرجه الامام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها عن خبر إجارة ابن الدَّغنَّة [1] لأبي بكر رضي الله عنه وقد جاء فيه : فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وآمنوا أبا بكر ،وقالوا لابن الدغنة : مر أبابكر فليعبد ربه في داره وليصلِّ وليقرأ ما شاء ولايؤذنا بذلك ولا يستعلن به ،فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا .

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فطفق أبوبكر يعبد ربه في داره ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره،ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وبرز، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيَتَقَصَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاء

---

(١) ابن الدغنة بفتح الدال وتشديدها وكسر الغين هو سيد القارة وهي قبيلة مشهورة من بني الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وكانوا حلفاء بني زهرة من قريش – فتح الباري ٧/ ٢٣٣ .

لايملك دمعه حين يقرأ القرآن .

فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا له : إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجدًا بفناء داره وأعلن الصلاة والقراءة ، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، فَأْته فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسلْه أن يرد إليك ذمتك، فإنّا كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذي عقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترد إليَّ ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخفِرت في رجل عقدت له ، قال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى [1] .

وهكذا رأينا مظهرًا من مظاهر رسوخ الإيمان وقوة حضور القلب مع الله تعالى تمثل في البكاء من خشيته عند تلاوة كتابه ، والبكاء مبعثه قوة التأثر إما بحزن شديد أو فرح غامر ، والمؤمن الحق يظل بين الفرح بهداية الله تعالى إلى الصراط المستقيم ، والإشفاق من الانحراف قليلاً عن هذا الصراط .

---

(١) صحيح البخاري رقم ٢٢٩٧ – ٣٩٠٥ .

وإذا كان ذا قلب كبير كأبي بكر فإنه يشفق على من حوله من البشر التائهين ويتألم إذا لم يتمكن من هدايتهم ، ويتركز شعوره القوي كلما تلا كتاب الله تعالى فأصبح خياله مرة يحلق بين جنبات الأفق الأعلى ، حيث الملائكة المقربون والحياة الآخرة بما فيها من نعيم وعذاب ، وفوق ذلك كله هيمنة الملك الجبار جل شأنه ، ومرة يتأمل في مسيرة معركة الحق مع الباطل على أيدي من اصطفاهم الله تعالى لرسالته ، وما يعقب ذلك من مصارع الأمم الباغية ، ثم يلقي نظرة على الحائرين التائهين من حوله وهم يكررون ملحمة الطغاة السابقين وينتظرون مصيرهم ومصير تابعيهم المحزن إن لم يتجردوا من الهوى الجامح ويثوبوا إلى رشدهم .. كل ذلك وغيره من المعاني السامية الفياضة يعبر عنه بكاء أبي بكر وهو يتلو كتاب الله تعالى .

ونجد في رد أبي بكر جوار ابن الدغنة مثل المؤمن الحق الذي لايقبل المساومة في التنازل عن دعوته ، فليس واجب المسلم ينتهي عند قيامه بعبادة ربه الخاصة ، بل لابد من دعوة الناس إلى اعتناق هذا الدين والالتزام به ، فأبو بكر كان بإمكانه أن يصلي وأن يتلو القرآن داخل بيته ، ولكن كيف يصل إليه من تشتاق قلوبهم لرؤيته وسماع تلاوته إن فعل ذلك ؟

وها هو يرى أن من تجردت قلوبهم من الهوى المنحرف يستمعون لقراءته فيظلون خاشعين لمنظره الأخَّاذ ومظهره الآسر وهو يخلط تلاوته بالبكاء من خشية الله تعالى ، وهم يعلمون أن وراء هذا البكاء تأثرًا ضاغطًا بمعاني سامية لاتتوافر لدى أكابرهم الذين يهيمنون عليهم ويصورون لهم رسول الله ﷺ والمؤمنين به بصورة الخطر الداهم والبلاء الهابط ، فيقارنون سريعًا بين قوم تَشِفُّ قلوبهم وجوارحهم بمبادئهم التي يؤمنون بها فتتجسَّم بصورة دموع فياضة وأخلاق سامية يعلوها التواضع والإيثار ويكسوها الحلم والسماحة .. وبين سادتهم الذين يتعاملون معهم بالكبرياء والأثرة ويُلبِّسُون الحقائق التي أضحت كالشمس بلباس التزييف والتمويه الذي لايخفى على ذي عقل مدرك وفكر نيِّر ، فلا يزال كل يوم ينحاز من معسكر الكفر رجال ممن نور الله بصائرهم وطهر قلوبهم ، سواء ممن لهم وزنهم الكبير بين قومهم أو ممن كانوا يستضعفونهم ، فتعلو بذلك كفة أهل الإيمان وتنخفض كفة أهل الباطل .

إنه لايُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها فلابد لكل مسلم أن يشعر وهو يقرأ القرآن الكريم أنه يتلو كلام الله تعالى وأن يستحضر عظمته في قلبه ، وأن يتدبر معانيه مع الشعور بأنه الكتاب الوحيد الذي

بقي يمثل الوحي الإلهي ، واستصحاب الرغبة الأكيدة في طلب الاستهداء به وهداية الناس بنوره إلى الصراط المستقيم .

ولاشك أن كل ماذكر في شأن أبي بكر رضي الله عنه فإن رسول الله ﷺ أعظم من ذلك بكثير ، والصحابة رضي الله عنهم كل مالهم من فضائل إنما هم في ذلك تلاميذ صاحب الرسالة العظمى ﷺ ، وقد مر علينا أمثلة من تأثر الكفار بسماع تلاوته وكلامه .

مثل أعلى للتحول بعد الهداية :

حينما تتجمع خصال أمة من الناس في رجل واحد يصنع العجائب بقدرة الله تعالى، إذا آمن واستقام ، لأنه بإيمانه بالله تعالى يكون فكره مشدودًا إلى الأعلى ، إلى صانع الكون ومدبره فتسمو مداركه وتصفو تصوراته ، وباستقامته تزكو نفسه ، وينمو إيمانه ، ويتطهر قلبه وجوارحه من الزلل والانحراف .

ولكنه حينما يظل على الكفر فإنه يبقى تائهًا مقصورًا فكره على محقرات الأمور التي لاتعدوها تصورات الناس المجردة من الإيمان ، وتظل مواهبه حبيسة مكبوتة لأن حجاب الكفر يعرقلها بالأغلال ، ويحيطها بالظلمات الحالكة ، فلا تنطلق إلا في حدود ضيقة تحكمها عادةً الأعراف القومية بما فيها من كبت وانحراف .

وحينما يؤمن ولايطبق حدود الاستقامة تعود إلى الفكر حجب الجاهلية بشكل آخر يتسم بالشعور الدائم بالذنب الذي يعطل الفكر ويقيده فلا يدعه ينطلق إلى الجو الأعلى الرحيب .

فكما أن الكفر بمختلف مذاهبه أغلال مقيدة للعقل السليم والفكر النافذ فإن المعاصي كذلك وإن اختلفت مناحي الغَل والتقييد .

وهكذا كان عمر بن الخطاب ﷺ في جاهليته حينما لم يكن شيئًا مذكورًا إلا في حدود أعراف قبيلته الجاهلية .. ثم كان ما كان بعد إسلامه من عظمته الخارقة ، التي أصبحت مضرب المثل عبر الأجيال .

ولقد عبر عبد الله بن مسعود ﷺ عما أحدثه إسلام عمر في الأمة بقوله : إن إسلام عمر كان فتحًا ، وإن هجرته كانت نصرًا ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا مانصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه [1] .

وقال أيضًا « مازلنا أعزة منذ أسلم عمر » [2] .

لقد كان عمر رضي الله عنه شديد القسوة على المسلمين قبل أن يسلم ، فلما هداه الله للإسلام حوَّل قوته العظيمة للدفاع عن الإسلام

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني « فتح الباري ٧/ ٤٨» .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة باب ٦ « الفتح ٧/ ٤١» .

والمسلمين فكان عظيم التحدي للكفار حتى اعتز به المسلمون ، وفرق الله به بين الحق والباطل ، ولذلك لقبه رسول الله ﷺ بالفاروق .

هذا وقد روى المؤرخ محمد بن إسحاق وأبو نعيم – رحمهما الله – قصة إسلام عمر – رضي الله عنه – مطولة ، وقد جاء فيها أنه خرج متوشحًا سيفه يريد قتل النبي ﷺ ، وأن نُعيم بن عبد الله – رضي الله عنه – صرفه عن ذلك حينما أخبره بأن أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد – رضي الله عنهما – قد أسلما ، وأنه بعد محاورة بينه وبين أخته فاطمة طلب منها الصحيفة التي كان يقرئهما منها خبَّاب بن الأرتِّ – رضي الله عنه – وأنها أعطته الصحيفة لما رأت منه بوادر الميل إلى الإسلام ، وكان فيها الآيات الأولى من سورة « طه » ، وأنه لما قرأها دخل قلبَه الإسلام وقد عبَّر عن ذلك بقوله عن تلك الآيات : فتعظَّمتْ في صدري فقلت : لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ، فما في الأرض نسمة أحب إلي من رسول الله ﷺ ، قلت : أين رسول الله ﷺ ؟ قالت – يعني أخته فاطمة – : عليك عهد الله وميثاقه ألاَّ تجبهه بشيء يكرهه ، قلت : نعم ، قالت : فإنه في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فذهب إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه ففرح رسول الله ﷺ والمسلمون فرحًا شديدًا ، مع ما كان قُبَيل ذلك من إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

وقد جاء في ختام رواية ابن إسحاق : « فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ ، وينتصفون بهما من عدوهم »[1] .

وإن في تحول عمر السريع واستجابته للإسلام حين سمع القرآن لدليلاً على الضغط الرهيب الذي كان زعماء مكة آنذاك يمارسونه على الناس حتى طوقوهم بذلك الحجر الفكري الذي حَرَمَ هذا العبقري الألمعي من سماع القرآن طيلة تلك السنوات،فما أن لامست روعة القرآن الكريم حسه المرهف حتى اهتز كيانه ، وانتعش وجدانه ، فأعلن كلمة الحق مدوِّية في الفضاء بكل عزة وإباء،وهاجم الباطل بكل شجاعة وإقدام واستفز رؤوس الطغيان واستهان بهم، لأنه يعلم يقينا أنهم كانوا وراء بقائه سابقًا على الضلال ، وبقاء كل من تجرد من الهوى المنحرف على ضلاله بما يقومون به من الإعلام المضلل والحجر الفكري المنظم .

وهكذا تم إسلام عمر ﷺ ، وانطلق من تلك اللحظة في العمل لخدمة الإسلام متفانيًا في الدفاع عنه معليا من شأن المسلمين ، وما زال بعد ذلك مجاهدًا في سبيل الله واهبًا نفسه بكل ما تملك من طاقات لخدمة الإسلام والمسلمين حتى قتل شهيدًا في سبيل الله تعالى في آخر خلافته .

---

(١) ينظر في خبر إسلام عمر كتاب « وقفات مع السيرة النبوية » للمؤلف (١/ ٢١٨-٢٢٥) .

وكان كما وصفته عائشة رضي الله عنها:«كان والله أحوذيًّا نسيجَ وحْدِه، كأنما خلق للإسلام ، قد أعدَّ للأمور أقرانها»فرضي الله عنه وأرضاه.

دورة في بلجيكا

في شهر صفر من عام ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م تم تكليفي من رابطة العالم الإسلامي بإقامة دورة علمية لبعض دول غرب أوروبا ، وكان مقر الدورة في «بروكسل» عاصمة بلجيكا ، وقد شارك معي في هذه الدورة فضيلة الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح ، وسافرت أنا وإياه إلى بلجيكا، وشارك في هذه الدورة طلاب من بلجيكا وهولندا وألمانيا وبريطانيا،وأغلبهم من دعاة الرابطة ، وقد كانت الدورة في المركز الإسلامي التابع للرابطة ، وفيه معهد لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي،فكانت هذه الدورة في فصول ذلك المعهد وشارك فيها طلاب المعهد .

وقد ألقيت في هذه الدورة عددا من المحاضرات ، منها محاضرة بعنوان « **مواقف في العفو عند المقدرة** »،وهذا جزء من تلك المحاضرة:

موقف لرسول الله ﷺ في التوكل على الله :

أخرج الأئمة أحمد والشيخان من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قاتل قبيلة محارب الغطفانية فرأوا من المسلمين غرة ، فجاء رجل منهم إلى النبي ﷺ يقال له غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ قال : الله عز وجل ، فسقط

السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ فقال : من يمنعك مني ؟ قال: كن كخير آخذ ، قال : أتشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : لا ، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلَّى سبيله ، فذهب إلى أصحابه قال: قد جئتكم من عند خير الناس [1].

في هذا الحديث اتصاف النبي ﷺ بالتوكل على الله – تعالى – والاعتماد عليه في النصر على الأعداء ، فحينما قال له غورث بن الحارث: من يمنعك مني ؟ قال: « الله » ، وهذا يُعدُّ درسًا للأمة في اللجوء إلى الله – سبحانه – واستمداد النصر منه وحده .

وفيه اتصافه ﷺ بالشجاعة الفذَّة ورباطة الجأش ؛ حيث كان ثابتَ القلب ، هادئ النفس والسيفُ في يد عدوه مُصْلتًا وهو مجرَّد من السلاح.

وفيه اتصافه ﷺ بالعفو عند المقدرة ؛ فقد عفا عن ذلك الأعرابي وهو مستحق العقوبة ، والعفو عند المقدرة خصلة عظيمة لا يقدر عليها إلا الكاملون من الرجال .

ولاشك أن لهذا الخُلق الكريم أثرًا بالغًا في الدعوة إلى الإسلام ،

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٣٦٥ ، صحيح البخاري ، رقم ٤١٣٥ ، ٤١٣٦ (٧/ ٤٢٦) صحيح مسلم ، رقم ٨٤٣ (ص ٥٧٦) .

فقد جاء في بعض روايات هذا الخبر أن ذلك الأعرابي أسلم ، وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير [1].

موقف لرسول الله ﷺ مع فضالة بن عُمير :

ذكر ابن هشام في رواية له أن فضالة بن عُمير بن المُلَوّح الليثيَّ أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عامَ الفتح، فلما دنا منه ، قال رسول الله ﷺ : أفَضالة ؟ قال: نعم فضالة يارسول الله ، قال : ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، قال : فضحك النبي ﷺ ، ثم قال: استغفر الله ، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول :والله مارفع يده عن صدري حتى مامنْ خلق الله شيٌ أحبُّ إليّ منه. قال فضالة : فرَجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدّث إليها ، فقالت: هَلمَّ إلى الحديث ، فقلت :لا ، وانبعث فَضالة يقول:

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يـــأبى عـليك اللهُ والإسـلامُ

لــو مـــارأيــت محمدًا وقَبيله ... بالفتح يـــومَ تُكـَّسر الأصـْنامُ

لـــرأيت ديــنَ الله أضْحَى بَيِّنًا ... والشِّركَ يغشى وجهَه الإظلامُ[2]

في هذا الخبر مواقف منها :

---

(١) فتح الباري : ٧/ ٤٢٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٨ – ٤٩ .

أولا : ما اشتمل عليه من أخلاق النبي ﷺ العالية في العفو والتسامح والحلم حيث واجه من كان يريد قتله بالبشاشة وعفا عنه وتوجه لدعوته إلى الإسلام الحق .

إن الذي كان يشغل بال النبي ﷺ هو أن يهدي الله تعالى على يديه أكبر قدر ممكن من البشر، وكانت هذه المهمة تطغى في حياته على كل أمر دنيوي ، ولهذا حينما علم بما كان يضمره فضالة من إرادة الفتك به لم يُلْق لأمر حمايته منه بالا ، ولم يشغل فكره بكيفية الانتقام منه، وإنما توجه فكره حالاً لمحاولة هدايته من الضلال .

ولقد كان لمظهر النبي ﷺ وهو يبتسم له ويأمره بالاستغفار مع شعوره بأنه قد عرف مقصده وما يتضمنه ذلك من حلم النبي ﷺ وعفوه عنه أثر ظاهر في محو كل أثر للشرك والكراهية من قلب فضالة إلى جانب بركة يد النبي ﷺ التي وضعها على صدره ، لقد تحول أبغض الناس إليه إلى رجل هو أحب الناس إليه في لحظات يسيرة، وماذاك إلا لأنه ﷺ عامله بأعلى ما يُتصوَّر من مكارم الأخلاق من الحلم والعفو والبشاشة ، في الوقت الذي كان يتوقع لو انكشف أمره أن يعامل بأقسى مايمكن أن يُتصوَّر من المعاملة .

ثانيًا : موقف فضالة بن عمير الليثي رضي الله عنه في الورع

والاستقامة رغم حداثة عهده بالإسلام فقد رفض أن يتحدث مع تلك المرأة التي كان يتحدث إليها قبل إسلامه وأشعرها بأن ذلك لا يحل له في الإسلام .

لقد كان إسلامه قويًّا وإيمانه صادقا حيث تكوَّن لديه بهذه السرعة الوازع الديني الذي جعله يرفض الاستجابة للحرام إجلالاً لله تعالى ولشرف الشهادتين اللَّتين نطق بهما عن يقين وقناعة .

وهذا مثل ظاهر على أثر إيمان الصحابة رضي الله عنهم البالغ في سلوكهم ومعاملتهم مع الناس .

موقف لرسول الله ﷺ مع شيبة بن عثمان الحجبي :

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : وذكر ابن سعد عن شيبة بن عُثمان الحَجَبي . قال : لما كان عامُ الفتح . دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة ، قلت : أسيرُ مع قريش إلى هوازن بحُنين . فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرَّة . فأثأر منه،فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها ، وأقول: لو لم يبقَ من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدًا ، ماتبعته أبدًا .

وكنت مُرْصدًا لما خرجتُ له لايزدادُ الأمر في نفسي إلا قوةً ، فلما اختلط الناسُ،اقتحم رسولُ الله ﷺ عن بغلته ، فأصْلَتُّ السيف ، فدنوت أريدُ ماأريدُ منه ، ورفعتُ سيفي حتى كدتُ أشعره إياه . فرُفع لي شواظٌ

من نار كالبرق كاد يمحشُني ، فوضعتُ يدي على بصري خوفًا عليه، فالتفتَ إليَّ رسول الله ﷺ ، فناداني : «ياشَيْب ادنُ منِّي» [1] فَدَنوت منهُ، فمسَحَ صدْري ، ثم قال : «اللهم أعذهُ من الشيطان » « قال : فو الله لهُو كان ساعتئذ أحبَّ إليَّ من سمعي ، وبصري ، ونفسي ، وأذهب الله ماكان في نفسي ، ثم قال : «ادن فقاتل» .

فتقدمت أمامه أضرب بسيفي ، الله يعلمُ أني أحب أن أقيه بنفسي كلَّ شيء،ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حيًّا لأوقعتُ به السيف ، فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون،فكرُّوا كرةَ رجل واحد، وقُرِّبتْ بغلة رسول الله ﷺ ، فاستوى عليها ، وخرج في أثرهم حتى تفرَّقوا في كلِّ وجه ، ورجع إلى معسكره ، فدخل خباءه ، فدخلت عليه ، مادخل عليه أحدٌ غيري حبًّا لرؤية وجهه ، وسرورًا به ، فقال : «ياشيْبَ الذي أراد الله بك خير مما أردت لنفسك»، ثم حدثني بكلِّ ماأضمرت في نفسي مالم أكن أذكره لأحد قط ،قال:فقلت:فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، ثم قلت : استغفر لي ، فقال : «غفر الله لك » [2] .

---

(١) «شيْبَ»حذفت منه التاء على أسلوب الترخيم،وهو أسلوب بليغ يُقصد منه ملاطفة المخاطب.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٤٧٠ ؛ وذكره الحافظ ابن حجر وعزاه إلى ابن أبي خيثمة وابن إسحاق والبغوي –الإصابة ٢/ ١٥٧ ، رقم ٣٩٤٥–.

وهكذا أطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما أضمره له شيبة بن عثمان الحجبي من إرادة الفتك به وحماه ﷺ منه بملائكته ، فلما انكشف أمره ووقع بين يديه لم يعاقبه ولم يعنِّفه وإنما قصد هدايته من الضلال فناداه بأسلوب الملاطفة ومسح بيده على صدره ودعا له ، فتحوَّل شيبة في لحظة من مبغض حاقد بلغ به الغيظ من النبي ﷺ إلى محاولة الإقدام على قتله .. تحوَّل إلى محب للنبي ﷺ حبا يفوق حب نفسه ، وبعد أن كان يتصيد الفرص للفتك به أصبح يقاتل بين يديه ويقيه بنفسه .

وهذا مثل مما تُنتجه الهداية إلى الدين الحق من تحوُّل جذري في السلوك والفكر .

هذا التحول من محاولة طمس مصدر النور الذي أضاء الدنيا كلها إلى بذل كل الجهد في حماية ذلك المصدر كان من أهم دوافعه ماجُبل عليه رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق .

موقف لعثمان رضي الله عنه :

أخرج ابن شبة النميري من خبر عمران بن عبد الله بن طلحة : أن عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج لصلاة الغداة فدخل من الباب الذي كان يدخل منه ، فزحمه الباب فقال: انظروا ، فنظروا فإذا رجل معه خنجر أو سيف ، فقال له عثمان رضي الله عنه : ماهذا ؟ قال: أردت أن أقتلك ، قال: سبحان الله ، ويحك عَلامَ تقتلني ؟ قال: ظلمني عاملك

باليمن، قال: أفلا رفعت ظلامتك إليّ فإن لم أنصفك – أو أُعديك – على عاملي أردتَ ذلك مني ؟ فقال لمن حولـه : ماتقولون ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين ، عدوٌّ أمكنك الله منه ، فقال: عبدٌ همَّ بذنب فكفَّه الله عني، ائتني بمن يكفل بك : لاتدخل المدينة ماوليتُ أمر المسلمين ، فأتاه برجل من قومه فكفل به، فخلَّى عنه [1] .

فهذا تسامح كبير من أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، حيث عفا عمن أراد قتله، والعفو عند المقدرة صفة من صفات الكمال في الرجال ، وهو دليل على التجرد من حظِّ النفس، وتقلص الأنانية ، وبروز خلق الإيثار ، وضعف الارتباط بالدنيا ، وقوة الارتباط بالآخرة .

بقية أخبار الدورة :

قد كان للدكتور عبد الله المصلح نشاط بارز في توعية المسلمين الجُدد، فقد قام مدير المركز الإسلامي الدكتور « عبد العزيز اليحيى» بتنظيم لقاءاتٍ يوم الأحد يحضر فيها عدد من المسلمين الجدد .

وقد وافق إقامة الدورة قدوم معالي الأمين العام إلى بلجيكا لحضور مؤتمر إسلامي ، وقد كان الحفل الختامي لتلك الدورة على شرف حضوره، وألقى على الطلاب كلمة توجيهية .

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ١٠٢٧ – ١٠٢٨ .

دورة في أوغندا

في شهر ربيع الثاني من عام ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م تم تكليفي من رابطة العالم الإسلامي بإقامة دورتين:إحداهما في أوغندا والثانية في كينيا، وقد صحبني في تلك الدورتين الأخ الكريم الدكتور عبد الله أبو عِشِّي المالكي، وقد سعدت بصحبته كثيرا لما يتمتع به من التقوى ودماثة الخلق، وقد سافرنا إلى أوغندا مرورًا بمطار كينيا ، وقد استقبلنا مدير مكتب الرابطة في «كمبالا» عاصمة أوغندا ، وكان في مقر إقامة الدورة قاعة كبيرة ، وقد سجل في الدورة أكثر من مائة وخمسين طالبا ، فيهم عدد من دعاة الرابطة .

وقد استمرت الدورة أسبوعًا ، وكانت المحاضرات في الصباح بيني وبين الدكتور عبد الله وفي المساء نُجري لقاءات خاصة مع الطلاب ، ومن أبرز المحاضرات التي ألقيتها في تلك الدورة محاضرة بعنوان «**مواقف في الإحسان وقضاء الحوائج** » وهذا جزء من تلك المحاضرة :

موقف لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

عن عبد الله بن دينار قال: خرجت مع ابن عمر إلى مكة ، فعرَّسنا[1] فانحدر علينا راعٍ من جبل ، فقال له ابن عمر : أراعٍ ؟ قال : نعم ، قال:

---

(١) أي نزلنا .

بعني شاة من الغنم ، قال: إني مملوك ، قال: قل لسيدك أكلها الذئب ، قال فأين الله عز وجل ؟ قال ابن عمر : فأين الله !! ثم بكى ، ثم اشتراه بعدُ ، فأعتقه .

وفي رواية ابن أبي رواد عن نافع « فأعتقه واشترى له الغنم »[1] .

هذا الخبر يدلنا أولاً على اهتمام عبد الله بن عمر بمعرفة أهل التقوى فقد قام باختبار ذلك الراعي ليعرف مدى ورعه وتقواه حيث طلب منه بيع تلك الشاة وأن يقول لسيده إن الذئب قد أكلها،فلما عرف ورعه وتقواه اشتراه من سيده واشترى معه الغنم ثم أعتقه ووهب له تلك الغنم.

موقف لحارثة بن النعمان رضي الله عنه :

أخرج محمد بن سعد من خبر محمد بن عثمان عن أبيه : أن حارثة بن النعمان كان قد كُفَّ بصره فجعل خيطا في مصلاه إلى باب حجرته ووضع عنده مكتلا فيه تمر وغير ذلك ، فكان إذا سلم المسكين أخذ من ذلك التمر ثم أخذ على الخيط حتى يأخذ إلى باب الحجرة فيناوله المسكين، فكان أهله يقولون : نحن نكفيك ، فيقول : سمعت رسول الله

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢١٦ .

ﷺ يقول : « إن مناولة المسكين تقي ميتة السوء »[1] .

فهذا الصحابي الجليل كان عظيم الاهتمام بالصدقة ومراعاة المساكين، حيث كان يناولهم الصدقة بنفسه ، وفي ذلك ما فيه من النشوة والفرح في رؤية علامات السرور والغبطة على وجوه الفقراء ، فلما كف بصره لم يجعل ذلك عائقًا عن القيام بهذه المهمة الجليلة مكتفيا بسماع أصوات المساكين بالدعاء له الذي يرجو من ورائه الخاتمة السعيدة في الدنيا والظفر برضوان الله تعالى والسعادة في الجنة .

موقف لعلي بن الحسين رحمه الله :

أخرج الإمام أحمد من خبر شيبة بن نعامة قال : كان علي بن الحسين عليه السلام يُبَخَّل ، فلما مات وجدوه يعول مائة أهل بيت بالمدينة .

وأخرج من خبر أبي حمزة ثابت الثمالي : أن علي بن الحسين كان يحمل الجراب فيه الخبز ، ويقول: إن صدقة الليل تطفئ غضب الرب عز وجل .

وأخرج من خبر محمد بن إسحاق قال : كان ناس من أهل المدينة يعيشون ، مايدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات علي بن الحسين رحمه

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٤٨٨ ، وذكر الحافظ ابن حجر أن هذا الخبر رواه الطبراني والحسن بن سفيان – الإصابة ١/ ٢٩٨ رقم ١٥٣٢ .

الله فقدوا ماكانوا يُؤتَون به بالليل [1] .

فهذه أخبار جليلة عن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في مجال الكرم الذي قد ازدان بالإخلاص لله تعالى ، وذلك بإخفاء الصدقة ، وإخفاء الصدقة أفضل من إعلانها لما جاء في قول رسول الله ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه » [2] .

وذلك في غير الحالات الخاصة التي يستحب فيها إعلان الصدقة مثل ما إذا أصابت المسلمين جوائح وأراد الإنسان بإظهار الصدقة أن يكون قدوة لغيره أو فيما إذا دعا الإمام للصدقة بصورة معلنة .

ولقد كان رحمه الله تعالى يحمل الطعام إلى الفقراء في الليل بنفسه حتى يحافظ على إخفاء الصدقة ، وقد نجح في إخفائها حيث لم يكن يعلم الفقراء بأنه هو الذي يمونهم حتى توفي .

ولئن كان قد فات ابنَ الحسين ماكان يعمل له بعض الناس في الدنيا من جاه وسمعة فلقد ظفر بجاه الآخرة وسمعتها ، وشتان مابين الدارين .

---

(١) الزهد / ١٦٦ .

(٢) صحيح البخاري ، رقم ١٤٢٣ (٣/ ٢٩٢) .

بقية أخبار الدورة :

قمنا بزيارة منبع نهر النيل الأساسي في بحيرة «فكتوريا» التي تُطلُّ عليها عدد من الدول منها أوغندا وكينيا وتنزانيا ، وذلك بصحبة أفضل شابٍّ رأيناه في « كمبالا» وهو الأخ / إسماعيل محمد / وهو من دعاة الرابطة ، وقد سعدنا في تلك الرحلة برؤية أكبر منابع نهر النيل، وقد علمنا من مُرافقنا بأن نهر النيل يبلغ طوله من بحيرة فكتوريا إلى البحر الأبيض المتوسط أربعة آلاف كيلو، وهو على حسب دراستنا القديمة أطول نهر في العالم .

دورة في كينيا

بعد انتهاء دورة أوغندا سافرت أنا وصاحبي الدكتور عبد الله أبو عِشِّى المالكي إلى دولة «كينيا» واستقبلَنا في مطار عاصمتها « نيروبي » مدير مكتب الرابطة في كينيا أحمد مسلم وهو من أصل عربي .

وكنا قد سمعنا ونحن في أوغندا بأن كينيا ينتشر فيها السرَّاق وقطَّاع الطرق وأن الناحية الأمنية فيها ضعيفة ، وقيل لنا إن الفنادق مادون الدرجة الرابعة تُغلق بأبواب الحديد ليلا أما الدرجة الرابعة والخامسة ففيها عدد من رجال الأمن في كل دور وعند المداخل ، ومن أجل هذا لم نستغرب حينما أوصلنا الأخ أحمد مسلم إلى فندق من الدرجة الرابعة ، ورأينا فيه رجال الأمن في كل دور.

وقد بقينا في كينيا أربعة أيام قمت أنا وصاحبي الدكتور عبد الله بلقاء الطلاب وإلقاء المحاضرات، وقد اضطررنا لاختصار الدورة لأن الأخ عبد الله أبو عشي على موعد مع معالي الأمين العام للرابطة للسفر معه إلى روسيا ، والأخ أبو عشى متخصص باللغة الإنجليزية ، ولكن له مشاركة في الدعوة والعلوم الشرعية .

هذا وسأذكر جزءًا من إحدى المحاضرات التي ألقيتها في تلك الدورة ، وهي بعنوان « الحفاظ على العلم وتطبيقه وإعزازه » .

من مواقف هُدْبَة بن خالد رحمه الله :

من الحِفَاظ على تطبيق العلم ماذكره الحافظ ابن كثير من خبر المحدِّث هُدْبَة بن خالد القيسي مع أمير المؤمنين المأمون ، قال : وحضر عند المأمون هدبة بن خالد ليتغدى عنده ، فلما رُفعت المائدة جعل هدبة يلتقط ماتناثر منها من اللباب وغيره ، فقال له المأمون : أما شبعت ياشيخ؟ فقال : بلى، حدثني حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « من أكل ماتحت مائدته أَمِنَ من الفقر»، قال : فأمر له المأمون بألف دينار [1] .

فهذا مثل من شكر النعمة والوعي الجيد للعلم والتطبيق الدقيق للسنة يقدمه العالم المحدث هدبة بن خالد القيسي، وقد حاز بذلك على إعجاب أمير المؤمنين المأمون بعدما أنكر عليه ذلك العمل.

وهكذا ينبغي للعالم أن يكون واعيًا بعلمه ، مستحضرا له عند المناسبات ، وأن يطبقه عمليا ليكون قدوة لغيره .

موقف للحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله :

للحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي موقف علمي جيد رد فيه تزييف بعض اليهود، وذلك فيما ذكره محمد بن عبد الملك الهَمذاني في

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٠ .

تاريخه قال : وأظهر بعض اليهود كتابا ادَّعى أنه كتاب رسول الله ﷺ بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادة الصحابة رضي الله عنهم ، وذكروا أنه خط علي رضي الله عنه ، وحُمِل الكتاب إلى رئيس الرؤساء فعرضه على الخطيب فتأمله وقال : هذا مزوَّر ، قيل : من أين قلت ؟ قال: فيه شهادة معاوية وهو أسلم عام الفتح وفُتِحَتْ خيبر سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات يوم بني قريظة قبل خيبر بسنتين ، فاستُحْسِنَ ذلك منه[1] .

فهذا مثل من غزارة علم الحافظ الخطيب البغدادي ومعرفته بالتاريخ الإسلامي حيث أبطل ذلك الكتاب المزور بمعرفته الدقيقة بتاريخ إسلام الصحابة رضي الله عنهم وتاريخ وفياتهم .

من أخبار أبي بكر الأنباري رحمه الله :

من أخبار سياسة العلماء أنفسهم بالحزم والجد حتى يبقوا على قوة الحفظ وجودة الذاكرة ماذكره القاضي أبو يعلى عن محمد بن جعفر التميمي النحوي قال: قال أبو الحسن العروضي : اجتمعت أنا وأبوبكر بن الأنباري[2] عند الراضي على الطعام،وكان قد عرف الطباخ مايأكل أبو

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٨٠ .

(٢) هو محمد بن القاسم بن محمد الأنباري .

بكر فكان يسوِّي له قليَّة يابسة، قال: فأكلنا نحن من ألوان الطعام وأطايبه وهو يعالج تلك القلية، ثم فرغنا وأُتِينا بحلواء فلم يأكل منها شيئًا ، وقام وقمنا إلى الحَيْس، وقمنا إلى حيس ماء نشربه، ولم يشرب إلى العصر فلما كان من العصر قال للغلام : الوظيفة، فجاءه بماء من الحِبّ[1] ، وترك الماء المزمَّل بالثلج، فغاظني أمره فصحت صيحة ، فأمر أمير المؤمنين بإحضاري وقال: ماقصتك ؟ فأخبرته وقلت: هذا ياأمير المؤمنين يحتاج إلى أن يحال بينه وبين تدبير نفسه لأنه يقتلها ولايحسن عِشْرتَها، قال: فضحك وقال : له في هذا لذة وقد جرت به العادة فصار إلفا فلن يضره،ثم قلت:ياأبا بكر لِمَ تفعل هذا بنفسك ؟ قال:أُبقي على حفظي،فقلت له:قد أكثر الناس في حفظك فكم تحفظ ؟ قال:أحفظ ثلاثة عشر صندوقا، قال محمد بن جعفر التميمي النحوي : وهذا مالا يحفظ لأحد قبله ولابعده ، وكان أحفظ الناس لِلُغة ونحو وشعر وتفسير وقرآن، فحُدِّثت أنه كان يحفظ عشرين ومائة تفسير من تفاسير القرآن بأسانيدها[2] .

ففي هذا الخبر دلالة على اهتمام العلماء بحفظ العلم والاحتفاظ به

---

(١) الحبُّ إناء من الفخار يبرد به الماء .

(٢) طبقات الحنابلة ٢/ ٧٠ .

في الذاكرة ، وإذا تعارض ذلك - في نظرهم - مع التمتع بأنواع الطعام فإنهم يقلِّلون من الطعام من أجل الاحتفاظ بقوة الحفظ وجودة الذاكرة ، فهذا ابن الأنباري يتجنَّب أطايب الطعام والماء المثلج ليحتفظ بحفظه، وهذه النتيجة التي استظهرها من تصرفه هذا قد تكون مما نصح به بعض الأطباء وقد تكون مما عرفه العلماء بتجاربهم .

وقد أثبت الطب الحديث أن ما ذهب إليه أبو بكر الأنباري صحيح، وذلك لأن الدماغ يَضُخُّ الدم إلى المعدة من أجل هضم الطعام، فإذا كان الطعام كثيرا وبطيء الهضم فإن الدماغ يضخ كمية كبيرة من الدم ولمدة طويلة نسبيا ، فيضعف إمداد الفكر بالدم .

موقف للقاضي شريك النخعي رحمه الله :

مما كان يلاحظه العلماء أن يكون الطالب على هيئة تضمن اتصافه بخلق التواضع وبُعدَه تماما عن مداخل الكبر ، يدل على ذلك مارواه حمدان بن الأصبهاني قال : كنت عند شَريك فأتاه بعض ولد المهدي فاستند ، فسأله عن حديث فلم يلتفت إليه وأقبل علينا ، ثم أعاد فعاد بمثل ذلك، فقال : كأنك تستخف بأولاد الخليفة ، قال: لا ولكن العلم أزْيَن عند أهله من أن تضيعوه ، قال : فجثا على ركبتيه، ثم سأله ، فقال

شريك : هكذا يُطلب العلم [1] .

وهذه لفتة جليلة من القاضي شريك بن عبد الله النخعي رحمه الله تعالى ، يعلِّم بها طلاب العلم التواضع قبل أن يعلمهم العلم، وذلك لضمان انتفاعهم بالعلم ، وعدم حصول القدوة السيئة بهم من الطلاب الآخرين .

موقف للإمام ابن المبارك رحمه الله :

من مواقف الإمام عبد الله بن المبارك ، مارواه أحمد بن الحواري قال: جاء رجل من بني هاشم إلى عبد الله بن المبارك ليسمع منه، فأبى أن يحدثه ، فقال الشريف لغلامه:قم فإن أبا عبد الرحمن لايرى أن يحدثنا، فلما قام ليركب جاء ابن المبارك ليمسك بركابه، فقال: ياأبا عبد الرحمن تفعل هذا ولاترى أن تحدثني ! فقال: أُذِلُّ لك بدني ولا أذل لك الحديث [2] .

فهذا الرجل الشريف قد أتى بهيئة تتسم بالترفع والكبرياء فتحرَّج الإمام ابن المبارك من أن يحدثه وهو على تلك الحال حتى لايُذِلَّ حديث رسول الله ﷺ .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٠٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٠٤ .

وهذه النظرة الجليلة وأمثالها كان فيها حمايةٌ للعلم من أن يحمله من ليسوا من أهله ، ومع هذا فإن ابن المبارك كان داعية ناجحًا حينما تواضع لذلك الرجل وقام ليخدمه فأذل له نفسه في الوقت الذي أعز فيه علمه ، فلله دره من إمام حكيم يضع الأمور في مواضعها .

من مواقف الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله :

ذكر الحافظ الخطيب البغدادي من خبر بكر بن منير بن خليد بن عسكر قال: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل : أن احمل إلي كتاب «الجامع» و «التاريخ» وغيرهما لأسمع منك، فقال محمد بن إسماعيل لرسوله: أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب الناس، فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضرني في مسجدي أو في داري، وإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة ، لأني لا أكتم العلم ،لقول النبي ﷺ: «من سئل عن علم وكتمه ألجم بلجام من نار »[1] .

بقية أخبار الدورة :

من الأمور التي أرى ذكرها مناسبا لما فيه من ظهور حفظ الله – تعالى

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٣٣ ، والحديث المذكور أخرجه الأئمة أحمد في المسند ٢/ ٢٦٣ ، وأبو داود في سننه رقم ٣٦٥٨، (٤/ ٦٧) ، والترمذي في سننه ، رقم ٢٦٤٩ (٥/ ٢٩) وحسنه .

– لي ، أنني حينما وصلت مطار « نيروبي » في رحلة القدوم كان معي مبلغ كبير من الدولارات ، وكان سبب ذلك أنني لما أردت تحويل السُّلفة إلى كينيا وأوغندا أبلغني الموظف المختص في البنك في مكة المكرمة أنني لا أستطيع استلام المبلغ هناك إلا بعد أسبوعين ، وذلك لأن التحويل يذهب أوَّلاً إلى أحد بنوك الولايات المتحدة الأمريكية ، فحملت معي مبلغًا من المال من باب الاحتياط ، وقد عثر المفتشون في المطار على تلك النقود فأتعبوني كثيرا وعطلوني أنا وصاحبي الدكتور عبد الله ، ولما وصلت إلى كينيا بعد أوغندا وجدت أن المبلغ المحوَّل قد وصل في آخر لحظة ، ولم يكن هناك وقت للتحويل ، فوضعته في جيب معطفي الداخلي فلما كان قُبيل فجر يوم السفر دعوت الله تعالى بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم آمِنْ روعاتي واستر عوراتي ، اللهم احفظني من بين يديَّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي واحفظني ربي من فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي» . وكنت أكرر هذا الدعاء، فلما خرجنا إلى المطار قلت للأخ أحمد مسلم : نحن بحاجة إلى من يرافقنا داخل المطار ، وما أن أتممت كلامي حتى رأى أحد الوزراء السابقين ، فكلمه في مساعدتنا ، فقال : هذا المرافق الذي معي أنا لست

بحاجة إليه فسأقول له يرافقكم ، فكان معنا وسهل لنا إجراءات المطار ، ثم طلبت منه أن يرافقنا إلى آخر نقطة في المطار وهي التي فيها التفتيش ، فبقي معنا ، فلما وصلنا إلى تلك النقطة فتشونا وطلبوا مني خلع المعطف الذي كنت ألبسه ، فكلمهم ذلك الرجل المرافق لنا بشدة حتى تركونا نمر بسلام.

هذا وإن موضوع تسخير ذلك الوزير ليرسل معنا مرافقه يجب أن لا يُحمل على أنه من باب الصدفة ، وإنما ينبغي التركيز على أنه منحة ربانية في استجابة دعاء مضطر ، وأن يشعر المسلم أن الله – سبحانه – معه دائما بحفظه إذا كان مع الله في حفظ دينه واللجوء إليه عند الشدائد .

إن مجرد شعور المسلم بأنه مرتبط بحبل سام يربطه بحفظ الله تعالى ونصره وإغاثته يقوِّي إيمانه ويرسِّخ يقينه حتى يصل إلى علم اليقين بأن الله – سبحانه – مع أوليائه المؤمنين بحمايته وحفظه .

دورة في كازخستان

في شهر جمادى الثانية من عام ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م تم تكليفي من رابطة العالم الإسلامي بإقامة دورة في مدينة«أَلمآتا» في دولة «كازخستان»، وقد سافرت أنا وفضيلة الدكتور سعد الشهراني الذي كلِّف بالتدريس في تلك الدورة وقد أسعدني – كثيرا – بصحبته في تلك السفرة ، وقد سافرنا عن طريق تركيا ، ومن ذكرياتي مع أخي الدكتور سعد أنني كنت أُحدِّد له الدُّول التي نمر بها ، وكان سفرنا في النهار ، فقلت له : نحن الآن فوق بلاد الأناضول في تركيا، وسنصل بعد مدة إلى دول القوقاز ، ثم سنكون فوق بحر قزوين ، وبعد انتهاء البحر سندخل في أراضي «كازخستان» ، وفعلاً مررنا فوق بحر قزوين ، فكان يتعجب من معرفتي بالجغرافيا ، فقلت له : إن هذا الفن كان هواية لي في المرحلة الإعدادية ، فكانت لي معرفة بالقارات الست ، ولما وصلنا إلى « ألمآتا» ونزلنا في الفندق وأردنا الصلاة لم نعرف القبلة ، وليس القائمون على الفندق من المسلمين ، فقلت للدكتور سعد – وكان له بعض المعرفة باللغة الإنجليزية – : إسألهم عن جهة الشمال ، فحددوا لنا جهة الشمال ، فقلت للأخ سعد : القبلة هنا ، لأن هذه المدينة تقع في الشمال الشرقي لمكة المكرمة وهي أقرب إلى الشرق ، وصلينا ، ولما جاء الإخوة الجزائريون

الذين كانوا في تلك المدينة سألناهم عن القبلة فكان جوابهم في الجهة التي صلينا إليها تماما ، وذلك من فضل الله تعالى .

وقد تمت إقامة تلك الدورة في تلك المدينة في إحدى جامعاتها، وقد وصل بعدنا سعادة مدير الإعلام في رابطة العالم الإسلامي الدكتور حسن الأهدل ، وذلك للتخطيط لمؤتمر إسلامي سيحضره معالي الأمين العام للرابطة .

ومما لفت نظري أنا والدكتور سعد والدكتور حسن كثرة الإقبال من الشباب والشابات اللاتي كن يجلسن خلف الشباب ، حتى بلغ عددهم ٣٥٠ طالبا وطالبة ، وكنا نُدِّرسهم في قاعة واحدة .

هذا وقد تم عقد ذلك المؤتمر الإسلامي ، وشاركت في حضور بعض جلساته ، وألقيت كلمة عن دور الأتراك في خدمة الإسلام والجهاد في سبيله عبر التاريخ الإسلامي .

وقد بكى من بعض ما تضمنته هذه الكلمة بعض الحاضرين وهذه مختارات من هذه الكلمة :

في هذه الكلمة سأبين شيئا من الآثار الإسلامية التي خلَّفها أهل تركستان على مدار التاريخ الإسلامي ، وتركستان بلاد واسعة تمتد حدودها من بحر قزوين غربًا إلى حدود الصين القديمة شرقا، ومن

سيبريا ومنغوليا شمالا إلى إيران وأفغانستان والهند والتبت جنوبا، وقد قسمها المستعمرون قديما إلى تركستان الغربية وقد استعمرتها روسيا ، وتركستان الشرقية وقد استعمرتها الصين، وتم تقسيم تركستان الغربية إلى خمس دول وهي كازخستان وأوزبكستان وطاجستان وقيرغستان وتركمانستان ، وقد استقلت هذه الدول عن روسيا كما هو معروف ، أما تركستان الشرقية فهي لا تزال تابعة للصين.

وقد كان التعبير عن التركستانيين في الكتب القديمة بالأتراك ، ثم أصبح هذا الاسم علما على جزء منهم وهم الذين استولوا على بلاد الروم وأقاموا الدولة التركية العثمانية .

وإن المتأمل في مسيرة تاريخ المسلمين يرى أن للأتراك أثرًا مُهمًّا في الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيله ونشر العلم الشرعي ، وذلك بعد عصر الإسلام الأول ، حيث قامت للأتراك دول إسلامية كانت تابعة للخلافة الإسلامية في بغداد .

وفي تقليب صفحات التاريخ نجد أن الأتراك المسلمين كانوا يُسهمون في نصر الإسلام وحماية المسلمين ، فالذين وقفوا في جهاد الصليبيين وصبروا كثيرٌ من قادتهم وجنودهم من الأتراك .

ومن أشهر هؤلاء القادة عماد الدين زنكي الذي جاهد الصليبيين

وفتح كثيرًا من حصونهم ، وكان أهمَّ فتوحاته فتحُ مدينة «الرها» التي كانت من أحصن معاقلهم .

ثم خلَفه ابنه السلطان العادل والمجاهد المناضل نور الدين محمود الذي لازم جهاد الصليبيين منذ أن كان غلاما يافعا مع أبيه إلى أن وافته المنية ، ولقد واجه الصليبيين في أكثر من عشرين معركة كان النصر حليفة في أكثرها .

ومع تلك الانتصارات الكثيرة فإنه كان متواضعا خاشعا لله تعالى، ذكر المؤرخ أبو شامة أن نور الدين لما التقى مع الصليبيين في حصار حصن «حارم»في الشام انفرد تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل ومرغ وجهه وتضرع وقال : يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياءك ،وهؤلاء [يعني النصارى] عبيدك وهم أعداؤك فانصر أولياءك على أعدائك ، ثم قال : اللهم انصر دينك ، ولاتنصر محمودا من هو محمود الكلب حتى ينصر !

ولما حاصر الصليبيون مدينة « دمياط» في مصر اهتم السلطان نور الدين بذلك واغتم كثيرا .

وقد ذكر المؤرخ أبو شامة هذا الخبر ثم قال : وبلغني من شِدَّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نَزَلَ الفرنج على دِمياط أنه قرئ عليه جُزْء من حديث كان له به رواية ، فجاء في جملة تلك الأحاديث

حديث مسلسل بالتبسُّم ، فطلَبَ منه بعضُ طلبة الحديث أن يتَبسَّم لتتم السلسلة ، على ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال : إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسمًا والمسلمون مُحاصَرون بالفرنج.

وبلغني أن إمامًا لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له : أَعلِم نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة ، فقال : يارسول الله ، ربما لا يصدِّقني ، فاذكر لي علامةً يعرفها . فقال : قل له بعلامة ما سجدت على تلِّ حارم وقلتَ : يارب انصر دينك ولاتنصر محمودًا ، من هو محمود الكلب حتى يُنْصر ! قال : فانتبهت ونزلت إلى المسجد ، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغَلَس ، ولا يزال يتركَّع فيه حتى يصلِّي الصبح، قال: فتعرَّضتُ له ، فسألني عن أمري ، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة ، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب ، فقال نور الدين رحمه الله تعالى : اذكر العلامة كلَّها . وألحَّ علي في ذلك ، فقلتها ، فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا ، وأُرِّخَتْ تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة .

ولقد كان السلطان نور الدين يريد أن يطهر بلاد الشام ومصر من الصليبيين ، وكاد أن يبلغ ذلك لولا أن وافته المنية رحمه الله تعالى عام تسعة وستين وخمسمائة وهو يواصل جهادهم ، وكانت أمنيته الغالية أن

يفتح بيت المقدس ، ولقد أمر بصناعة منبر للمسجد الأقصى في حلب تفاؤلا بالفتح ولكن الله تعالى قد ادَّخر شرف ذلك للسلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى .

ولقد اشتهر السلطان نور الدين بالعدل حتى لُقِّب بالسلطان العادل، وفي عدله يقول المؤرخ ابن الأثير : لم يكن بعد عمر بن عبدالعزيز مثل الملك نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه ، ومن مظاهر عدله أنه كان يجلس مع خصومه أمام القاضي، ويطبق أحكام القضاء على كبار رجال دولته ، كما أنه قام بإلغاء جميع الضرائب التي قررها الحكام من قبله .

بقية أخبار الدورة :

هذا وقد كان حفل اختتام الدورة على شرف معالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي في القاعة التي عُقد فيها المؤتمر ، وقد ألقى معاليه كلمة توجيهية ، ثم تم الإعلان عن الفائزين في اختبار تلك الدورة ، وسلمهم معالي الأمين العام الجوائز ، وتم توزيع الشهادات التي طبعت قبل ذلك في الرابطة ، وكان لها أثر كبير على الطلاب، لأنها طبعت بتصميم أنيق .

ويقع بقرب « ألمآتا » جبال يبقى الثلج في أعلاها حتى في الصيف،

ويتسرب إلى المدينة ماء في جدول ، وقد خرجنا في نزهة وجلسنا حول ذلك الجدول ، وماؤه بارد ، وكنا نضع فيه البطيخ فيكون باردًا ، وقد صعدنا في « التلفريك» إلى ربوة دون تلك الجبال فكانت الثلوج قريبة منا، وقد تذكرت – لما رأيت الثلج في أعلى الجبال – قول الله تعالى عن الماء﴿ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ فالله سبحانه يخزن ماء المطر في بطون الأرض وفي أعالي الجبال ، ثم يتحدَّر شيئًا فشيئًا بفعل الذوبان من أشعة الشمس .

دورة أثيوبيا الثانية

في شهر رجب من عام ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م تم تكليفي من قِبَل رابطة العالم الإسلامي بإقامة دورة في أثيوبيا ، وذلك بناء على طلبٍ تقدمت به جمعية الدعوة الإسلامية في « أديس أبابا » عاصمة أثيوبيا ، وقد رافقني في هذه الدورة الدكتور عبد الجليل العروسي الذي كان معي في دورة أثيوبيا الأولى .

وقد تم جمع دعاة الرابطة ودعاة هيئة الإغاثة وغيرهم ، وأقيمت الدورة في فصول مدرسة «الأولية» ، وقد تم تنظيم محاضرات عامة، وكان الحضور فيها كبيرا من الرجال والنساء .

ومما لفت نظري في هذه الرحلة أنه قد جاءني رجل أثيوبي بفرحة وحماس وقبَّل رأسي ويدي ، وكان معه كتابي « الرسائل الشمولية» فقال لي : هذا الكتاب أنا اشتريته بمائة ، فقلت : حرام هذا الكتاب لايتجاوز ثمنه خمسة عشر ريالا ، فقال: لو طُلب مني أكثر من ذلك لدفعت ، هذا الكتاب أصلح الله تعالى به ولدي ، كان لي ولد سلك مسلك المتشددين ، فهجرني وخرج من بيتي ، فأرسلت له بهذا الكتاب ، فلما قرأه جاء إلي وقبَّل رأسي ويدي وطلب مني أن أعفو عنه ، وهو الآن يعيش معي في البيت على أحسن حال من السماحة والوسطية ، فقلت له : ذلك من

فضل الله تعالى ، وبهذه المناسبة فإن هذا الكتاب قد أصلح الله تعالى به بين طوائف في أوروبا وأفريقيا، لأنه يركز على الدعوة إلى الوسطية والاعتدال .

وقد ألقيت هناك عددا من المحاضرات منها محاضرة بعنوان «**مواقف في الإيثار** » وهذا موجز لبعض محتويات هذه المحاضرة :

من مواقف عثمان رضي الله عنه :

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من خبر عطاء بن فروخ مولى القرشيين: أن عثمان رضي الله عنه اشترى من رجل أرضا فأبطأ عليه ، فلقيه فقال: مامنعك من قبض مالك ؟ قال: إنك غبنتني فما ألقى من الناس أحدا إلا وهو يلومني ، فقال: أو ذلك يمنعك ؟ قال: نعم ، قال: فاختر بين أرضك ومالك ، ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « أدخل الله الجنة رجلا كان سهلا مشتريا وبائعًا ، وقاضيا ومقتضيا» [1] .

فهذا مثل رفيع في السماحة في البيع والشراء ، وهو يدل على ماجُبل عليه عثمان رضي الله عنه من الكرم وعدم التعلق بالدنيا ، فهو يستعبد الدنيا لخدمة مكارم الأخلاق التي من أهمها الإيثار، ولاتستعبده الدنيا فتجعل منه أنانيًّا يؤثر مصالحه الخاصة وإن أضر بالناس .

---

(١) مسند أحمد ١/ ٤١١ رقم ٤١٠ .

موقف للزبير بن العوام رضي الله عنه :

عن عروة بن الزبير أنه قال : أوصى إلى الزبير سبعة من الصحابة منهم عثمان وابن مسعود وعبد الرحمن [يعني ابن عوف] ، فكان ينفق على الورثة من ماله ويحفظ أموالهم [1] .

وهذا مثل رفيع من أمثلة الكرم والوفاء ، وهو يجسِّم المعاني السامية في النفس حتى تبقى هي الماثلة في الضمير الحي ، وتبعًا لذلك يُسخِّر هذا الضمير الحي كل مايملك من أجل سيادة هذه المعاني .

وقد تجود النفس مرة ومرة ثم يعترضها شيء من الفتور ، فأما أن يتكفَّل مثل هذا الشهم السخي بالنفقة على ورثة عدد من الصحابة ويحفظ لهم أموالهم فهو نموذج فريد في عالم الواقع، ومؤشر مهم من مؤشرات الرقي الأخلاقي لدى الصحابة رضي الله عنهم .

موقف للقاسم بن محمد رحمه الله :

الإمام القاسم بن محمد هو أحد فقهاء المدينة في عهد التابعين ، يقول عنه الإمام مالك بن أنس : وكان يكون بينه وبين الرجل المداراة في الشيء فيقول له القاسم : هذا الذي تريد أن تخاصمني فيه هو لك ، فإن كان حقًّا فهو لك فخذه ولا تحمدني عليه ، وإن كان لي فأنت منه في حل

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٥٥ .

وهو لك [1] .

وبهذا يضرب هذا العالم الرباني مثلاً عاليا في السماحة والبعد عن الخلاف والمراء ، وهذا الخلق الكريم ينطبق عليه الثواب الجزيل الذي ذكره رسول الله ﷺ بقوله : « أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا » أخرجه أبو داود والترمذي [2] .

وهذا الخلق الكريم مبني على الزهد في الدنيا والتجرد من حظ النفس ، ومن نتائجه الطيبة قطع أسباب النزاع والشقاق ، وتقوية المودة والأخوة بين المؤمنين .

بقية أخبار الدورة :

قد تم في هذه الرحلة اللقاء مع عدد من الجمعيات الدعوية داخل العاصمة «أديس أبابا» وخارجها ، ومما يلفت النظر في هذه اللقاءات الأخبار الكثيرة عن كثرة عدد الداخلين في الإسلام من الوثنيين والنصارى ، فقد بلغوا خلال عشر سنوات عشرات الألوف ، واستضافت رابطة العالم الإسلامي عددا من شيوخ القبائل الذين أسلموا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٧ .

(٢) سنن أبي داود ، رقم ٤٨٠٠ ، الأدب (٥/ ١٥٠) ، سنن الترمذي ،رقم ١٩٩٣ ،البر (٤/ ٣٥٨)وقال : هذا حديث حسن .

وعددا من النصارى الذين كانوا في السابق قساوسة .

هذا وقد طلب مني رئيس المجلس الأعلى الإسلامي أن أخطب وأصلي الجمعة في المسجد الجامع الكبير ، وقد كان موضوع الخطبة في الكلام على حديث « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ..» وقد أُعجب بالخطبة بعض المسؤولين المسلمين والسفير السعودي وبعض رؤساء الجمعيات الإسلامية ، وذكروا لي أن هذه الخطبة يرجون أن يؤلف الله بها بين الجماعات الإسلامية التي يكون بينها شيء من النزاع وعدم اجتماع الكلمة ، وقد كان في الساحة طائفة من السلفيين المتشددين في المنهج الدعوي وطائفة من السلفيين المعتدلين وطائفة من الصوفية ، فطلب مني بعضهم الخطبة مكتوبة فكتبتها على نحو قريب مما ألقيت ، وذلك كما يلي :

عن ثوبان رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها ، وإني أُعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لايهلكوا بسنة عامة، وأن لايسلِّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي عز وجل قال: يامحمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُردُّ ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا

أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يفني بعضا» الحديث رواه الإمامان أحمد ومسلم [1] .

فهذا حديث عظيم جامع لأمور تتعلق بواقع الأمة الإسلامية في عصورها الأولى وبما سيكون في مستقبل أمرها في آخر الزمان .

وقد بدأ النبي ﷺ ببيان مابشره الله تعالى به من فتح مشارق الأرض ومغاربها للمسلمين واتساع دولة الإسلام حتى تشمل أكثر بقاع المعمورة، وأن الله تعالى أعطاه الكنزين: الكنز الأحمر وهو الذهب ، وذلك كناية عن ملك بلاد الروم لأن غالب عملتهم الذهب، والكنز الأبيض وهو الفضة ، وذلك كناية عن ملك بلاد الفرس ، لأن غالب عملتهم الفضة ، وقد استولى المسلمون في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على دولة الفرس بكاملها ، واستولوا في عهدهما على أهم ممالك الروم وهما بلاد الشام ومصر ، ثم استمر فتح بلاد الروم حتى تم فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح الخليفة العثماني .

ثم ذكر ﷺ أنه سأل ربه جل وعلا أمرين :

أولهما : أن لايُهلك أمته بسنة عامة ، يعني أن يعم الجدب بلاد

(١) مسند أحمد ٥/ ٢٧٨ ، صحيح مسلم ، رقم ٢٨٨٩ (ص ٢٢١٥) .

المسلمين ويتواصل بحيث تهلك بسببه الأمة ، والأمر الآخر أن لايسلط على أمته عدوًّا من خارج بلادهم فيستولي على قوتهم ويزيح دولتهم ، وقد ذكر ﷺ أن قضاء الله تعالى إذا قدَّره فإنه نافذ لا محالة ولايمكن رده وأنه أجاب دعاء الرسول ﷺ الأول بدون استثناء ، وقد تحقق ذلك حيث لم تهلك الأمة بسبب توالي الجدب على بلادها ، أما الدعاء الثاني فإن الله تعالى أجاب نبيه ﷺ فيما سأله حتى لو اجتمع على المسلمين من بأقطار الأرض ، ولكن بشرط أن يبقوا مجتمعين على دولة واحدة ، وأن لايقاتل بعضهم بعضا بصورة تفني دولتهم وتقضي على قوتهم ، فإذا فعلوا ذلك تسلط عليهم أعداؤهم ، وقد تحقق ذلك أيضًا ، فإن أكبر دولتين في العالم - آنذاك - الروم والفرس قد تصدوا لحرب المسلمين في عهد الصحابة رضي الله عنهم فانتصر عليهم المسلمون واستمروا في بسط نفوذهم وإقامة دولتهم على بلاد العالم ، ولكن ما إن أصبح بأسهم بينهم وتحولت قوتهم وطاقاتهم العالية إلى القتال فيما بينهم حتى تسلط عليهم أعداؤهم، ومازال المسلمون في تفرق وخلاف وضعف حتى استعبدهم أعداؤهم واستولوا على أكثر بلادهم وقسموا دولتهم العظمى إلى دويلات صغيرة، وما تزال هذه الدويلات قائمة حتى الآن .

فهذا الحديث يبين لنا أهمية اجتماع كلمة المسلمين ، واجتناب

أسباب النزاع والفرقة ، وإن من أهم طوائف المسلمين التي تخاطب بهذا التوجيه النبوي هي الجماعات الإسلامية الدعوية ، التي انتشرت في هذا العصر في أكثر بلاد الإسلام وفي البلدان التي فيها أقليات إسلامية ، وقد كان لهذه الجماعات آثار إيجابية كبيرة في نشر الدعوة الإسلامية ، ولكن مع ذلك كانت لها آثار سلبية على مجتمعات المسلمين، وذلك في تفرق الكلمة وإبراز العداء للجماعات الأخرى والسعي في تشويه سمعتها وتعطيل بعض مشاريعها الدعوية .

إن العاملين في الجماعات الإسلامية هم من أبرز الدعاة إلى الله تعالى، والدعوة الإسلامية فرض كفاية ، فالدعاة إلى الله تعالى قد قاموا بأداء هذا الفرض الكفائي ؛ فأسقطوا بذلك الإثم عن بقية القادرين على الدعوة من الأمة ، وبهذا يكونون من السابقين بالخيرات الذين ذكرهم الله تعالى بقوله ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] فالسابقون بالخيرات من أبرز صفاتهم أنهم الذين يقومون بأداء فروض الكفاية، فإذا كانوا من المتقين الذين ذكرهم الله تعالى بقوله ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ وهم الذين يؤدون جميع

الواجبات ويجتنبون جميع المحرمات .. إذا كانوا من المتقين فإنهم يكونون من السابقين بالخيرات ، وهم أعلى طبقات الأمة ،ولكن حينما يقع الدعاة إلى الله تعالى في عداء الجماعات الإسلامية الأخرى والكيد للعاملين فيها ومحاولة عرقلة مشاريعهم الدعوية فإنهم يهبطون من درجة السابقين بالخيرات لا إلى درجة المتقين ولكن إلى درجة الظالمي أنفسهم ، لأنهم بأعمالهم هذه السيئة قد ارتكبوا مآثم ووقعوا في أمور محرمة ، فهم يكونون محسوبين من الظالمي أنفسهم وإن كانوا يؤدون جميع الواجبات لأنهم لم يجتنبوا جميع المحرمات .

الانتقال إلى معهد إعداد الأئمة والدعاة

في شهر شوال من عام ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م تم تحويلي إلى عمادة معهد إعداد الأئمة والدعاة في رابطة العالم الإسلامي فقمت بذلك من أواخر عام ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م إلى عام ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م ، وفي هذا العام طلبت من الأمين العام للرابطة بإلحاح أن يأذن لي بالتحوُّل إلى التدريس لأتفرغ بعض الوقت لإكمال مؤلفاتي ، وكان قد رفض قبل ذلك ، ثم وافق لما رشحت له رجلا يعلم أن فيه الكفاية وهو فضيلة الدكتور حسن بن علي الحجاجي، ولا أزال حتى كتابة هذه الذكريات أقوم بالتدريس في هذا المعهد .. هذا المعهد الذي ارتبط بي وارتبطت به منذ سنوات لم أستطع التخلي عنه لوثاقة العلاقة بيني وبين الطلاب الذين يَفِدون من عدد من قارات ودول العالم ويتجددون كل عام .

منهجي في القراءة والكتابة

لقد حُبِّبَتْ إليَّ القراءة في الكتب منذ أن كنت في المرحلة الابتدائية، وبدأت بالكتابة منذ عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م وذلك لـمَّا أعددت بحثا في السَّنَة الأولى من مرحلة الماجستير بعنوان « الأخوة الإسلامية هي الرابطة العالمية » وقد طبع هذا البحث في كتاب ، ثم كتبت بعد ذلك رسالة الماجستير بعنوان « المنافقون في القرآن الكريم » وبعدها رسالة الدكتوراه بعنوان « تفسير ابن عباس من كتب السنة » .

ولما كانت القراءة والكتابة في موضوعات السيرة والتاريخ هواية لي فإنني قد اتجهت إلى التأليف في السيرة والتاريخ ، فألفت كتاب « التاريخ الإسلامي/ مواقف وعبر»الذي بلغ عشرة مجلدات وقد بدأت به في سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م إلى سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م،مع الاشتغال بموضوعات أخرى سيأتي الحديث عنها،ولما كان هذا الكتاب كبيرا ويقلُّ الإقبال عليه لضخامة حجمه فإني قد قسمته إلى عدد من الكتب ، وذلك كالتالي :

١ – السيرة النبوية في مجلدين .

٢ – الخلفاء الراشدون في مجلد كبير .

٣- تاريخ ما بعد الخلفاء الراشدين في مجلد .

٤ – سيرة عمر بن العزيز .

٥ – توجيهات ومواقف أخلاقية .

٦ – توجيهات ومواقف علمية .

٧ – توجيهات ومواقف سلوكية .

٨ – توجيهات ومواقف تربوية .

٩ – توجيهات ومواقف في العدل والمسؤولية .

١٠ – مواقف إصلاحية .

وقد اشتملت هذه الكتب على بيان المواقف الدعوية والإدارية والأخلاقية ووقائع الجهاد الإسلامي والفتوحات الإسلامية ، وسِيَر عدد كبير من أعلام المسلمين ، ابتداءً برسول الله ﷺ وانتهاءً بأحداث وأعلام العهد الأول والأوسط للدولة العثمانية .

وقد توقفتُ عن الكتابة في هذا المجال لانشغالي بالكتابة عن موضوعات أخرى رأيتها أكثر أهمية ، ولعلي أستطيع إكمال الكتابة عن التاريخ الإسلامي ومواقف أعلام المسلمين إذا تمكنت من الوقت اللازم لذلك .

هذا وقد اشتغلت في تلك المدة وما قبلها بالكتابة عن موضوعات في غاية الأهمية،فمن ذلك تأليف كتاب «الرسائل الشمولية في تقرير مبادئ الاعتدال والوسطية » . وذلك على فترات ابتداء من عام ١٤٠٤هـ

وحتى عام ١٤١٤هـ .

وهذا الكتاب يشتمل على ست رسائل وهي :

١ - شمول الاجتهاد في الدين . ٢ – شمول العقيدة .

٣ – شمول العبادة .

٤ – شمول معالم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة .

٥ – شمول السلفية .

٦ – شمول الإسلام للأديان السماوية .

وهذا الكتاب كان له أثر كبير في تقريب وجهات النظر بين المختلفين من علماء الدين في أمور العقيدة وتصحيح بعض المفاهيم حول العقيدة وقد أصبح له دور ظاهر في الإصلاح بين الدعاة إلى الله تعالى في عدد من بلاد المسلمين .

ومن الكتب التي تم تأليفها في هذه الفترة كتاب « من مقاصد الصلاة» وكتاب « من مقاصد الحج » وكتاب « توجيهات للدعاة » .

وقد توجهت اعتبارًا من عام ١٤١٩هـ إلى خدمة كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ ، وهذا هو تخصصي الدقيق ، وقد بدأت بتأليف كتب في التفسير الموضوعي وهي كما يلي :

١ – مختارات من آيات العقيدة (١) .

٢ – مختارات من آيات العقيدة (٢) .

٣ – مختارات من آيات الدعوة والسلوك (١) .

٤ – مختارات من آيات الدعوة والسلوك (٢) .

أما كتب السنة فإني جعلتها تحت سلسلة بعنوان « أضواء من الهدي النبوي » وهي كما يلي :

١ – مختارات من أحاديث الإيمان .

٢ – مختارات من أحاديث العمل الصالح .

٣ – مختارات من أحاديث حقوق المسلمين .

٤ – مختارات من أحاديث السلوك .

٥ – مختارات من أحاديث الآداب .

٦ – مختارات من أحاديث مكارم الأخلاق .

٧ – مختارات من أحاديث مساوئ الأخلاق .

٨ – مختارات من أحاديث الزهد والورع والخشية .

٩ – مختارات من أحاديث التربية والتعليم .

١٠ – مختارات من أحاديث الدعوة والإصلاح .

١١ – مختارات من الأحاديث الجامعة .

وقد انتهيت من هاتين السلسلتين في عام ١٤٣٠هـ ، وخلال هذه

الفترة ألَّفت أيضًا كتاب « محمد رسول الله / الرحمة المهداة» صلى الله عليه وسلم ، وكتاب « من أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية » ، وقد عملت منذ سنوات في إعداد كتب أخرى ولكنها لم تكتمل بعد .

هذا وقد كنت منذ أكثر من أربعين عاما أشغل أكثر وقتي بالقراءة والكتابة ولا أترك القراءة والكتابة إلا لأمر لابد منه ، وقد كان أقاربي في مدينة عنيزة يطلبون مني إذا أردت القدوم إليهم أن لا أُحضر معي شيئا من الكتب ، ولكني لم أستطع تلبية طلبهم لأني لا أستطيع ترك القراءة عددًا من الساعات .

هذا وقد ساعدني على التفرغ للتأليف أنني قسمت الأمور إلى أربعة أقسام : الأول الأهم ، وهو الذي ينتفع منه الآلاف من الناس إلى قيام الساعة ، وذلك يكون بتأليف الكتب والرسائل ، ويمكن أن يكون بالبرامج الإعلامية المسموعة والمرئية ؛ إذا كان يُحتفظ بها فتستفيد منها الأجيال القادمة ، والثاني : المهم وهو يكون في الأنشطة الدعوية التي يستفيد منها عدد محدود من الناس ، وذلك كالمحاضرات والدروس واللقاءات الدعوية التي لاتنتشر في وسائل الإعلام ولايُحتفظ بها، والثالث : قليل الأهمية ، وذلك في الخدمات الفردية مثل كتابة التزكيات والشفاعات وحل المشكلات ، ويدخل في ذلك إجابة الدعوات ،

والرابع غير المهم ، وهو يكون في الأمور الدنيوية التي لا يترتب عليها ثواب أخروي .

فأما الأمر الرابع فإني قد ألغيته من حسابي ، وأما الأمر الثالث فإني لا أشارك فيه إلا نادرًا ، وإجابة الدعوة سنة ، ولكن العمل في تأليف الكتب التي يستفيد منها الآلاف إلى قيام الساعة أهم ، ومن المعلوم أن تناول الطعام في البيت يكفي فيه ربع ساعة ولكن إجابة الدعوة قد تستغرق ما بين ساعة وساعتين ، ولئن حرصت على توفير الوقت لكتابة العلم فلن أصل إلى مستوى العلاَّمة أبي الوفاء ابن عقيل الذي كان يأكل الكعك مطحونا لأن تناوله وهو كذلك يستغرق من الوقت أقل من تناوله وهو على هيئته .

وأما الأمر الثاني فإني كنت أشارك فيه ، ثم رأيت أن الفائدة فيه محدودة ففرَّغت وقتي للتأليف ، وهذا هو الأمر الأول الذي هو الأهم.

ومما ساعدني على التفرغ للتأليف أنني فرغت فكري لذلك بالكامل فلم اشتغل ببيع ولا شراء ، وقد كان نبراسي في ذلك قول الإمام الشافعي –رحمه الله – لوفكرت في شراء بَصَلة ما طلبت العلم ، ومن تجربتي في ذلك أن الإنسان قد يعمل في عدة أنشطة علمية وتجارية ، ولكنه إذا أراد أن ينجح في التأليف فلابد أن يفرِّغ فكره ووقته لذلك .

وكان من العوامل المهمة في نجاحي في تأليف هذه الكتب أنني قد فرضت على نفسي تفرغًا نسبيًّا من العمل، فلم أقبل إلا بالعمل الذي لا يتعارض مع اشتغالي بالتأليف .

وعلى سبيل المثال فإن فضيلة الشيخ الدكتور حسن بن علي الحجاجي لما كان مسؤولا عن فرع وزارة الشؤون الإسلامية في منطقة مكة المكرمة طلب مني أن أكون مديرًا لِلِجَنة مقابلة الأئمة والمؤذنين في منطقة مكة،وكانت محافظة الطائف–آنذاك –تتبع هذه اللجنة ، فاعتذرت منه وبينت له أن عمل هذه اللجنة يتعارض مع اشتغالي بالتأليف ، لأنها تشغل فكري حتى خارج العمل، وقد ألح علي في ذلك ولكني كررت الاعتذار منه ، فاستعان علي بأحد الإخوة الأفاضل من أساتذة جامعة أم القرى ؛ ممن لهم مكانة كبيرة عندي، فوقف معي هذا الدكتور حوالَي ساعة في أحد مباني الجامعة وهو يحاول إقناعي بالموافقة، ولكني كنت أقول له : إن إنتاجي في هذا العمل محدود في قطاع من هذه المنطقة ، ولكن مؤلفاتي إذا طُبعت وانتشرت ينتفع بها مئات الألوف من المسلمين إلى قيام الساعة ، فليس هناك أي مجال للمقارنة بين العملين، وقد ألفت ونشرت من ذلك التاريخ عددًا من المؤلفات .

أما المثال الثاني فقد جرى بعد ذلك في رابطة العالم الإسلامي ،

حيث عرض عليَّ معالي أمين عام الرابطة الدكتور عبد الله بن صالح العبيد عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م أن يُصدر قرارًا بتعييني أمينا مساعدًا لشؤون المساجد ، وهو منصب كبير في الرابطة ، فاعتذرت منه بأن هذا العمل يلزمني بالدوام الكامل كل يوم ، وهذا يحول بيني وبين الاستمرار في التأليف ففضَّلت أن أبقى عميدًا للمعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة؛ لأن هذا العمل لا يشغلني عن مواصلة التأليف .

وكان من دواعي ترشيحي لهذا العمل أن معالي الأمين العام للرابطة كان يريد مني أن أحُلَّ مشكلات بعض مكاتب الرابطة والمراكز الإسلامية التابعة للرابطة خارج المملكة – وأنا مع شكري إياه على هذه الثقة –فإنني أرى أن هذه المهمة لها أهلون؛ومهمة تأليف الكتب لها أهلون، وأنا من المؤهلين للمهمة الثانية ، وإن أي مهمة يكلف بها الإنسان وفكره مشغول بمهمة أخرى فإنه لن ينجح في المهمة التي كلف بها نجاحا كاملا ، لأن جزءًا كبيرًا من فكره سينصرف إلى المهمة التي شغل فكره بها .

هذا وقد رشحت سعادة الدكتور ناصر بن عبد الله الميمان لمنصب الأمين المساعد لشؤون المساجد فقبل معالي الأمين العام للرابطة بهذا الترشيح .

الخروج إلى الطائف

لقد ظللت أكثر من عشرين سنة وأنا أخرج من مكة المكرمة إلى الطائف على مدى ستة أشهر ، ثلاثة منها كاملة وهي أشهر الإجازة الصيفية ، وثلاثة منها أخرج أياما في الأسبوع ، وكنت أحصل في الطائف على الجو الهادئ الذي يضمن لي قدرًا كبيرًا من العزلة لعدم وجود ارتباطات لي في تلك المنطقة ،وقد ساعدني ذلك على كتابة بعض مؤلفاتي، وقد كنت أسكن على مدى خمس عشرة سنة في شقة متواضعة في حي المثناة وكانت تطلُّ من جهتين على فضاء واسع ، وهذا مما أتاح لي فرصة التفكير وصياغة الكتابات ، حيث كنت أقرأ النص ثم أقوم وأدور في الشقة وأُطلُّ على الفضاء الواسع حتى تتكون الأفكار وتلتئم العبارات، وكنت أخرج قبل المغرب إلى البر القريب وأصلي المغرب في مسجد هناك، وكنت كثيرًا ما أذهب قُبَيل المغرب إلى صخرة في سفح منحدر جبلي وتحتها بطحاء فأجلس وأستند إلى تلك الصخرة ، وكنت في ذهابي وإيابي أفكر فيما أريد أن أكتبه ، وأنا كثير التفكير في ذلك في أي مكان أكون فيه، وأحيانًا تزاحمني الفكرة وأنا أصلي ، ومعي أوراق صغيرة أكتب فيها رؤوس أقلام لما فكرت فيه .

وأحيانا أفكر بتحليل علمي وأنا على فراش النوم فأقوم وأفتح

المصباح الكهربائي وأسجل ما خطر لي ، ولكنني في هذا لا أصل إلى معشار ما ذُكر عن الإمام البخاري ، فقد قال تلميذه وكاتبه ابن أبي حاتم: حسَبت لأبي عبد الله أنه قام في ليلة واحدة سبع عشرة مرة يشعل السراج ويكتب ما خطر له من الحديث ، مع ملاحظة صعوبة إشعال السرج آنذاك .

وإن أشد لحظات الندم عندي حينما أفكر في موضوع يستحق الكتابة فيه ثم أنساه ، ولذلك فإنني أسجل رؤوس أقلام في ورقات معي، لكن قد يحصل النسيان فيما إذا فكرت في موضوع وأنا أقود السيارة مثلا أو فيما إذا طرأ عليَّ أمر مهم .

ثم انتقلت بعد ذلك إلى وادي مَحْرَم بين الطائف والهَدى ، فسكنت في شقة اخترتها على المواصفات التي تخدم عملي في التأليف وهي أن تكون لها نوافذ على فضاء واسع .

وقد بقيت فيها حتى الآن ست سنوات ، وكنت استغل هذا الجو المفتوح للتفكير والتأمل .

وحينما كنت أخرج من مكة إلى وادي محرم وكنت أصلي أحيانًا في مسجد الميقات ، فوجدت عددًا من المعتمرين، ولم أرَ أي عالم يصلي في ذلك المسجد يقوم بإفتائهم، ومع تكرُّر هذه الملاحظة فإني قررت أن

أصلي في هذا المسجد بعض الأوقات وأتولى إفتاءهم، وقد كان الإفتاء بمسائل الحج والعمرة متيسرًا لي لأنني كنت إمامًا لمسجد في مكة قرب «منى» لمدة خمس عشرة سنة ، فكنت أقوم بإفتاء الحجاج والمعتمرين ، وكذلك عملت في الإفتاء في لجنة التوعية بالحج التابعة لرابطة العالم الإسلامي ، ولكن من أجل أن لا يكون هناك حرج على إمام المسجد فإنني قد طلبت منه أخذ الإذن بالإفتاء تطوعًا من مدير عام أوقاف الطائف، فأفادني بذلك الإذن ، وبدأت بالإفتاء في فصل الصيف عام ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م وما زلت أقوم بذلك حتى هذا العام ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م .

المدن التي أقمت بها

المدن التي أقمت بها إقامة دائمة هي كالتالي :

١- مدينة « عنيزة » وهي المدينة التي ولدت ونشأت بها ، وذلك من ولادتي عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م إلى تخرجي من المعهد العلمي عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م ، وذلك ثمان عشرة سنة .

٢ – مدينة « الرياض» وذلك من تاريخ تسجيلي بكلية الشريعة عام ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م إلى تخرجي من الكلية عام ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، وذلك أربع سنوات .

٣ – مدينة « بلجرشي » وذلك في عام ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م وذلك عام واحد قضيته في التدريس في معهد بلجرشي العلمي .

٤ – مدينة « أبها » وذلك عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م وذلك عام واحد قضيته في التدريس في معهد أبها العلمي .

٥ – مدينة « مكة المكرمة » وذلك من تاريخ انتقالي إليها للتدريس في معهد الحرم المكي عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م إلى تاريخ كتابة هذا البيان عام ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م ، وذلك خمس وأربعون سنة ، وقد سبق بيان أعمالي في هذه المدة، وأنا شديد الاعتزاز بإقامتي الطويلة في مكة المكرمة التي هي أقدس بقعة في العالم .

وإذا قلنا إن الإنسان يمكن أن ينتسب إلى بلده الذي ولد ونشأ فيه وإلى البلد الذي أقام فيه أطول إقامة فإنه بإمكاني بعد النسب الخاص أن أقول : العُنزي المكي .

أما مدينة « الطائف » وما يتبعها من المصايف فقد كانت إقامتي فيها مؤقتة في فصول الصيف ، وذلك ما يقرب من خمس وعشرين سنة .

أما الانتساب القبلي لمن يهتمون بذلك فإنني انتسب إلى قبيلة «سُبَيع».

وبعد فهذه مختارات من ذكرياتي منذ سنِّ الطفولة وحتى سن الشيخوخة ، وقد كتبتها في عام ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م وعام ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م لأنني لم أكن أكتب شيئًا من ذكرياتي طوال عمري ، فآمل أن تكون محققة للهدف منها في أخذ العِبَر والفوائد العلمية .

فهرس الموضوعات

	ص
- المقدمة	٥
- المعلومات الأسرية	٧
- ذكريات المرحلة الابتدائية	٢٤
- ذكريات المرحلتين المتوسطة والثانوية	٣٥
- ذكرياتي في المرحلة الجامعية	٤٦
- في سنوات العمل في بلجرشي وأبها	٥٧
- الانتقال إلى مكة المكرمة	٦٧
- التدريس في معهد الحرم المكي	٦٧
- الدراسة في قسم الدراسات العليا الشرعية	٧٥
- الموسم الثقافي في رابطة العالم الإسلامي	٧٩
- دورة في سيراليون	٨٢
- مرحلة العمل بعد الدكتوراه	٩٤
- مشاركتي في إمامة المساجد	١٠٨
- محاضرات المساجد	١٣٤
- ارتباطي مع إذاعة القرآن الكريم	١٥٤

- زيارة دعوية في « قطر »	١٩٢
- زيارة السودان	٢٠٠
- عمادة المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة	٢٠٧
- دورة في أندونيسيا	٢١٩
- دورة في النمسا	٢٣٨
- دورات في دول وسط آسيا	٢٤٩
- دورة في بلغاريا	٢٥٣
- دورة في إيطاليا	٢٦٢
- دورة في باكستان	٢٧٧
- العمل مع رابطة العالم الإسلامي	٢٨٩
- دورة أثيوبيا الأولى	٢٩٠
- دورة في بنجلادش	٣٠٥
- المشاركة في التوعية في الحج	٣١٣
- التدريس في الحرم المكي	٣٣٢
- دورة في بلجيكا	٣٥٢
- دورة في أوغندا	٣٦٠
- دورة في كينيا	٣٦٥

- دورة في كازخستان	٣٧٥
- دورة أثيوبيا الثانية	٣٨١
- الانتقال إلى معهد إعداد الأئمة والدعاة	٣٩٠
- منهجي في القراءة والكتابة	٣٩١
- الخروج إلى الطائف	٣٩٩
- المدن التي أقمت بها	٤٠٢